

علي الشوك

كيمياء الكلمات



محتويات الكتاب

١ - مداخلة في المفردات المتشابهة	7
٢ - نظريات متضاربة حول لغات متقاربة	73
٣ - نظريتان حول نشوء اللغة	85
٤ - البحث عن أصل كلمة « اللغة »	101
٥ - العربية ليست لغة هندية - اوروبية	109
٦ - حول الالفاظ العربية المستعارة من الفارسية	133
٧ - سلسلة معاجم تعيد اللغة العربية الى الحياة ... والمستقبل	139
٨ - الفاظ عامية لها جذور ضاربة في القدم	149
٩ - السومريون ليسوا أكراداً	155
١٠ - الدماغ وأثره في الأنغام والكلام	163
١١ - أحدث المعلومات عن نشوء الأبجدية وتطورها	169
١٢ - تنويعات على حرف الهاء	177
١٣ - معنى المسافة عند العرب	181
١٤ - الاسم، الوسم، الوشم، وأشياء أخرى	185
١٥ - الصفير، والصفير، والضفدع	191
١٦ - الكساء، الغطاء، الكفر، الغفران ... من جذور لغوية	
واحدة في لغات متعددة.	195

- ١٧ - العجلة، الجولان، الجالية، الجيل ... من جذر لغوي واحد 201
- ١٨ - خواطر عن الألوان في اللغة العربية وسواها 205
- ١٩ - مفهوم «الأسرة» سوسولوجياً ولغوياً عند الساميين والصينيين واللاتين 211
- ٢٠ - بحثاً عن جذور: الست، الجارية، زنوبيا (زينب) ... وغيرها 217
- ٢١ - البحث عن أصل كلمتي «فينيقيا» و «كنعان» 223
- ٢٢ - القيثارة، الغيتار، السيتار 229
- ٢٣ - الصابون ... لغة وتأريخاً 235
- ٢٤ - الألفاظ الدالة على المذاق الحلو 241
- ٢٥ - أصل المنّ وجذوره اللغوية 249
- ٢٦ - بحثاً عن السكر لغة وتأريخاً 255
- ٢٧ - قراءة في معجم نبات آشوري 261
- ٢٨ - جولة تاريخية في مراحل تطور اللغة المصرية القديمة 399
- ٢٩ - قراءة في كتاب اللغة العبرية 307
- ٣٠ - قراءة في كتاب الاشتقاق لابن دريد 331

مداخلة فيها المفردات المتشابهة

لطالما أثارت اهتمامنا ألفاظ متشابهة مثل: الأرض و earth ، والكهف و cave ، والثور و taurus ، والقطن و cotton ، والقط و cat ، الخ. فهل تم مثل هذا التشابه بمحض المصادفة، أم عن طريق الاستعارة، أم أنها ترجع الى أصل مشترك؟

سوف نرى أن هذه الاحتمالات جميعها قائمة. إلا أن عامل الاستعارة هو الغالب بين المجموعات اللغوية المختلفة. وغالباً ما تكون المفردات المستعارة أسماء لمسميات لا وجود لها، بالاساس، في الأماكن التي انتقلت إليها، كألفاظ الحيوانات والنباتات والأطعمة والألبسة والأدوات والحاجات المادية الأخرى، وما يتصل بالحياة الروحية والاجتماعية أيضاً. فلفظة (الجمل) السامية انتقلت بنصها الى اللغات الأوروبية، لأن هذا الحيوان لا وجود له في أوروبا. وكذلك القول في (الزرافة)، والعمار الوحشي (زبرا) (هذه الكلمة الأخيرة انتقلت من الحبشية الى اللغات الأوروبية)، والقهوة، والسهم، والكرم، والنانج، والياسمين، والزعفران، والكافور، وشقائق النعمان، الخ. فلفظة (القهوة) انتقلت من العربية الى التركية وبقية لغات العالم. بيد أن المعاجم تشير الى أن الكلمة العربية تمت الى لفظة (كافا) Kaffa ، وهي موضع في

الحبشة كان الموطن لنبات البن. و (الياسمين) استعارتها العربية من الفارسية، وعن طريق الأولى انتقلت الى اللغات الأوروبية، ومثلها كلمة (النارنج). أما «الزعفران»، وبالانكليزية saffron، وبالفرنسية saffron، وبالإيطالية zafferano، وبالاسبانية azafron، فمستعارة من العربية (وهي كذلك بالفارسية والتركية والهندية). لكنها، كما جاء في قاموس أوكسفورد، من أصل غير معروف، في حين يقال لهذه الكلمة بالأكديّة azupiranu. وشقائق النعمان تقابلها بالانكليزية anemone، وهي جنس نبات قيل أن ازهاره تتفتح عند هبوب الريح. واللفظة الانكليزية ترجع الى اللاتينية. وهذه من اليونانية. وبالفرنسية anemon تعني (ريح). والكلمة الاغريقية مستعارة على الأرجح من لفظة (النعمان) السامية، والنعمان هو اسم (أدونيس) الذي تقول الأسطورة أن هذه النبتة إنما نبتت من دمه. و (نعما) تعني (المحبوبة) باللغة الفينيقية، وهي لقب إلهة سامية غربية. وأدونيس هو إله الخصب عند الفينيقيين؛ وكان يموت ويبعث كتموز إله البابليين. وفي أسطورة كارت، ملك الصيدانيين، التي عثر على نصها في ألواح أوغاريت (قرب اللاذقية) يتواتر ذكر عبارة «النعمان غلام إيل» أي عبد إيل، وهو، كما يقول الدكتور أنيس فريجة «لقب يطلق على الآلهة والأبطال، ويعني الجميل الوسيم، أو الفاضل، ويرد لقباً للبعل [إله الكنعانيين]. وعندما دخلت اسطورة البعل (أدونيس) بلاد اليونان تغيرت اللفظة السامية (ن ع م ن) الى anemo- ne ومعناها «شقائق (أي جروح) النعمان» (ملاحم وأساطير من أوغاريت، ص ٢٤٨). والنعمان في المعاجم العربية: لقب كل من ملك الحيرة؛ وكذلك الدم. ومن معانيها أيضاً: ريح الجنوب. وهذا يتفق مع

الكلمة الإغريقية anemos (ريح)، واللاتينية anima (نفس، ربح، هواء، نفس الحفاة، حبوى، ربفسى، روى). ومنها جاءت كلمة animal (كائن حبى، حبوان). وهناك «النامة» العربفة: الحبس والحركة. وكذلك «النامة» بألف مهموزة؛ والنمّام: نبت طفب الربب، سمى بذلك لسطوع رائحته، والأنام: ماطهر على الأرض من جمفع البلق (قاموس تاج العروس). قارنها بكلمة animal. فهل ترجع هذا الألفاظ العربفة الى اللاتفنة؟ ببء أن «نعمتو» السربانة تقابل «النامة» العربفة، ومثلها «نهممه» العربفة: زئفر، زمجرة.

وقء اننقلت «البطاطا»، و«الطماطم»، و«التبب» أو «الطباق»، و«الكاكاو» من أمفركا مع ألفاظها الهندفة الحمراء الى بقفة أنحاء العالم. فالبطاطا ترجع الى إءى لهجات السكان الأصلفن لجزفرة هاففبى، وتلفظ عنءهم batata، ثم اننقلت عن طرفق الإسبانفة Patata الى بقفة لغات العالم. والطماطم ترجع الى إءى لهجات السكان الأصلفن للمكسفك، وكانت تلفظ عنءهم tomatl «توماتل». أما لفظة «التبب» أو «الطباق» tobacco فقد نقلها أوفففو Oviedo (١٥٣٥) من أمفركا، وهف من أصل كارففبى، وكانت تقال للفلون الذى فءفن به التبب. فذكر أفضاً لاس كاساس Las Casas (١٥٥٢) الذى أفاء بأنها فعنفى، بالأصل، لف أوراق التبب على هفئة سفكار. أما لفظة «كاكاو» cacao، أو فاصلها من الأزفك، أو قبائل ناهواطل Nahuatl، ومنها اشنقت كلمة «الشوكولاتة».

وكشفرة هف الألفاظ الءفنفة الفف اننقلت من العربفة الى لغات الأقوام الذىن اعننقوا الإسلام. ولا فبءنا بباجة الى ذكر نماءب منها،

لأنها معروفة وأكثر من أن تحصى. ومن الألفاظ الدينية التي انتقلت من السامية الى اللغات الأوروبية: يهوه، المسيح، الشيطان، آمين، هلوليا، الخ. ومع «يهوه» يحضر اسم «يوحنا» لأنهما من مادة واحدة كما تفيد القواميس. فيوحنا يقابله «يوحانان» بالعبرية، وهذه تعني «يهوه الحنون»، ومن هذه المادة جاء الاسم Ioannes في اليونانية المتأخرة، ومنها انتقل الى اللاتينية المتأخرة. ومن هذه المادة جاءت الأسماء الأوروبية: جون بالانكليزية، وجان بالفرنسية، ويوهانس وهانز بالألمانية، ويان بالدانماركية، وخوان ودون خوان (دون جوان) بالإسبانية، وجوفاني بالإيطالية، وإيفان بالروسية، ويانوش بالمجرية، الخ. أما الاسم العربي الذي يقابل يوحنا «المعمدان» فهو يحيى [بن زكريا] كما جاء في القرآن. وأما أصل كلمة «يهوه» فقد اختلف اللغويون في تفسيرها. ويستعرض الدكتور سيد يعقوب بكر بعض هذه التفاسير، فيذكر من بينها أن «يهوه» قد يكون مشتقاً من «هوى» العبرية التي تقابلها «كان» العربية، فيكون معنى «يهوه»: يكون. ويشير أيضاً الى تفسير آخر ينسبه الى فلهاوزن، مفاده أن «يهوه» من «هوى» العربية التي منها «الهواء»؛ فمعناه: «يسري في الأهوية؛ يهب» أي أنه إله العاصفة. ويدعم ذلك كون يهوه معروفاً كإله للبراكين، أو إله للرعْد، كما يقول ف. فليشرز في روايته «وادي الأحلام». ويقابل «يهوه» باللغة الأوغاريتية الكنعانية «يَوْ». ويوايليم هي المقابل الأوغاريتي ليهوه إلههم «يهوه الإله» بالعبرية، مما قد يعني أن ليهوه جذوراً كنعانية.

و «المسيح» لفظة سامية مشتركة، وهي صيغة اسم المفعول في

الأرامية «مشيحا»، من مسح الرأس بالزيت، إذ كانت رؤوس الآلهة والملوك الكنعانية تمسح بالزيت: «اليوم (؟) على رأس الظافر بعل، زيت الحكم سيسكب» (ملاحم وأساطير من أوغاريت، ص ٢٤٣ للدكتور أنيس فريحة). و «سيمسح البعل قرنه بمجيثك. البعل سيمسحهم» (المصدر السابق، ص ٢٣١). كما كان العبريون عند تعيين ملك لهم يمسحون رأسه بالزيت، فيصبح مسيحاً، أي ممسوحاً (المصدر السابق، ٨٥). واللفظة العبرية للمسيح هي «ماهسياج» أو «ماهسيفوس».

أما «الشيطان» فقد عرف عن طريق العبرانيين أيضاً، على أن الكلمة ترجع إلى أصل سامي، لأن الجذر «شط» في العربية يفيد معنى الابتعاد عن الحق، والمروق. و «الشيطان» في العبرية يعني: خصم، متآمر، من الفعل «شطن» يعارض، يتآمر. أما كلمة «إبليس» فأصلها اغريقي diabolos وتعني «المفتري» وهي من الفعل اليوناني المركب dia-ballein «يفتري»، وبالحرف الواحد: يرمي عبر.

ومن بين الكلمات الأخرى التي ورد ذكرها في الإنجيل بمعنى الشيطان: «بعل - زوب»، وتعني «إله الذباب». وترد أيضاً بصيغة «بعل - زبول» أو Beelzebub ويقصد بها «أمير الشياطين»، في الإنجيل بالذات. وبعل زوب في التوراة - يرد ذكره مرة واحدة فقط، في سفر الملوك الثاني - هو إله مدينة عقرون (إحدى المدن الفلسطينية الخمس). و «زوب» تعني ذبابة باللغة العبرية. والمراد هنا الخط من شأن إله الفلسطينيين وتحقيره. على أن «إيل زوب» وردت أيضاً في نص أوغاريتي. ازدهرت حضارة أوغاريت السامية الكنعانية في تل

راس شمرا قرب اللاذقية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد). تقول الالهة
عناة في معرض كلامها على بطولاتها: ... ودمرت بيت إيل زوب.
ولعل اسم بعل زوب يعني «أبو الخصوبة صاحب الذكر العظيم»،
كما يقول الدكتور كمال الصليبي. وفي هذه الحالة قد يذكرنا بكلمة
SIPA السومرية التي جاءت منها كلمة «زب».

أما «زبول» فلها معنيان - على الأقل - متناقضان؛ أحدهما
يعني الزبل، وهو السرجين أو السرقيين؛ والثاني يعني الرفعة والسمو
والشرف. وتستعمل الكلمة لقباً للإمارة والسلطان، فيقال «ز ب ل - ب
ع ل» أي أمير بعل، أو سَمُو بعل (الدكتور أنيس فريحة: ملاحم
وأساطير من أوغاريت، ٤٥ - ٦٤). بيد أن موقع بعل زوب، أو إيل
زوب، أو بعل زبول في الميثولوجيا الكنعانية والفلسطينية ما يزال
غامضاً.

كما استعيرت بعض أسماء العلم، لأسباب دينية وغيرها، من لغة
الى أخرى. وسنكتفي، الآن، بمناقشة اسمين من أقدم الأسماء التي
تسمى بها البشر، هما «آدم» و «حواء». المقطع A في اللغة السومرية
يعني: قوة، أجر، والمقطع DAM يعني: يضع جنباً الى جنب؛ يتسافد،
يتحد بالاتصال الجنسي، وبالتالي زوجة.

أما adamu الأكدي فتعني: دم؛ قماش أحمر، رجل نبيل. وهي
كلمة ترقى الى العهد الأكدي (أي أنها قديمة). وقد وردت كلمة (آ - دا
- مو) في نصوص إيبلا (٢٤٠٠ ق . م) في سوريا، وفي نصوص
أوغاريت السورية بصيغة: أبي - دامو، وتعني: بشر، إنسان. ووردت
في نصوص كيش على النحو الآتي: ادا - مو.

وتعني الكلمة اليونانية damao: يضع تحت النير. وكلمة damazo: يروّض (حيواناً)، يُخضع (زوجة). أما كلمتا damar - artos فتعنيان: زوجة.

ويربط البعض بين «آدم» و «أدمة» التي تعني «أرض، تراب»، وذلك بالاستناد الى التوراة. في سفر التكوين ٢: ٧ «وجبل الرب آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة الحياة...». ومن معاني الأدمة العربية: باطن الأرض والأديم: وجهها. وكانت العلاقة بين البشر والطين معروفة في آداب مابين النهرين ومصر، منذ أن صُنع الفخار. وهناك منحوتة مصرية قديمة تمثل إله الفخار خنوم Khnum وهو يفخر جسماً بشرياً على عجلة الفخار. وكان خنوم يدعى «الفخاري الذي يشكل البشر وينحت الآلهة»، وتعني الكلمة: المقولب أو الناحت. وخنوم هو الذي صور أضلاع أوزيريس. وتقول الأسطورة المصرية أنه هو الذي يعطي للأجساد هيئتها وشكلها (عن موسوعة لاروس الميثولوجية).

وعلى غرار الصلة بين «آدم» بمعنى رجل، و «أدمة» بمعنى تراب نجد صلة مماثلة بين homo (رجل)، و humos (أرض، تراب) اللاتينيتين. وهناك صلة مماثلة أيضاً بين الكلمتين اليونانيتين epikhthonioi (ترايبون، بشر)، و khthon (أرض). وتذكرنا لفظة humos (طين) اللاتينية بكلمة «الحماة» العربية: الطين الأسود المنتن، ومثلها «الحما». وفي القرآن الكريم: «ومن حمأ مسنون»، كما أن «حمر» العبرية تعني: طين. و (ح م ر) الأوغاريتية تعني: طين، وحل. ثم أن اللفظة اليونانية khamai (على الأرض) قد تذكرنا بمادة «قم» العربية، ومنها القمامة: الكناسة.

أما «حواء» فتقابلها في اللغات الأوربية Eve، أو Eva، الخ؛ وهي في العبرية «حواء» أي «الحياة» كما يُظن. وفي التوراة خلقت حواء من ضلع آدم. وقصة آدم وحواء تذكرنا بأسطورة أنكي ونخرسك السومرية. تقول هذه الأسطورة أن أنكي جلب الى دلمون (= البحرين) المياه العذبة، وأن الإلهة نخرسك (وهي الإلهة الأم عند السومريين) غرست في أرضها نباتات بعد أن ولدت ثلاثة أجيال من الإلهات الاناث دون أن تشعر بآلم عند المخاض. ثم استسهوت هذه النباتات أنظار إله المياه أنكي، فانتزعها من الأرض وأكلها الواحدة بعد الأخرى، وتذكرنا هذه الأسطورة بآدم الذي يأكل من ثمر الجنة، وبحواء التي قدمت له هذه الفاكهة. وحواء التوراتية يفيد اسمها معنى الحياة، كما أنها خلقت من ضلع آدم، والضلع في اللغة السومرية يقال له TI والسيدة يقال لها NIN. ومن ثم فإن NIN _ TI تعني «سيدة الضلع»، أو السيدة التي تحيا. وهذه السيدة ننتي هي التي أوجدتها نخرسك لكي تشفي الإله أنكي.

ومن جهة أخرى يقرن بعض المؤرخين حواء بالإلهة هيبا Heba، أو هيبات، أو خيبات، أو خيبا، زوجة إله العاصفة عند الحثيين، التي كانت تمتطي، عارية، ظهر أسد، وتظهر بهيئة عشتار في النقوش الحورية (نسبة الى الحوريين). وهي هنا تقابل الإلهة الكنعانية عناة، وكانت خيبا هذه تعبد في أورشليم (= القدس) أيضاً. ويطلق عليها عند اليونانيين القدماء هيبه Hebe، عروس هرقل. ويرى البروفسور كريتشمر أن Hebe كانت صنواً للإلهة الميتانية Hepe، أو Hepit، أو Hebe. كما كانت Hipta معروفة جيداً في الشرق الأوسط. وتظهر في نقش صخري

في حاتوشاش (عاصمة الحثيين في الأناضول) ممتطية أسداً وهي تحتفل بالزواج المقدس مع إله العاصفة الحثي. وعند الحثيين كانت تدعى Hipa-ta، ويُظن أنها كلمة حورية. ويعتبرها البروفسور هروزني التشيكي الذي فك رموز اللغة الحثية معادلاً لحواء «أم الكائنات» في سفر التكوين. ويتطرق هروزني أيضاً إلى ذكر أمير أورشليم الكنعاني (عبيدي هيبا)؛ ويشير إلى أن آدم الذي تزوج بحواء كان جارس أورشليم، (عن كتاب الأساطير العبرية لروبرت غريفز ورافائيل باتاي).

* * *

ولكل لغة من لغات العالم، تقريباً، نصيب، يتفاوت مقداره، في «معجم» المفردات العالمية المشتركة. فلفظة «الرز» العالمية، على سبيل المثال، أصلها من اللغة التاميلية، وهي إحدى اللغات الدرافيدية في جنوب الهند. ويرى بعضهم أن لفظة «الشلب» العراقية، وتقال للرز أيضاً، وبالأخص غير المهيش، أي قبل أن تفصل عنه قشوره، قد تكون لها صلة بالعلامة السومرية «شي - لي - آ». (بهذه المناسبة، أخبرني الصديق هادي العلوي أن لفظة «التمن» العراقية الدالة على الرز ترجع إلى إحدى اللهجات الصينية). ولفظة «تي» te التي تدل على الشاي صينية الأصل. وكلمة taboo «تابو» التي تعني «محظور محرم، معزول، أو مفرد بوصفه مقدساً أو نجساً أو معلوناً - قاموس المورد» أصلها بولينيزي من جزيرة «تونغا» Tonga في المحيط الهادىء. ومنها جاءت لفظة «طابو» المعربة التي انتقلت إلينا عن طريق التركية، على مانرجح، وهي الضريبة على العقار. ومنذ أيام السومريين انتقلت لفظة

«الإوزة» الى معظم لغات العالم. ومثلها لفظة gu، أي البقرة بالسومرية، انتقلت الى العديد من لغات العالم: بالانكليزية: cow، وبالسنسكريتية: gauh، وبالصينية: ngo، وكذلك ngu (ثور). وتجدر الإشارة الى أن هذه جميعاً من ألفاظ المحاكاة (أي محاكاة صوت الحيوان، هنا)، ونحن نميل الى الاعتقاد بأن اللفظة العربية المقابلة لها هي «الجؤار»، وكذلك «الخوار»: صوت الثور، وما اشتد من صوت البقرة والعجل. وفي القرآن «فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار». ويؤكد البعض أن الخوار في الأصل صياح البقر فقط، ثم توسعوا فيه فأطلقوه على جميع البهائم. والخوار بالعبرية: جعه (تلفظ الجيم على الطريقة المصرية).

وقد عالج عدد من المتهمين، عندنا، موضوع الألفاظ المتشابهة، والمستعارة من وإلى العربية، قديماً وحديثاً. من بين هؤلاء من المعاصرين، الأب أنستاس ماري الكرملّي (من العراق). جاء في كتابه (نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاؤها): «كل لفظة يونانية أو لاتينية ذات هجاء واحد أو هجاءين، فلا بد من أن يكون لها مقابل في المضربة [العربية]. وقد تتفق معاني الكلمتين كل الاتفاق، وقد تبتعد قليلاً، وهذا لا بد منه، بعد نزوح الدار، واختلاف العادات والأخلاق، وتغير الأهواء والأهوية والمياه»^(١). ويذكر عدداً من المفردات التي تشترك في العربية والهندية - الأوروبية (وبخاصة اليونانية واللاتينية) في المبنى والمعنى، مثل كلمة «الجنس»، ويقابلها genos باليونانية، و genus باللاتينية. وكلمة «نعم»، وهي باليونانية nai. و «ثُمَّ» التي تقابلها عند الرومان كلمة tum. و «الترعة»، وهي «الباب» كما جاء في القواميس، وبالآرامية،

وهي سامية، ترعا، وبالفارسية «در»، وبالانكليزية door، وبالجرمانية القديمة turi، و tor وتعني بوابة. ومثل «زرع»، وباللاتينية serere، فبعد أن نحذف من آخر الكلمة علامة الفعل عندهم تبقى sere التي تماثل «زرع» لفظاً ومعنى، ومثل «نضى» الثوب، أي جردة، فهو نضي أو نضو. وباللاتينية يقال nudus، والمؤنث nuda. ومثل كلمة «الملح» بمعنى اللبن، مستنداً بذلك الى ابن الاعرابي: «الملح بالكسر: اللبن»، وابن سيده، ملح: رضع. و«الملح»، بمعنى اللبن، تقابله بالانكليزية لفظة milk. ومثل «بَيْد»: طعام بيد، أي رديء، وهو بالانكليزية bad، وقد قال ويبستر شاكاً في هذا الأصل: لعلها من الإنكليزية السكسونية bae-del، أي الخنثى .. وأما في لغتنا فكأنما الرديء سمي به لأنه أهل لأن يبيد أي يهلك، ثم لاحظ كيف أن الانكليز لم يهتدوا الى معرفة أصل كلمتهم معرفة تامة^(٢).

ويذكر الكرمللي أيضاً كلمة deus اللاتينية التي تعني «الله»، وكيف أنها توافقت كلمة «ضوء» العربية بعد حذف حرف الـ (S) من آخر الكلمة اللاتينية لأنه من ملحقات الإعراب عندهم. ويعلل ذلك بقوله «ونحن نعلم من التاريخ، أن أمماً شتى عبدت، أو مازالت تعبد الى اليوم «الشمس» أو «الضوء الأعظم» وتسجد له ...».

والحق أن الشبه بين لفظتي «الضوء» و deus قد لا يبدو عارضاً. فالكلمة اللاتينية ترجع الى أصل هندي أوروبي يفيد معنى الضوء، كنظيرتها العربية التي تذكرنا أيضاً بلفظة أكديّة من أصل سومري تفيد المعنى إياه، هي uddat «ضوء»، أو udda، وترجع الى الجذر - السومري u أو ud. أما اللفظة اللاتينية فيقابلها بالسنسكريتية - وهي لغة

هندية أوروبية - devah «إله»، وبالإيرانية القديمة daeva (الروح الحارسة)، وبالإيرلندية القديمة dia، وبالانكليزية القديمة tiw (وهو اسم إله الحرب التيوتوني)، ومن هذه المادة جاءت كلمة tuesday (يوم الثلاثاء) الانكليزية. واليونانية dios (مقدس)، ويمكن ذكر اسم الإله Zeus (زوس). ومن ثم فالكلمة أصيلة في اللغات الهندية - الأوروبية. فهل نعوّدها مشتركة بين المجموعتين اللغويتين، السامية - الحامية والهندية - الأوروبية؟.

أما «زرع» فمشتركة في اللغات السامية. ففي اليمنية القديمة والسرانية ترد كالعربية «زرع»، وتفيد معنى الزرع. و «زرع» العبرية: «بذر». و «درع» الأوغاريتية: زرع، بذر. و «زبرو» بالأكدية القديمة: بذرة أو نواة؛ مادة المنى الذكرية، الخلف من الذكور. وتعني كلمة sero اللاتينية «بذر، زرع»، وهي من صيغة الفعل serere. كما يمكن ذكر كلمة Ceres إلهة الزراعة عند الأقوام الإيطالية القديمة، وتقابلها «ديميتر» في الميثولوجيا اليونانية. ومن مادة ceres تحدرت كلمة cereal الانكليزية، وتعني: «حبوب، مزروعات تنتج حبواً». ومن المادة نفسها جاءت لفظة creare اللاتينية وتعني «يخلق»، والكلمة الأوسكانية القديمة caria (خبز). وترجع هذه المادة الى الجذر الهندي الأوروبي ker أو kere (ينبت، ينمو). ومن هذا الجذر تحدرت الكلمة الارمنية serm (بذرة، شطأ، برعم)، والكلمة الألبانية thjer (بلوطة)، و thjre (عدس)، وهي بالحرف الواحد «طعام»، والكلمة الألمانية القديمة hirsi «دُخْن». فهل المادتان السامية والهندية - الأوروبية ترجعان الى أصل مشترك؟. ولا نحسب أن لفظتي genos اليونانية، و genus اللاتينية مأخوذتان

من «الجنس» العربية، بل ربما كان العكس صحيحاً، كما يرى البعض. فإذا رجعنا الى القواميس وجدنا اللفظة متحدرّة من الجذر الهندي - الأوروبي gen، أو gene، أو geno، أو gn، ويعني: (ينجب ولدًا، تحمل، تنتج، يولد)، ومنه جاءت كلمة gens اللاتينية (جنس، قبيلة، أمة، قوم)، والكلمة اليونانية genos (جنس «بمعنى صنف»، ذرية، جنس «من حيث الذكورة والأنوثة»، نوع)، و geneus (أب، سلف)، و goni (المولود، خلف، الذي ينجب، بذرة، مني؛ أعضاء تناسلية، عملية إنجاب؛ جنس «بمعنى صنف»، عائلة)، والكلمة الهندية القديمة janati (ينجب ولدًا، تحمل) وبلغا الأفيستا [كتاب الزرادشتيين المقدس] ziza-nenti (يحملن)، وبالأرمنية cnaanim (احمل، اولد)، وبالإيرلندية القديمة gein (الولادة). ويمكن ذكر الكلمة اليونانية gignomai (يصير).

ولقد أشار فردريك أنجلز الى أن كلمة gens التي استعملها العالم الأميركي مورغان في كتابه «المجتمع القديم» ليقصد بها الجماعة من الأقرباء بالدم، مشتقة من الجذر الهندي الأوروبي gan (وفي الألمانية kan) الذي يعني «نسل، أنجب»، كما أن الكلمات gens، و genos، و kan djanas السنسكريتية، و kuni القوطية، و kyn النوردية القديمة والانكلوسكسونية، و kin الانكليزية، تعني، على السواء: القرابة والنسب. لكن gens في اللاتينية، و genos في اليونانية تستعملان للدلالة على الأقرباء بالدم، الذين يمتّون الى سلف - ذكر - واحد^(٢).

ويشير أنجلز أيضاً الى أن أصل كلمة المرأة باليونانية gyne، وبالسلافية zena، وبالقوطية qvino وبالنوردية kuna، kona، يرجع الى كلمة genos أي الجنس^(٣). كما أن الزوجة بالهندية القديمة يقال لها

janih، وبلغت الأفيستا jainish، وبالأرمنية kin، وبالأنكليزية القديمة cwen (زوجة، امرأة، ملكة)، ومنها جاءت كلمة quean (امرأة رخيصة)، وكلمة queen (ملكة)، ولاندرى إن كانت لكلمة «هَن» العربية، وهو عضو المرأة، صلة بهذه المادة.

كما لاحظنا أن الفتاة يقال لها بالسنسكريتية kanya، والمرأة بالفارسية zan، وكذلك بالسنسكريتية. ومن هذه الكلمة الأخيرة جاءت كلمة zanana وتعني الحريم في البيت الهندي. وفي العراقية الدارجة تقال للرجل الذي يكثر من مخالطة النساء ويتطبع بطباعهن.

ويذكر أنجلس أيضاً أن كلمة king (ملك) المشتركة في اللغات الجرمانية مشتقة من مادة kuni و kenne، وتعني رئيس عشيرة^(٥).

وفي اللغات السامية هناك مادة «قان»، أو «ق ي ن» التي تذكرنا بالجذر الهندي الأوروبي gen أو gan، وتعني: «سوى، صنع، خلق»، مقابل معنى «نسل، أنجب»، الهندي الأوروبي. وفي العربية، قان: سوى، خلق. وقان الله فلاناً على كذا: خلقه، وقان الشيء: لمه. وقان الإناء: أصلحه. قال الشاعر:

ولي كبد مجروحة قد بدت بها

صدوع الهوى لو أن قيناً يقينها

والقين: العبد؛ والحداد (يذهب به الى معنى العبد، لأن الصانع كانوا من فئة العبيد). ومن هنا جاء الفعل «قنى»، و «اقتنى» بمعنى: امتلك. والقينة: الأمة (بتخفيف الميم، أي العبدة) المغنية، أو الأمة مطلقاً، قال زهير ابن أبي سلمى:

رد القيان جمال الحي فاحتملوا

الى الظهيرة أمر بينهم لبك
يقصد الإمام.

و «ق ن ي ت» الأوغاريتية: صناعة الله، خلق. و «قانا» العبرية: خلق، صنع، سوى، بهذا المعنى يرد استعمالها في سفر التكوين ١٩: ١٤ و ٢٢، الخ. ومن هذه المادة جاء اسم «قايين» أكبر أبناء آدم وحواء، ويعني بالحرف الواحد «مخلوق». كما أن هذه الكلمة، أي قايين، تعني «سلاح»، وبالحرف الواحد «ذلك الشيء الذي تم صنعه بواسطة الصانع». وبالأرامية، قيناء، وبالسريانية قينايا (حداد). وبالأكدية قينايا: (حداد) أيضاً. و «قينه» السريانية هي الأمة أو العبد المغمية. و «قينتا»: مراثاة. كما أن «قينا» العبرية: مراثاة، ترنيمة جنازية. و «قينه» الحبشية: أغنية. وبالجعزية «قني»: يخلق؛ يقتني. وبلغه الطوارق البربرية «ايقنو»: يبدأ ب. وبالصومالية «قان»: مهر، عجل، وبلغه قبائل الجانجيريو «قون»: ينسل، ينجب.

من هنا يمكن القول أن المادتين الهندية - الأوروبية والسامية - الحامية تمان الى أصل مشترك. وبهذا الصدد يمكن ذكر كلمة «كان» العربية بمعنى «صار، وجد»؛ ومنها الكينونة، والكيان، والكائن، والكون، والتكوين، وكن فيكون. وهي من المادة نفسها، كما نحسب، أي مادة «قان».

ومن الكلمات الأكديّة التي نظن أن لها صلة بهذه المادة، «كيمو» و «كيمتو» وتعنيان «عائلة، قرابة، نسب». كما أن «كنو» السريانية تعني «الجنس بمعنى النوع».

وفي وسعنا الإشارة الى «الكنية» العربية، وهي لقب الشخص بأبي

فلان، أو ابن أم فلان، الخ. و «كنى» و «كنية» السريانيستان
تعنيان: الكنية بمعناها العربي. كما أن «كنه» العبرية تعني: سَمَى،
لقب، دعا، و «كنوي»: لقب، اسم، كنية. و «ك ن ي» الأوغاريتية
تعني: معروف، مشهور؛ وتفيد معنى الكنية أيضاً.

ويحضر في الذهن الفعل العربي «زنى»، ومنه الزنى، أي المجامعة
الحرام. والزنى بالعبرية: زنوت، وزنونيم. أما الفعل العبري من هذه المادة
فهو «زنه»، وهناك الزينة العربية. فهل تذكرنا هذه الألفاظ بمادة zan
(المرأة) في الآريات؟

ثم هناك «الجنين» بالعربية، وهو: الولد مادام في بطن أمه.
وفي القرآن: «أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم». ولكن الطفل بالسومرية
يقال له: جينُو ginu. فهل لجميع هذه الألفاظ السامية - الحامية،
والهندية - الأوروبية صلة بهذه الكلمة؟

والزواج باليونانية gamos. والحب بالسنسكريتية kam، وإله الحب
kamah. و «الكوم» في العربية المماتة: النكاح، عضو المرأة. فهل ترجع
هذه اللفظة العربية القديمة الى أصل سنسكريتي؟

وأما الشبه بين لفظتي «نعم» العربية، و nai اليونانية، فيبدو
قريباً. هذا مع العلم أن اللفظة التي تفيد المعنى نفسه بالأكدية هي
anna، وبالعبرية «هن». وتذكرنا الكلمتان الأكدية والعبرية بحرف
الجواب العربي «إن» الذي يفيد معنى «نعم»، كقول القائل: «لعن الله
ناقة حملتني إليك، فأجيب إن وراكبها» أي نعم ولعن راكبها.

وللقطع في وجود أم عدم وجود صلة بين الكلمة اليونانية ومثيلاتها
السامية، ينبغي الرجوع الى اللفظة اليونانية، وهل لها قرائن في

الهنديات الأوروبية. وتخذلنا مصادرنا اللغوية - المحدودة - المتوفرة لدينا، الآن، فلا يسعنا البت في الأمر، سوى أننا نملك أن نزعّم أن اللفظة التي تدل على المعنى المضاد لنعم، أي (لا)، وبالانكليزية no، مشتركة في اللغات الهندية الأوروبية. ومن هنا يجوز أن يكون أصل اللفظة اليونانية nai منحدرًا من الجذر الهندي الأوروبي الذي يفيد معنى «السلب» أو «الإيجاب». ومن ثم، فمن حقنا أن نتساءل، بعد هذا، إن كانت الألفاظ السامية المشار إليها أعلاه، والألفاظ الهندية الأوروبية التي تفيد المعنى نفسه أو عكسه، من أصل مشترك.

ولم نجد في اللغات السامية الأخرى، غير العربية، في حدود إطلاعنا، كلمات من مادة «نضى» تفيد معنى العري، بل وجدنا أن مادة «عار» هي المشتركة بين هذه اللغات. فهي بالأكدية eru، وبالعبرية «عرم».

والظاهر أن مادة nudus اللاتينية، التي يرى الأب انستاس ماري الكرملي أنها مستعارة من العربية، أصيلة في اللغات الهندية - الأوروبية، فالعاري بالأيرلندية القديمة يقال له nocht، وبلغه ويلز noeth وبالاस्कندنافية القديمة nakinn، وبالألمانية القديمة nackot، ومنها جاءت كلمة naked الانكليزية. والجذر الهندي الأوروبي المفترض لهذه المادة هو nogwodho كما جاء في قاموس الدكتور أرنست كلاين. والعاري بالسنسكريتية يقال له nagnah، وبالسلافية القديمة nagu، وباليونانية gumnos، وبلغه الأفيسا (كتاب الزرادشتيين المقدس) magna. وهذه اللفظة الأخيرة تذكرنا بكلمة «مجن» ومنها «المجون» العربية، وتعني، كما يقول القاموس: غلظ، صلب، مزج، قل حياء. فهل اللفظة العربية

مأخوذة من الفارسية؟ وهل لفظة «نضى» مأخوذة من اللاتينية؟

أما كلمة «الملح» بمعنى الحليب فهي قريبة حقاً من لفظة milk الانكليزية ومثيلاتها في عدد من اللغات الهندية - الأوروبية، لكننا لم نعثر في بقية اللغات السامية على كلمة بهذا المعنى والمبنى، أو قريبة منها. والكلمة المشتركة بين اللغات السامية هي مادة «حلب». وهناك كلمة «شزبو» الأكديّة، وتعني الحليب أيضاً، وتقابلها «الشخب» العربية، كما نحسب. والشخب: كل ماخرج من الضرع من اللبن. و«شخب» أو «شخاف» بالحميرية: حليب. أما كلمة «اللبن» بمعنى الحليب فتد في العربية والأرامية فقط، على أنها مشتركة - لفظاً - بين جمع اللغات السامية، ولكن بمعانٍ مختلفة.

ومن هنا، فنحن لا نميل الى الاعتقاد بأن كلمة milk الانكليزية مأخوذة من لفظة «الملح» العربية. لكن آثار انتباهنا احتمال وجود صلة بين لفظة «حلب» السامية، ولفظة يونانية مستعارة من اللاتينية تفيد المعنى نفسه، ونعني بها كلمة galact، التي منها جاءت الصيغتان gala، و galakhtos (حليب). والحليب باللاتينية lact. ومنها استعيرت الكلمة الإيرلندية الوسيطة lacht، وكلمة llaith بلغة ويلز، كما جاء في قاموس الدكتور كلاين. ومادة «حلب» العربية يقابلها بالسريانية «حلبو»، والعبرية «حلب»، وبالأوغاريتية «ح ل ب»، وبالأكدية «خلبو».

على أن الكلمة اليونانية galact أو glact تذكرنا بكلمة «جلط» العربية. فالجلطة هي الجزعة الخائرة من الرائب، كما جاء في القواميس. و«اجتلط» ما في الإناء: شربه أجمع. و«الجلعطيط» - وقارن galach- tos اليونانية - اللبن الرائب الثخين.

والغَيْلُ في العربية - القديمة - هو اللبن يرضعه الرضيع عندما تكون الأم حاملاً؛ وهو مفسدة له. وجاء في المثل: «أم سقتك الغيل من غير حَبَل»: يُضرب لمن يدنيك ثم يجفيك ويقصيك من غير ذنب. وقد تحرينا مادة «الترعة» التي تفيد معنى «الباب» بالعربية، ويقابلها «ترعا» بالآرامية، و «در» بالفارسية، وبالإنكليزية door، على نحو ما أفاد به الكرمللي، فأسعفتنا القواميس بما يأتي: الباب بالسنسكريتية door، وبال يونانية والألبانية dere (باب، بيت)، وبالأيرلندية القديمة dorus ... الخ.

ثم أن دالتو doltu الأكديّة: تعني: باب؛ ترعة: بوابة لتدفق مياه قناة. وهي نفس كلمة الدلتا. والباب بالعبرية: دَلت. والكلمة تقال لمصراع الباب أيضاً. ومن هذه المادة جاء لفظ حرف الدال، وبالعبرية دالت dalet ويعني باب. ثم أن دارو الأكديّة تعني - فيما تعني - دار، بمعنى منزل، مثل الكلمة العربية. والظاهر أن حرف «دلتا» اليوناني مستعار من الفينيقية ويعني: باب، ويرسم باليونانية على شكل مثلث. ومن بين الكلمات التي ناقش أصلها الأستاذ عبد الحق فاضل في كتابه «مغامرات لغوية» مادة «فينيقيا». بعد جولة استطرادية ممتعة يخلص الكاتب الى أن أصل الكلمة «بنو كنعان». وقرأت للعقاد كلاماً على «فينيقية»، هذا نصه:

«وهم [الإغريق] يطلقون اسم فينيقية على شاطئ فلسطين الى الشمال والجنوب من مدينة صور التي اشتهر أبناؤها الملاحون عندهم باسم الفينيقيين، ولكن فينيقية كما يدل عليها اسمها كانت اسماً لبلاد النخل في الإقليم كله، من كلمة فينيقس عندهم بمعنى النخلة [...]»

وتقابلها عند الرومان كلمة palmera التي أطلقت على مدينة «تمر» أو «تدمر» في شرق البقاع^(٦).

فمن منهما على صواب؟

نحن لاندري كيف سمي الإغريق النخل «فينقس»؛ فلا تمت هذه اللفظة الأخيرة الى كلمة سامية تدل على النخل أو التمر، فهل سمي التمر - عند الإغريق - باسم البلد الذي يصدره، ونعني به فينيقيا، على غرار «البرتقال» الذي سمي باسم البلد الذي نقله من جنوب آسيا الى العالم، ونعني به البرتغال، هذا محتمل، والتالي، فإنه سيتركنا في حلقة مفرغة: التمر في بلد فينيقيا، وفينيقيا مم؟

أما حجة الأستاذ عبد الحق فاضل فتجد لها سنداً في أن القرطاجيين - وهم من الفينيقيين - كانوا يسمون أنفسهم بني كنعان، وذلك بالركون الى وثيقة تاريخية (؟) «وهي نقش على رخامة وجدت في البرازيل، مكتوبة باللغة القرطاجية - عام ١٢٥ ق. م - يصف أصحابها محنة وقعوا فيها من أسر ومرض وهلاك. وتتألف الأكتوبة من ثمانية أسطر، هذا نص السطر الأول منها:

«هنا احنا بني كنعان م فريم حقره حصل، أوش حرم حصل هك»
وترجمته بعريتنا وكتابتنا:

«هنا نحن بني كنعان من فرايم حملنا الحقارة. أليس حراماً أن نحصل هكذا»^(٧).

وقد نقل هذا النص عن مجلة «اللسان العربي» التي يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط، التابع لجامعة الدول العربية، العدد الثاني: يناير (كانون الثاني) ١٩٦٥، ص ٣٥.

وإننا لنود أن يكون هذا الخبر صحيحاً، لما يحمله من أبعاد تاريخية وحضارية مهمة. لكن من قال أن هذه الوثيقة موثوقة موثقة؟ ثم إننا نجد في الموسوعة البريطانية تحت مادة «فينيقيا» كلاماً هذه ترجمته:

«كانوا يسمون أنفسهم كنعانيين، وبلادهم: أرض كنعان. كما ورد اسمهم في الواح تل العمارنة بهذه الصيغة «كناخي» و «كناخي»؛ وتتفق مع هذا العبارة التي تنسب الى هيكتايوس ومفادها أن فينيقيا كانت تسمى سابقاً «خنا»، وهو اسم استعمله فيلو من أهالي جبيل في أساطيره، إذ اعتبر «خنا الذي سمي فيما بعد فينقس» جد الفينيقيين. وفي عهد أنطوخيوس الرابع وسلالته يرد في نقود (Loadica of Liba nus) نقش «لوديقا من أعمال كنعان» (كوك: نقوش الساميين الشماليين)، كما يطلق كتاب العهد القديم أحياناً على فينيقيا والفينيقيين اسم «كنعان» و «الكنعانيين» (أشعيا. الإصحاح الثالث عشر، ١١؛ عويديا ٢٠؛ زفارنيا. الإصحاح الأول، ١١) [...] بيد أن «الصيدانيين» هو الاسم الأعم الذي يرد في كتاب العهد القديم؛ وفي الكتابات الآشورية كذلك (Sidunnu)؛ وحتى في أيام حكومة صور الشهيرة نجد اسم «الصيدانيين» وليس «أهالي صور» في العهد القديم وعند هوميروس؛ وأن «ايشبعل» ملك صور [...] يسمى ملك الصيدانيين في فصل «الملوك الأول» الأصحاح السادس والعشرين، ١٣. ونجد في الأشعار الهوميرية اسم الصيدانيين Sidonoi، و Sidonie (الأوديسة، القسم الرابع ٦١٨؛ الإلياذة، السادس، ٢٩٠؛ الأوديسة، الثالث عشر، ٢٨٥؛ الإلياذة، السادس، ٢١٩) و Phoinikes و Phoi-

nike (الأوديسة، الثالث عشر، ٢٧٢، الرابع عشر ٢٨٨، الخ) والمصطلحين سوياً في «الأوديسة الرابع ٨٣؛ الإلياذة الثالث والعشرين ٧٤٣». وقد استعمل الفينيقيون أنفسهم لقب الصيدانين كاسم عام، ففي واحد من أقدم النقوش الفينيقية [...] لقب حيرام الثاني ملك صور في القرن الثامن «ملك الصيدانين». غير أن اليونانيين كانوا يطلقون اسم الفينيقيين بصورة عامة، أي Phoinikes، «وهي صيغة الجمع لـ Phoinix على الأهالي، و Phoinike على البلاد. وربما كانت التسمية الأولى أقدم عهداً، ولعلها ترجع الى كلمة Phoinos (أحمر بلون الدم)؛ وذلك أن التجار الكنعانيين كانوا يسمّون «الحمر» بسبب لون بشرتهم التي لفحتها الشمس»^(٨).

وقرأت للعقاد أيضاً في كتيبه «الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين» كلاماً جاء فيه أن كلمة «البرج» أخذها منا اليونانيون، ولفظوها برجوس. ويعلل ذلك بقوله «فالبرج في اليونانية برجوس purgos^(٩). ومادة الباء والراء ومثيلتها أصيلة في الدلالة على الظهور والعلو: كبرز وبرض وبرع وبرق. ومعنى البروج والتبرج والإبراج شائع في المادة العربية»^(١٠).

لكن الدكتور إبراهيم أنيس يشير الى كتابه «في اللهجات العربية» الى أن كلمة «البرج» بمعنى «الحصن» قد استعارته العربية من اليونانية، لأن بلاد العرب ليست بيئة للحصون والأبراج. ولئن اشتملت اللغة العربية على مادة «برج» بمعنى آخر، كمعنى الجمال والتزيين، فلا ينبغي أن يحملنا هذا على الاعتقاد بأن المعنى الأول (الحصن) أصيل، بل الأولى بنا أن نعدّ هذه الكلمة من صنف المشترك اللفظي^(١١).

ويذهب كثيرون، كالدكتور أنيس، الى أن «البرج» يونانية، ومنهم الدكتور حسن ظاظا، والأب روفائيل نخلة، والمستشرق الإيطالي موسكاتي المتخصص باللغات السامية، حيث يقول أن كلمة purgesa، أي البرج بالسريانية، مأخوذة من الكلمة اليونانية purgos. ونحن نرى أن حجة الدكتور إبراهيم أنيس من أن بلاد العرب ليست بيئة للحصون والأبراج، ليست قاطعة. فليست بلاد العرب صغيرة وذات طبيعة واحدة. وإذا كانت جزيرة العرب موطن العرب واللغة العربية، فهي مهد جميع الأقوام والحضارات السامية أيضاً. ومن بين هذه الحضارات السامية، حضارة «أكّد» العريقة التي أعلنت عن وجودها في العراق منذ سنة ٢٣٣٤ ق. م. وقد امتد سلطان الإمبراطورية الأكديّة الى الدول المجاورة، الأمر الذي اقتضى تطوير أساليب الحرب، والدفاع، وإقامة الحاميات، والحصون العسكرية في النقاط الاستراتيجية المهمة، منها الحصن الذي شيده الفاتح الأكدي الشهير نرام - سين (٢٢٥٤ - ٢٢١٨ ق. م.) في الموضع المسمى تل براك، في منطقة الخابور في سورية^(١٢).

ومما له أهمية بهذا الصدد أن هناك أكثر من كلمة عند الأكديين تدل على معنى الحصن، أو القلعة، أو المعقل، منها «الزقورة» المعروفة، وكلمة «ديتو»، وكلمة «إيشتو»، وكلمة «بيرتو» birtu. وهذه الأخيرة هي قرينة «البرج» العربية، كما نرجح.

على أننا عثرنا على رأي آخر حول أصل الكلمة اليونانية. جاء في كتاب لوكوود «نظرة عامة في اللغات الهندية الأوروبية» ما ترجمته: «هناك حالات تبدو فيها بعض المفردات اليونانية ليست اغريقية في

أصولها، لكنها تعطي انطباعاً هندياً أوروبياً، فعلى سبيل المثال يبدو أن كلمة purgos (قلعة، حصن) تعود هي والكلمة الانكليزية القديمة والألمانية القديمة burg الى أصل واحد، بيد أن صيغة الكلمة اليونانية غير مألوفة. ولهذا اعتبرت الكلمة اليونانية purgos مستعارة من لغة هندية أوروبية مفقودة لكنها ظهرت في اليونانية. ولاشك أن لغة كهذه لها قوانينها الخاصة، وكلمة purgos مثال على ذلك. وهذه اللغة الهندية الأوروبية المنقرضة تذكرنا باللغة البيلاسية Pelasgian^(١٣).

وفي قاموس الدكتور أرنست كلاين عن أصل الكلمات الإنكليزية نجد أن كلمتي burg، و burch الإنكليزيتين القديمتين ترجعان الى الكلمة الفريزية القديمة burg (قلعة)، وهناك كلمة beorg الإنكليزية القديمة وتعني «جبل». ويرجح الدكتور كلاين أن هذه الكلمات مشتقة من الجذر الهندي الأوروبي المفترض bhergh (مرتفع)، ومن ثم يمكن ذكر الكلمة الأرمنية berj (مكان مرتفع)، والكلمة السلافية القديمة bregu (ضفة نهر)، وبالأيرلندية الوسطى brig (تل)، وباللغة الحثية - وهي لغة هندية أوروبية منقرضة - parkush (مرتفع)، وبالهندية القديمة brhant، الخ. فمادة bhergh تفيد معنى الارتفاع والبروز في اللغات الهندية الأوروبية، كمادة «برز» العربية، و «بيرتو» الأكدية. فهل تمت جميعها الى أصل مشترك؟.

ويقر العقاد بسبق العرب في كلمات آخر، ولكن دون أن يقدم أدلة قط، أو أدلة كافية. فهو يقول في موضع آخر من كتبه المذكور: «ولاشك في سبق العرب الى الفرس والسيف والقناة. والفرس باليونانية phorada، والسيف xifos.

»والقناة أخذوها وأخذوا منها القانون بمعنى المقياس، ولا تخفى علاقة

القناة والقصة بالمقاييس في كل لغة [...] ومن الكلمات التي تلحق بالمقاييس كلمة القسطاس dikastis ، وكلمة القالب khalopos .

«وتلحق بكلمات الكتابة الخارطة والخرطة، والأولى عربية من خارطة السائل الذي يؤخذ من أصل ورق البردي، ومن الخرط وهو قطع الجلد، أو الصحف التي يكتب عليها ... وتسمى الخارطة والخرطة في اليونانية khartis ومنها الكرتيس أو القرطاس».

والحق أن «القناة»، وهي القصبة أو العصا أو الرمح، سامية الأصل. ففي الأكديّة يقال لها «قانو»، وتعني: القصبة، الرمح؛ وفي الأوغاريتية «ق ن»، وتعني: قصبة أو قناة؛ وفي العبرية «قانيه»؛ وفي السريانية «قنيا»؛ وبالعربية الجنوبية (اليمنية القديمة) تلفظ «قنوت». ومن هذه المادة السامية جاءت كلمة cane الانكليزية والفرنسية وتعني «العصا».

أما القسطاس فيؤكد معظم اللغويين الذين بحثوا في الكلمات الدخيلة على أنها يونانية وليست عربية كما يرى العقاد (دون أن يقدم لنا دليلاً على ذلك).

ومثل هذا يقال في «القالب»، فهي الأخرى ترجع الى أصل يوناني على ما يبدو. فقد جاء في قاموس الدكتور كلاين تحت مادة caliber أو calibre الإنكليزية، وتعني: قطر فوهة البندقية، أن هذه الكلمة الأخيرة مستعارة من calibro الإيطالية، وهذه مأخوذة من كلمة «قالب» العربية، وأن الكلمة العربية ترجع الى كلمة khalopodion اليونانية، وتعني «قالب الأحذية» وهي من khalopodos وتعني «حذاء خشبي»، وهي مؤلفة من المقطعين khalon (خشب)، وبخاصة ما يحرق، أي «الحطب»،

و pous وهي صيغة الإضافة لكلمة podos (قدم) باليونانية، وقد انتقلت هذه الكلمة الى العربية عن طريق الآرامية، كما جاء في القاموس المذكور.

أما كلمة «خارتيس» اليونانية الدالة على «الخارطة» فهي غريبة عن اليونانية، كما جاء في قاموس الدكتور كلاين. ويرجح أنها تعود الى أصل مصري (قديم).

ويذكرنا حديث الخارطة بالبردي. والبردي يقال له بالإنكليزية papy-rus. ومن هذه الكلمة اشتقت كلمة paper (ورق). ويرى الأب أنستاس ماري الكرمللي أن أصل كلمة papyrus الإباءة، وهي الأجمة من القصب، والبردية. وفي الآرامية: «أبوتا» وتعني الأنبوب؛ وكذلك «أبوتا» أي الأنبوية والقصبية^(١٤). ومن هذا الأصل السامي جاءت كلمة papyrus، كما يقول الكرمللي. غير أن جورج سارتون يرى أن كلمتي paper، و pa-pyrus لا ترجعان الى البردي، بل الى byblos التي تقابل عند الإغريق كلمة البردي، والقطعة منه تقابل bublion أو biblion، ثم أطلقت الكلمة على الكتاب؛ ومن هنا جاءت كلمة Bible التي تعني الكتاب المقدس. ويشير سارتون أيضاً الى أن الكلمة اللاتينية liber منحوتة منها. «ومن المحتمل غير المؤكد أن كلمة بيبيلوس نفسها مشتقة من اسم ميناء بيبيلوس (جبيل)، الواقعة شمالي بيروت الحالية، وكانت سوقاً كبيرة يسيطر عليها الفينيقيون للتجارة الدولية في البردي^(١٥). أما «جبيل» فهي «بعلت جبيل» باللغة الفينيقية، أي صاحبة الحدود^(١٦).

ويذكر سارتون في موضع آخر من كتابه «تأريخ العلم» إنه لم تكن في اللغة اليونانية قبل بندار (حوالي ٥٢٢ - ٤٤٢) كلمة تفيد معنى

القراءة. فكان بندار يستعمل كلمة anagnosco أي المعرفة الجيدة، بمعنى القراءة. ثم استعمل هيرودوتس الكلمة السورية [الفينيقية] biblion لتدل على الورق أو الخطاب. ثم استعملها أرسطو في معنى كتاب^(١٧).

وبهذه المناسبة، فإن الكلمة التي تدل على الكتابة باللغة اليونانية هي grapho، وتعني بالانكليزية «يخط، يرسم». إلا أن المعنى القديم لهذه الكلمة هو «الخدش»، وبعد ذلك بزمان طويل جداً أصبحت تعني «الخط» والرسم. وترجع كلمة graphos الى الفعل اليوناني graphein (يخدش، ينقش، يرسم، يصبغ، يكتب، يخط)، ويقابله بالانكليزية القديمة ceorfan (يقطع، ينقش، يمزق)، ومنه جاء الفعل الإنكليزي carve، ويقابله بالسلافية القديمة zrebu وتعني قرعة (وبالأصل: عصا مسننة)، وبالبروسية القديمة girbin وتعني رقم (وبالأصل: ثلم). وترجع هذه الكلمات جميعاً الى الجذر الهندي الأوروبي gerbh (يخدش).

وتذكرنا هذه المادة بكلمة «قرف» العربية التي تعني «قشر». فالقرف: القشر. والقرف من الخبز ما يتقشر منه ويبقى في التنور. والقرف من الأرض ما يقتلع منها، والقرف لحاء الشجر، وواحدته قرفة. و«قلفو» بالأكدية: قشر. و«قرب» السريانية: قرف. و«قرصف» العبرية: كشط، حك، حتّ، نظف (الجلد). وإنّا نرى والحال هذه أن مادة (قرف) مشتركة بين اللغات السامية واللغات الهندية الأوروبية.

وهناك كلمة gramma اليونانية أيضاً، وتعني «حرف»، ومنها اشتقت كلمة grammar (النحو، أو القواعد). وجاء في قاموس ويبستر أن كلمة gramma (حرف) مشتقة من الفعل graphein (يكتب). فهي ترجع، إذن، الى مادة gerbh الهندية الأوروبية التي نحسبها تقابل «قرف» السامية.

وبهذه المناسبة أيضاً، يرى بعض المستشرقين أن أصل كلمة «قرمط» و «القرامطة» هو grammata اليونانية. وهو رأي جاء به فولرز، وشايه فيه آدم متز: «وذلك لأن هذا الافتراض يجد ما يؤيده في لغة المكدين بالعراق في القرن الرابع الهجري. وقد جاءت كلمة قرمط في قصيدة أبي دلف في الكدية (يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٨٣) بمعنى الرجل الذي يكتب التعاويذ بالدقيق والجليل من الخط»^(١٨). وجاء في «أساس البلاغة» للزمحشري: «ونتم كتابه: قرمط خطه».

وماذا عن «الفرس»؟ هل هناك صلة بينها وبين «فورادا» اليونانية التي تعني الفرس أيضاً؟ ولكن هناك لفظة يونانية أخرى تدل على معنى الفرس، وهي أقرب الى لفظتنا العربية، ونعني بها «فورفاس» phorvas. بل هناك لفظة يونانية ثالثة مطابقة تماماً للفظتنا العربية، هي «فوراس» phoras، فما قولنا في هذه جميعاً؟.

لنبدأ بالكلمة التي خصها العقاد بالذكر، وهي «فوراد». إن أقرب لفظة سامية إليها هي كلمة «فَرَد» العبرية التي تعني البغل أو البرذون. وعندنا، في العربية، هذه الكلمة الأخيرة، أي البرذون. والبرذون، كما يفيد قاموس تاج العروس للزبيدي: «دابة خاصة لا تكون إلا من الخيل، والمقصود منها غير العرب». فالبرذون من الخيل مالميس بعراقي، وفي «التوشيح»، البرذون: الجفاة من الخيل. وفي «شرح العراقية» للسخاوي، البرذون: الجافي الخلقة، الجلد على السير في الشعاب، من الخيل غير العرابية. وأكثر ما يجلب من الروم».

فهل نستدل من هذا على أن «البرذون» لفظة تعود الى أصل لاتيني، كما يرى الأب روفائيل نخلة؟ فعنده أن البرذون، وهي الفرس غير الأصيل، مأخوذة من الكلمة اللاتينية burdo (وهذه الكلمة الأخيرة تلفظ في حالة

الجر (burdonis) وتعني: بغل. وبالمناسبة، إن كلمة burdihhin الألمانية، وتعني الفرس، منحدرية أيضاً من burdus اللاتينية. أقول، هل نستدل من هذا على أن (البرذون) مستعارة من اللاتينية؟ ربما، فصيغة الكلمة تشي بأعجميتها. على أننا سنحاول مناقشة الألفاظ الدالة على عناصر هذه الفصيلة الحصانية (الحمار، والحمار الوحشي، والحصان، والبغل)، علّ ذلك يعيننا في القطع بشيء حول الصلة بين مادتي «الفرس» العربية و «فورادا» أو «فورفاس» اليونانية.

الحمار بالإنكليزية ass، وبالإنكليزية القديمة assan، وترجع هذه إلى اللاتينية assinus (حمار؛ أبله، أحمق). والأتان - أي أنثى الحمار - باللاتينية assina. والحمار باليونانية onos (من أصل osnos كما يقول اللغويون)، وبالأرمنية esh. وترجع هذه الكلمات جميعاً إلى لغة من لغات جنوب آسيا الصغرى، كما جاء في قاموس الدكتور أرنتس كلاين. بيد أن هذه الألفاظ تذكرنا بكلمة «أتان» السامية. فهي بالأكدية «أتانو»، وبالعبرية «أتان»، وبالأوغاريتية «أت ن». فهل استعيرت الكلمة من جنوب آسيا الصغرى، أم العكس؟ ثم إننا وجدنا في القواميس العربية كلمة «النوص»، وتقال للحمار الوحشي؛ وما أقربها من كلمة onos اليونانية. والحمار الوحشي باليونانية يقال له ona-gros، وهي كلمة مؤلفة من المقطعين onos (حمار)، و agrios (وحشي). وهذا المقطع الأخير يعني بالأصل «حقل»؛ فالكلمة تعني، في أساسها: الحمار الذي يعيش في الحقل، أو في البر.

وكلمة «حمار» مشتركة في اللغات السامية، ولها صلة بمادة «أحمر» (أخذت هذه التسمية من لونه الضارب إلى الحمرة). وتسمية

بعض الحيوانات بحسب ألوانها واردة. فالدب، في اللغات الجرمانية، يدعى bear، وهي كلمة مشتقة من اللون brown. وهناك مادة «ع ر» السامية أيضاً، وتعني «حمار». ففي الأوغاريتية «ع ر»: حمار؛ وفي العبرية «عير»: حمار صغير، جحش؛ بالعربية، العير: الحمار، الحمار الوحشي.

والحمار الوحشي، كقرينه الحمار، من الحيوانات التي عرفت منذ زمن مبكر في الجزيرة العربية. وقد عثر في العراق على بقايا عربتين، مع حيواناتهما من الحمر الوحشية، في مقبرة يرقى تأريخها الى عصر فجر السلالات الثالث (في حدود ٢٦٠٠، أو ٢٥٥٠ ق. م) (١٩). وللحمار الوحشي في اللغة العربية أكثر من اسم. فإضافة الى هذه التسمية المركبة، يقال له: اليحمور، والعير، والمسحل، والنوص، والعليج، والفرأ (وزن جبل)، وكذلك الفراء (وزن سحاب). وقد تخفف الهمزة، كما ورد في المثل: «كل الصيد في جوف الفراء». ويقال لأنثى الفراء، فُرْيَة. قال الشاعر:

لا أحدُ الأم من حُطية

هجا بنيه وهجا المرية

من لؤمه مات على فُرْيَة.

وفي الأكديّة يقال للحمار الوحشي akkanu (أكان)، و serrimu (سريم)، و «خراد»، وهذه الأخيرة مستعارة من اللغات السامية الغربية على ما يُظن. كما يقال للحمار الوحشي بالأكديّة purimu (فريم). لكن البغل يقال له paru (فار). وهذه تقابل لفظة «الفرا» العربية، كما هو بين.

والحمار الوحشي بالعبرية «فرا»؛ وبالحبشية «زبرا»، ومنها جاءت الكلمة الأوروبية zebra. ولعل هذه الألفاظ تذكرنا بالفعل «فرّ، يفر».

ثم أن لفظة «فرس» ترد في اللغات السامية الجنوبية (العربية، والسبئية، والحبشية). وفي العبرية تلفظ «فرش»، وتعني «فرس، فارس». وفي السريانية «براشا»، وتعني «فارس، خيال، راكب».

أما كلمة «فورفاس» اليونانية، ومثلها «فوراس»، و «فورادا» التي تقال للفرس، فتعود جذورها الى أيام سوفوكليس الذي استعملها في كتاباته بمعنى إطعام الحصان بالعلف، من الفعل phervo. واستعملها يوريبديدس بمعنى مختلف بعض الشيء، وهو حصاد العلف (كالبرسيم ونحوه) وجمعه. واستعملها كزينوفون كاستعمال سوفوكليس لها، وأضاف معنى آخر: «الرسن». كما أن أريستوفانيس استعملها بمعنى عملية إجام الفرس من أجل كبح جماحه؛ وبمعنى آخر: وضع ما يشبه اللجام في فم عازف آلة القرب pipes لضبطها عند النفخ. ثم إن هيرودوتس استعملها بكل معانيها السابقة.

وبعد، إن الصلة اللفظية بين المادتين اليونانية والعربية أو السامية واضحة، فأيهما أقدم؟

نعم، كان الحصان معروفاً عند الأقوام الهندية الأوروبية قبل الساميين، وأن مادة «سيسو» الدالة على اسم الحصان في معظم اللغات السامية تشترك مع الألفاظ الهندية - الأوروبية، كما سنرى بعض قليل. بيد أن هذا لا يعني بالضرورة أن الألفاظ العربية الأخرى الدالة على الحصان مستعارة، هي الأخرى، من اللغات الهندية الأوروبية. فالجواد، كلمة عربية، وكذلك القول في «الحصان»، وفي العديد من

أسمائه الأخرى، التي تندرج في باب الصفات. ولكن ماذا عن لفظة «الفرس»؟ أصبح أن نشك في نسبها العربي لأنها واردة أيضاً في اليونانية التي عرفت الحصان قبل العربية؟.

على أية حال، إن عدم وجود قرائن للألفاظ اليونانية المذكورة أعلاه في اللغات الهندية الأوروبية، إلا في بعضها على نحو مستعار، وكون اللفظة العربية متكررة في معظم اللغات السامية، يشجعنا على الاعتقاد بأن الألفاظ اليونانية ترجع الى أصل سامي.

على أنه ما من حيوان تعددت وتغيرت أسماؤه على مر الأيام، مثل الحصان. ولعل السبب في ذلك يعود، كما يقول جوزيف غندريس، الى وجود خيل مختلفة الأجناس، والى استخدام الحصان لأغراض مختلفة، كالركوب، والجري، والحرب، وفي الحرب، الخ.

ويقال أن موطن الحصان الأصلي أميركا، ثم انتقل منها الى آسيا منذ العصور الحجرية القديمة، عندما كانت أميركا مرتبطة بآسيا من جهة مضيق بيرنج. ثم دُجنت الخيل في مكان ما شرقي بحر قزوين على يد القبائل الهندية الأوروبية. وقد أدخلت الى سوريا في عهد الهكسوس، ومنها انتقلت الى مصر، هي والعربات الحربية التي تجرها الخيول، بدل الحمير، فحدثت الرعب في نفوس المصريين^(٢٠). أما في وادي الرافدين فقد ورد ذكر الخيل منذ عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق . م)، وكانت تسمى باللغة السومرية «أنشوكر» (Anshu - Kur - Ra) أي «حمار الجبل» أو «حمار البلد الأجنبي»، ويرادف ذلك باللغة الأكديّة «سيسو» sisu. كما ذكرت الخيول باسمها الأكدي - سيسو - في رسائل مدينة ماري (في القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق . م).

ويرى بعض المؤرخين أن الكشيين^(٢١) هم الذين أدخلوا استعمال الخيل على نطاق واسع الى بلاد الرافدين^(٢٢).

والكلمة التي تدل على الحصان في اللغات الهندية الأوروبية القديمة مشتركة، ففي السنسكريتية يقال له asvah، وبلغة الافيسا (كتاب الزرادشتين المقدس) aspa، وبالاغريقية القديمة ippos، وكذلك ikkos، وباللاتينية equus، وبالأيرلندية القديمة ech، وباللتوانية القديمة esva، وبالانكليزية القديمة eoh.

ويدعى الحصان بالأوغاريتية «س س و»، وبالأكدية «سيسو» كما مر بنا، وبالسريانية «سوسيا»، وبالعبرية «سوس». ووجدنا في المعاجم العربية تحت مادة «سوس»: السوسة، وهي فرس النعمان بن المنذر. والسَّوَّاس: داء في أعناق الخيل يَبْسُها. وهناك السيساء وهو منتظم فقار الظهر، ومن الفرس حاركه (وهو منبت أدنى العرف الى الظهر)، ومن الحمار ظهره، وهناك: ساس، يسوس الخيل؛ ومن هذا الفعل جاءت كلمة «السياسة».

وقد عثرنا على رأي مثير للاهتمام لجبر ضومط حول أصل الهكسوس، ذي صلة بموضوعنا (نبهنا إليه المرحوم الصديق الدكتور هاشم الطعان)، يقول ضومط:

«الهكسوس على ما أرجح لفظ مركب من هيق وسوس. ومعنى هيق ذكر النعام، ومن الرجال المفرط الطول. جاء في لسان العرب في حديث أحد: اتخذ عبد الله بن أبي في كتيبة كأنه هيق يقدمهم. ومعنى سوس: الخيل. وقد حفظت العبرانية هذا المعنى لهذه اللفظة. وأما العربية فلم يبق فيها إلا الإشارة البعيدة اليه في كلمة «سائس»، فإنه عند

الإطلاق ينصرف الى من يسوس الخيل، فتأمل. وعليه فيجب أن يفهم من التركيب إما ملوك الخيل أو أصحاب نعام الخيل، والأرجح أنهم كانوا فرساناً وأدخلوا الخيول الى وادي النيل»^(٢٣).

من بين هذه الأسماء، المهر، ومؤنثه المهرة، التي تقابلها بالألمانية اللفظة نفسها Mahre، وبالانكليزية mare، وبالسكندنافية القديمة merr، وبالألمانية القديمة meriha، و merha. وترجع هذه الكلمات الى كلمة mar-ka، وهي صيغة سابقة للغات التيوتونية، يقال أنها ترقى الى أصل غاللي Gaulish. فالحصان بالاييرلندية marc، وبلغة ويلز march، وبلغة كورنول margh. ومن هذه المادة تحدثت كلمة marshal (ماريشال) وكانت تعني بالأصل: سائس الخيل.

والمهر بالسريانية يقال له «مُهرًا»؛ والمهرة تدعى: مُهرتا. أما في العبرية فالفعل «مهر» يعني: أسرع. كما تفيد مادة «م ه ر» الأوغاريتية معنى «أسرع» أيضاً. وأما في الأكديّة فإن كلمة muru (مور) تعني: صغير الحيوان، وبخاصة الحمار، أو الثور الوحشي. كما أنها تعني الفلّو، أي صغير الحصان، وكذلك جرو الثعلب (التتفل) أو الدب (الديسم)، أو الذئب (الدغفل)، أو الأسد (الشبل)، ويبدو أن هذه المادة أصيلة في الأكديّة بمعنى الصغر. فالطفل يقال له meru (مير)، والبنّت الصغيرة mertu (ميرت)؛ والجرو يطلق عليه miranu (ميران). وبمثل هذا المعنى أيضاً جاء في شعر عدي بن زيد:

وذي تناوير معمون له صبح

يغزو أوابد قد أفلين أمهارا

ويريد بالأمهار: أولاد الوحش. كما أن كلمة «الماري» العربية تقال

لولد البقرة الأبيض الأملس. والممرية البقر: التي لها ولد ماري، أي
براق. والمارية: البراقة اللون. والمارية: البقرة الوحشية. أنشد أبو زيد
لأبن أحمر :

ماريةً لؤلؤان اللون أوّدها
طلّ وبَسَّ عنها فرقد خصر^(٢٤).

ولا ندري بعد هذا ماهو مقدار الصلة بين المادتين السامية
والأوروبية.

ومن أسماء الحصان بالعربية «الجواد». وبالانكليزية هناك كلمة
jade وتعني - على الضد من مقابلها العربي - فرساً من الصنف
الرديء. وفي قاموس الدكتور أرنست كلاين أن الكلمة الإنكليزية ترجع
الى الاسكندنافية القديمة jalda (مهرة). وبإحدى اللهجات السويدية jal-
da تعني مهرة أيضاً.

وهناك «الفلو» وهو الجحش والمهر فُطما أو بلغا السنة. و«فلا» الصبيّ
والمهر فلوأ وفلاء: عزله عن الرضاع، أو قطمه. قال الأعشى:

ملمع لاعة الفؤاد الى جحش فلاه عنها فبَسَّ الفالي

بمعنى: قطمه، وللفعّل «فلا» أكثر من معنى، ولا يهمنا منها، هنا،
سوى ما ذكرنا.

وفي العبرية يفيد الفعل «فله» معنى الانفصال، والتمييز. كما أن
هذه المادة تفيد بالحشية معنى الانفصال أيضاً. أما في الأكديّة فإن
أقرب لفظة الى مادة «الفلو» هي aplu «أفلو»، وتعني: الوريث، الابن
الأكبر، ابن، البنت الكبرى. ومثل هذه العلاقة بين الوزنين (فلو)
العربية، و«أفلو» الأكديّة موجودة. فهناك كلمة بريّة العربية وتعني

البشرية، وتقابلها بالأكدية abratu (أبراتو)؛ و «صخر» العربية تقابلها «أسخر» الأكدية.

و «الفلو» بالانكليزية foal، وهو الصغير من فصيلة الخيل. وترجع الى السكسونية القديمة، والألمانية القديمة folo. وتقابلها باليونانية polos (فلو)، وبالأرمنية ul (من أصل polon) (جدّي)، وباللبنانية pele (مهرة)، وباللاتينية pullus (حيوان صغير). وترجع هذه الكلمات الى الجذر الهندي الأوروبي المفترض pou، وهذا بدوره يرجع الى الجذر pou أو pu (صغير، قليل، بعض). فهل هناك صلة بين المادتين السامية والهندية الأوروبية؟.

وأما كلمة xiphos (السيف) اليونانية فيبدو أنها غير أصيلة في هذه اللغة، أو بعبارة أخرى، من أصل غير مؤكد، ولعلها مستعارة من الآرامية «سيفا» كما يقول الدكتور أرنست كلاين. وتقابلها بالعبرية «سايف»، وبالعربية «سيف». وترجع هذه الى المصرية القديمة «سيفيت» sefet، وهي كلمة مشتقة من الفعل «سفت» sft (ذبح)، ولم نجد في الأكدية - في حدود اطلاعنا - كلمة قريبة في لفظها من لفظة «السيف» العربية. وكل ما عثرنا عليه هو: aritu بمعنى سكين طويلة أو سيف، و patru بمعنى خنجر أو سيف، ولعلها تذكرنا بكلمة «البتار» العربية؛ و mashlatu، وهي نوع من أنواع السكاكين؛ و quppu وتعني خنجراً أو سكيناً؛ و pashtu، وهي سيف ذو حدين، ولعلها تذكرنا بالبتشاه في العراقية الدارجة.

ويقودنا هذا الى مراجعة بعض الكلمات الدخيلة على العربية، فلعلنا نجد من بينها ما كان أصله عربياً أو سامياً وقد عدّ دخيلاً على

العربية أو السامية، هذا مع العلم أنه لا يحط من قدر لغة أن تستعير مفردات من لغات أخرى، بل أن في ذلك إثراء لها.

من بين الألفاظ التي تعد دخيلة على العربية «الكعك»؛ ذكرها الثعالبي من بين الكلمات الفارسية. وقال شهاب الدين الخفاجي في كتابه «شفاء الغليل فيما في كلام العرب من دخیل»: «كعك: معروف، فارسي معرب، عن الجوهری. ورد في الشعر القديم». في حين وردت هذه الكلمة في نصوص بابلية قديمة ومتوسطة بهذه الصورة «كعاتو»، وتعني «حبوب، طعام من حبوب». كما ورد بالصور الآتية أيضاً: كيجاتو، وغاجاتو، وقاجاتو.

و «الكتان» أيضاً؛ ذكره شهاب الخفاجي: «وقيل هو معرب». بيد أن الأب مرمرجي الدومنيكي أشار إلى أن الكلمة مشتركة في اللغات السامية. فهي بالأكدية «كيتو» و «كيتينو»؛ وبالعبرية «كوتونيت»؛ وبالسريانية «كوتينا»؛ وبالحبشية كالعربية «كتان». والصحيح، على ما يبدو، أنها مستعارة من لفظة gada السومرية^(٢٥).

وهناك «القيروان»، وهي الجماعة من الخيل، ومنها جاء اسم المدينة بتونس. وعلماء اللغة يعدونها دخيلة. ولعلها كذلك. إلا أننا وجدنا ألفاظاً سامية أخرى تدل على معنى القافلة، وقريبة في معناها من هذه الكلمة. فهناك كلمة girru الأكدية (بابلية قديمة)، ومعناها، كما جاء في قاموس شيكاغو للأشوريات، بحسب التسلسل: طريق، ممر، رحلة، قافلة أي caravan. وتوجد لفظة أكدية أخرى أقرب في نطقها من السابقة إلى مادة القيروان، هي «خرانو» وتعني: طريق عام، طريق، ممر، سفر، رحلة، وفي الأوغاريتية «خ ر ن»: قافلة، عمال وفلاحون؟ أعيان؟.

أما كلمة caravan الانكليزية فتعود بها القواميس الى الكلمة الفارسية «كروان»، وتعني: قافلة من الجمال أو المسافرين. وهذه ترجع الى الكلمة الهندية القديمة karabah (جمل، جمل صغير، فيل صغير). ولاندري بعد هذا الى مَ ترجع كلمتنا العربية.

ومن الكلمات السامية التي ورد ذكرها في القرآن، وقد حاول الباحثون القدماء أرجاعها الى أصولها، كلمة «الطور»^(٢٦). فقد نقل أبو منصور الجواليقي في كتابه «المعرب من كلام العرب» قول ابن قتيبة من أن «الطور: الجبل بالسريانية»، وقال ياقوت عن بعض أهل اللغة: لا يسمى طوراً حتى يكون ذا شجر ... وبلسان النبط كل جبل يقال له طور^(٢٧). ويؤكد الدكتور إبراهيم السامرائي أن الكلمة آرامية، جاءت بمعنى الجبل في السريانية في سفر دانيال: «طور رب» أي جبل عظيم، كما أنها استعملت في «سفر الخروج» بمعنى طبقة من الحجارة^(٢٨).

وقد لاحظنا أيضاً أن كلمة dur (دور) الأكديّة القديمة تعني: الحصن، السور، القلعة. أما عن ورود حرف الدال في الكلمة الأكديّة مقابل الطاء في العربية فنستطيع أن نذكر على غرارها كلمة daragu أو taraqu الأكديّة مقابل «الطريق» العربية. وقد تقابل الدال الأكديّة ذالاً في العربية، مثل كلمة daru «الذرة»؛ أو تاء، مثل dakaku «داكاكو» وتعني: تكأكأ، أي احتشد وتجمع.

وهناك كلمة turris أو tursis اليونانية، وتعني «قلعة، سور مدينة». وما أقربها من لفظة dur «دور» الأكديّة. ومن هذه الكلمة اليونانية جاءت كلمة turris اللاتينية، ومن هذه الكلمات اللاتينية تحدرت الكلمة الفرنسية القديمة tor أو tur، والكلمة الانكليزية tower (برج، قلعة).

وشمة من يرى أن «السكين» دخيلة على العربية، جاء ذلك في كتاب الأب روفائيل نخلة «غرائب اللغة العربية» ضمن المفردات العربية المستعارة من الآرامية. ويميل الدكتور علي عبد الواحد وافي أيضاً إلى اعتبارها دخيلة. فهي من الكلمات المترادفة، وبعض أمثال هذه الكلمات - المترادفة - دخيل. ويروي الدكتور وافي خيراً بشأن هذه الكلمة يفيد أنها لم تكن معروفة زمن النبي من قبل الصحابة. ومفاد الخبر «أن أبا هريرة لما قدم من دوس [بطن من الأزد] عام خيبر لقي النبي صلى الله عليه وسلم، وقد وقعت من يده السكين، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ناولني السكين. فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم المراد بهذا اللفظ، فكرر الرسول قوله وهو يفعل فعلته الأولى، ثم قال: المديّة تريد؟ وأشار إليها، فقال نعم، فقال: أو تسمى عندكم سكيناً، فوالله لم أكن سمعتها يومئذ»^(٢٩).

على أن الدكتور إبراهيم أنيس يتردد في قبول هذه القصة «لأن كلمة «السكين» وردت في سورة يوسف، وهي مكية، أي كانت موضع مدارس وحفظ قبل الهجرة وبعدها. ولاتغيب عن ذهن أحد من المسلمين الذين اتصلوا بالرسول وتأدّبوا بأدبه [...] هذا إلى أن أبا هريرة كان من «دوس» وهي بطن من قبيلة بلحارث التي عاشت على مسافة غير بعيدة من مكة»^(٣٠).

أما الأستاذ عبد الحق فاضل فيذهب إلى أن السكين عربية النجار، كما يرجح أنها أصل الكلمة الانكليزية القديمة seax التي منها اشتقت كلمتا seaxon، و seaxa، أي السكين، والشاقص، على التوالي. والسكين معروفة؛ أما الشاقص فتعني القاطع. ولما كانت كلمة saxon

(السكسون) مشتقة من لفظة seaxon فإنها تعني السكاكين (أصحاب السكاكين)، وفي ضوء هذا يرجح الأستاذ عبد الحق فاضل أن أصلهم عرب^(٢١)، وهو رأي نحسبه متسرعاً.

كما يشير الى أن لفظة sica اللاتينية التي تعني «خنجر» لها علاقة بالسكين العربية، وأن الفعل اللاتيني seco، ويعني «قطع»، ذو صلة بالفعل العربي «شق».

على أننا إذا عدنا الى الفعل اللاتيني seco، وهو مشتق من صيغة الفعل secare «يقطع»، نجد من يؤكد أن له علاقة بكلمة saxum اللاتينية التي تعني «صخر». فكلمة seax تعني بالأصل «مصنوع من الصخر»، وهو استنتاج معقول، لأن أدوات القطع كانت تصنع أو تنحت من الصخر، وهذا يؤكد عراققة وقدم كلمة seax، وربما «السكين» أيضاً، إن كانت تمت الى أصل واحد أي أن التسمية ترجع الى العصور الحجرية. وفي قاموس الدكتور أرنست كلاين نجد أن كلمة secare اللاتينية ترجع الى securis «فأس»، وهذه ترجع الى مادة seq الهندية الأوروبية، وتعني «يقطع»، وبالسلافية القديمة seko (يقطع)؛ وبالتواليية isekti (ينقش، ينحت)؛ وبالانكليزية القديمة sigde، side (منجل)، و secg (سيف)، وبالاسكندنافية القديمة sax، وبالانكليزية القديمة seax (سكين، سيف قصير، خنجر)، وباللاتينية saxum (صخر).

فهل ترجع لفظة «شق» العربية، ومادة seq الهندية الأوروبية الى أصل واحد؟ أما «السكين» فهي بالسريانية «سكينا»؛ وبالعبرية «سكين». ولم نجد في الأكديّة - في حدود إطلاعنا - كلمة بمثل مبنى ومعنى «سكين». ولم يتيسر لنا أن نبحث عنها في الحبشية. أما

القواميس العربية فلا تؤكد على أنها كلمة اساسية. الزمخشري في كتابه (أساس البلاغة) لا يذكرها تحت مادة «السكن». وتحت مادة «سك» تشير القواميس الى «السك» وهو المسمار؛ والمستقيم من البناء، والحفر. وهناك سكة المحراث.

ثم أن حديث الصخر ذو شجون. فالمفردات التي تدل على معناه عديدة في اللغة العربية. ولنبدأ بكلمة «الحصى».

الحصى بالأكدية «خصّو»، وبالعبرية «حصص»، وبالسريانية «حصاصا» و «حصيصا». ومن هذه المادة نحتت كلمة «خصين» الأكدية، وتعني «فأس». وتقابلها بالسريانية «خصانو»، وبالعربية خصين (وزن أمير). ومن العلاقة اللفظية بين كلمتي «خصّو» و «خصين» الأكديتين نستطيع القول أن «الخصين» أي الفأس، اشتقت منذ كانت - الفأس - تصنع من الحجارة. فاللفظة قديمة قدم العصر الحجري على ما يبدو.

والفأس بالانكليزية يقال لها ax أو axe، وترجع الى السكسونية القديمة accus أو acus، وبالسكندنافية القديمة ex، و ox، ox، وبالألمانية القديمة ackes، وبالقوطية aqizi. وتقابلها باليونانية axini (فأس)، وباللاتينية ascia (من أصل acsia) (فأس؛ أداة البنائين). وفي قاموس الدكتور كلاين أن هذه الكلمات قد ترجع الى أصل سامي. ونحن نرجح أيضاً أن الكلمة الانكليزية chesil أو chisel وتعني «حصى» ترجع الى هذه المادة، فهي بالانكليزية القديمة ciosl و cysel وترجع الى الألمانية القديمة kisil (حصى صوكان)، وهي صيغة تصغير للجذر الثيوتوني (أي الجرمانى) kiso المطابق للجذر الهندي الأوروبي - geis (حصى). ونحن

نميل الى الاعتقاد بأن مادتي «حصّ» السامية، و geis الهندية - الأوروبية، من بين المفردات القديمة المشتركة بين هاتين المجموعتين اللغويتين.

ومن «الحصى» وجد الفعل «أحصى». وهذا يؤكد أن فكرة العدّ عند العرب والساميين قديمة قدم العلاقة بين الإنسان والحجارة. وفي اللاتينية يطلق على الحصاة calculus، ومنها جاء الفعل اللاتيني calcu-lare (يحصي، يحسب)، والفعل الانكليزي calculate (يحصي). ومن هذه المادة اللاتينية التي تدل على الحصاة جاء اسم علم التفاضل والتكامل calculus. لكن هذه اللفظة اللاتينية مستعارة من اليونانية khalix (حصاة، حجارة صغيرة).

وإذا عدنا الى مادة «الحصا» العربية وجدنا أنها كانت تستعمل بمعنى «العدد» أيضاً. قال الخطيئة:
سيري أمام فإن الأكثرين حصاً
والأكرمين، إذا ما ينسبون، أبا

ويفسره عبد القادر البغدادي قائلاً: «معنى الحصا: العدد»^(٣٢).

ومن الكلمات اليونانية الأخرى الدالة على الحصاة، psephos، ومنها جاءت فكرة العدّ في الفعل psephizo. وقريبة منها لفظة «إبزا» السريانية، وهي كلمة تفيد معنى الصخر أيضاً. كما أن لفظة abacus اليونانية، وتعني «عدّاد»، مشتقة من كلمة abax، وهي غير يونانية، وفي الغالب سامية؛ فاللفظة العبرية abaq تعني التراب^(٣٣). ذلك أن العدّ كان يتم بواسطة التراب؛ ومن هنا جاءت الأرقام الغبارية.

ويذكر جورج سارتون في كتابه «تأريخ العلم» أن baitylos وتعني

«حجر يتساقط من الشهب»، كلمة فينيقية أو سامية دخلت اليونانية. وعندنا في العربية «البرطيل»، وهو حجر أو حديد طويل صلب خلقة ينقر به الرحي.

ومن الألفاظ الأكديّة التي تدل على معنى الصخر، كلمة «ابنو» وتقابلها في العبرية «ابن»، وفي الأوغاريتية «ابن». ومنها جاء الفعل «بن»، ويعني: بنى، شيد، أصلح ورمم. وفي العربية عندنا من هذه المادة الفعل «بنى»، ومنه البناء، والبنيان. ولا توجد كلمة من هذه المادة تعني الصخر، بيد أن هناك كلمة «ابن» على وزن «كتف»، وتعني الغليظ الشخين من طعام أو شراب. والآبن من الطعام اليابس.

أما كلمة «صخر» العربية فلم نجد - في حدود اطلاعنا - كلمة سامية - بمثل مبناها ومعناها، سوى اللفظة الأكديّة «أسخر»، و «إشخر»، وكلها تعني «معدن». وفي قاموس شيكاغو للآشوريات أن هذه الكلمة أجنبية، أي ليست سامية.

واللغة العربية غنية غنى يندر أن تضاهيها لغة أخرى بالمفردات الدالة على الصخر وأنواعه وأحجامه والأغراض التي يستعمل من أجلها. وقد ذكر الثعالبي أن الأصبهاني جمع أسماءها في كتاب «الموازنة» وكسرّ صاحب على تأليفها دفتراً، وجعل أوائل الكلمات على توالي حروف الهجاء إلا ما لم يوجد منها في أوائل الأسماء. وقد أخرج الثعالبي منها في «فقه اللغة» ما استصلحه للكتاب، فأربى ما اختاره من هذه الأسماء على الستين اسماً، نذكر منها: الصخر، الحجر، الحصى، الجندل، المرو، الصوكان، الظر، الرخام، المرمر (وهي يونانية ولاينية، وبالانكليزية marble)، النهاء، اليرمع، اليلمع، البصرة،

الصفاء، أو الصفوان أو الصفواء (وهي الحجارة الشديدة)، الصيدان،
الفهر، المهو، الرضام، اللخاف، الخ.

ولا شك أن بعض هذه المفردات مستعارة من لغات آخر. ومن بين
المفردات الصخرية التي نحسبها مستعارة، كلمة «اللاية»، وتعني
الحجارة السود. وفي قاموس «تاج العروس»، اللوية واللاية: الحرّة، أي
الأرض ذات الحجارة السود. وفي الحديث «حرّم النبي صلى الله عليه
وسلم ما بين لابتي المدينة»، وهما حرّتان تكتنفانها.

و «اللاية» هذه تذكرنا بكلمة lapis اللاتينية، وتعني «حجر»،
وتقابلها باليونانية lepos (صخرة جرداء، جرف شديد الانحدار). لكن
هذه الكلمة قد تذكرنا بالفعل اليوناني lepein (يقشر، يزيل، ينزع
اللحاء) كما جاء في قاموس الدكتور كلاين. ومن هذا الفعل جاءت
الكلمتان اليونانيتان lepos، lepis (قشر). ويرجع هذا إلى الجذر الهندي
الأوروبي lep - (يقشر). لكن هذا الجذر الهندي الأوروبي قد يذكرنا
بكلمة (ليف) العربية، وتعني: قشر النخل وما شاكله.

أما كلمة «البصرة» فتعني الحجارة الرخوة. والبصرة الحجر الغليظ،
وتذكرنا هذه المادة بكلمة petra اليونانية، وتعني «صخرة»، ومنها
جاءت petros «حجارة»، والكلمة اللاتينية petrus (صخر)، ومن هذه
الآخيرة جاء اسم «بطرس» الذي يقال له بالانكليزية peter وبالفرنسية
pierre. ويمكن ذكر «البتترول» petroleum أيضاً، وهي مركبة من
مقطعين، أحدهما يعني «الصخر»، والآخر «زيت».

والبُتْر: الرمل المستطيل. والأباتر: أودية أو هضاب نجمية. و
«بترون» قرية بجبيل من أعمال طرابلس الشام، وقد كانت قاعدة

فينيقية يغوص سكانها على الإسفنج ويتاجرون به، و «البُتران»: جبل.
قال الشاعر:

وأشرفت من بُتران أنشد هل أرى

خيالا لليلي ريته ويرانيا

والبتراء عاصمة الأنباط، وهي مأخوذة من الكلمة اليونانية pe-
traea، أي الصخرة. ولكن الكلمة اليونانية من أصل غير معلوم، كما
تفيد القواميس.

على أننا ينبغي ألا ننسى، كما يحذرنا اللغويون، أن يريق الكلمات
المتشابهة قد يكون خادعاً ومضللاً في كثير من الأحيان. وغني عن
البيان أن ورود تشابه بين مفردات لغة وأخرى قد يتم بمحض المصادفة.
وهذا ممكن إذا أخذنا بعين الاعتبار كثرة المفردات في أي لغة، ومن ثم
فقد يحصل تشابه هنا وهناك وفق قوانين الاحتمال. وقد وقع البعض في
هذا المطب الخادع، فنسبوا العديد من الألفاظ الأجنبية الى العربية، دون
الرجوع الى أصول هذه الألفاظ في اللغات الأم. وبوسعنا أن نأتي على
ذكر عدد من الأمثلة على كلمات متشابهة في ظاهرها، لكنها ليست
كذلك في حقيقتها. لنأخذ كلمة refuse الانكليزية، أو مثيلتها
الفرنسية، على سبيل المثال. أنها تذكرنا في الظاهر بكلمة «رفض»
العربية التي تطابقها في المعنى واللفظ. لكننا لو رجعنا الى القواميس
لوجدنا أن الكلمتين الإنكليزية والفرنسية تعودان الى كلمة refuser
الفرنسية القديمة، وهذه أصلها من اللاتينية الدارجة refusare، وهي من
اللاتينية refundere، وهذه الأخيرة مؤلفة من المقطعين re، fundere،
والأخير منهما يعني «يسكب». ولاشك أن هذا الجذر يؤكد ابتعاد

الكلمة في مبناها عن اللفظ العربي، فضلاً عن اختلاف المعنى الأصلي.
هذا في حين أن هناك مفردات لاتبدو في ظاهرها متشابهة، إلا أنها
في حقيقة الأمر ترجع الى أصل واحد. مثال على ذلك كلمة so long
الانكليزية، و «سلام» العربية. فكلمة «سلام» العربية اقتبسها أهالي
الملايو من العرب ونطقوا بها salang، ثم اقترضها الانكليز من الملايو
وأصبحت على ألسنتهم so long^(٢٤).

ومثلها كلمة monkey الانكليزية، أي القرد. فهي ترجع الى كلمة
«ميمون» العربية. فالكلمة بالإيطالية الوسيطة monichio، وهذه مشتقة
من الإيطالية القديمة monna، وبالإسبانية والبرتغالية mona، mono.
ويرجح أنها انتقلت الى اللغات الأوروبية عن طريق تركيا. وقد كانت
هذه اللفظة العربية - ميمون - تطلق على القرد لأن الناس كانت تعتقد
أن مرأى القرد يجلب البلبا.

وفي لغتنا عدد من الكلمات المعربة عن أصل أجنبي، لكنها ترجع
في حقيقتها الى أصل عربي. مثال على ذلك كلمة «الصودا» وهي المادة
القلوية، المعربة من لفظة soda الأوروبية. بيد أن هذه اللفظة الإنكليزية
مأخوذة من اللاتينية الوسيطة sodanum، وتعني بالحرف الواحد «علاج
للصداع»، وهي مشتقة من كلمة soda اللاتينية المستعارة من كلمة
«صداع» العربية. وكلمة «الصداع» العربية، أي وجع الرأس، منحوتة
من الفعل «صدع» أي «شق». وهكذا فإن هذه الكلمة العربية انتقلت
الى اللاتينية بعين المعنى، ثم تحولت الى كلمة أخرى لتعني علاجاً
للصداع، ثم اشتقت منها كلمة «الصودا» التي عادت الى لغتنا لتفيد
معنى المادة القلوية.

وهناك كلمة racket (مضرب كرة التنس) التي ترجع الى الفرنسية raquette، وبالأصل rachette وهي مستعارة من كلمة «راحة» العربية، أي راحة اليد.

ومن بين الكلمات الأوروبية التي ترجع الى أصل سامي نذكر الأمثلة الآتية:

أوروبا: لفظة «أوروبا»، أو Europe كما ترسم بالإنكليزية، من اللاتينية Europa، وهذه من اليونانية Europs، وهي من أصل سامي، على الأرجح، كما جاء في قاموس الدكتور كلاين. فهي تذكرنا بالكلمة الأكديّة erebu (تدخل، تخفض، تغيب: وتقال للشمس). وغروب الشمس يقال له بالأكديّة erbshamshi. وبالعربية «غروب»، وبالعبرية «عيربه»: غروب، مغيب. فأوروبا هي منطقة الشمس الغاربة. وأوروبا هي الغروب.

آسيا: لفظة Asia لاتينية، وهي من اليونانية Asia، وهذه من الأكديّة «أصو»: يطلع؛ يشرق (وتقال للشمس). وبالعربية «ياتساء»: طلع، أشرق (وتقال للشمس أيضاً). وبالأرامية «يعا»: انطلق، اندفع، ازهر. وبالحبشية «وضاً»: طلع. وبالعبرية «وضؤ»: حسن وازدهى ونظف. فالوضاءة: الحسن والنظافة والبهجة. والوضوء للصلاة: التطهر. فآسيا تعني إذن منطقة الشمس المشرقة.

England: كلمة angel الإنكليزية، ومثلها الفرنسية، وتعني «ملاك»، هي أصل كلمة England، وكلمة English، وتعود الى الفرنسية القديمة angele وهذه من الكلمة اللاتينية engelus، وهي من اليونانية aggelos (رسول، رسول مقدس، ملاك)، وتعود الى الكلمة

الفارسية aggeros (ساع خيال، رسول) وهي من أصل سامي، ففي الأكدية aggarru (إيجار، عامل أجير) من الفعل agaru (يؤجر)، وبالآرامية agar (أجر)، والعربية «أجر»، وبالعبرية iggereth.

Cross (الصليب): لفظة cross الانكليزية ترجع الى الإنكليزية القديمة cros، وهذه ترجع الى الاسكندنافية القديمة kross، وهي من الأرنندية القديمة cros، وهذه من اللاتينية crucem، وهي صيغة الإضافة لكلمة crux (صليب)، ويُظن أنها ترجع الى أصل بوني Punic (وهي إحدى اللهجات الفينيقية - لغة قرطاجة القديمة).

اليوبيل: تعني كلمة «اليوبيل» الذكرى الخمسين، وهي بالانكليزية jubilee، وبالفرنسية jubile، وباللاتينية المتأخرة jubilaus، وهي مأخوذة من اليونانية iobelaos من iobelos، وهذه مستعارة من العبرية yobel، أي الكبش، ذلك أن بدء السنة الخمسين عند اليهود - وهي عندهم سنة الخلاص أو الاعتاق - كان يعلن عنه بالنفخ في بوق مصنوع من قرن الكبش، أي «يوبيل» بالعبرية، وهي من مادة (وبل)، وتذكرنا لفظاً ومعنى بالوابلة العربية. والوابلة هي نسل الإبل والغنم^(٢٥). وفترة اليوبيل قوامها ٤٩ سنة وقسمت الى سبع مجموعات (٧ × ٧)، وتشتمل كل مجموعة على سبع سنوات شمسية عدة الواحدة منها ٣٦٤ يوماً^(٢٦).

الكرز: ترجع كلمة cherry الى ceresia اللاتينية الدارجة، وهذه من cerasium باللاتينية الإمبراطورية، وهي من kherasos اليونانية، ويظن أنها ترجع الى كلمة karshu (كرشو) الأكدية، وتعني: «فاكهة منواة، كل فاكهة ذات نوى». ويذكر بهذا الصدد اسم مدينة kerasous من

أعمال بونتس، وبالحرف الواحد: المدينة التي يكثر فيها الكرّز؛ مدينة الكرّز.

cider : لفظة cider (عصير التفاح أو غيره من الفاكهة)، وهي بالفرنسية القديمة sider، مأخوذة من اللاتينية المتأخرة sīcera، وهذه من يونانية العهد القديم (التوراة) sikhera، وهي من العبرية «شيخار»: مشروب قوي، من الفعل «شخر»، وهو من الفعل العربي «سَكِرَ»، وبالحبشية «سيكارا»، وبالأوغاريتية «س ك ر»، وبالأكدية «شكرو»، وبالأرامية «شيخرا».

الكيمياء: ترجع لفظة Alchemy، وتعني كيمياء العصور الوسطى، الى كلمة alquemia الفرنسية القديمة (القرن الثالث عشر)، وفي القرن الرابع عشر alchimie، وهي من اللاتينية الوسطى alchemia، وهذه من العربية «الكيمياء»، وهي مركبة من أداة التعريف العربية ولفظة khi-meia أو khimia اليونانية الوسطى، ولعلها تعني «فن الشيء الأسود؛ مصر»، من «خيميا»: الأرض السوداء، مصر. وهي مشتقة من الكلمة المصرية القديمة khem، و khama (أسود).

Skeleton: الكلمة الانكليزية skeleton (هيكل عظمي) مستعارة من اليونانية skheleton (مومياء، هيكل عظمي)، وهذه مأخوذة من السريانية sheladda (هيكل عظمي)، وهي من الأكدية «شالامدو» أو «شالامتو»، وهي بالمعنى الضيق للكلمة «الجثة بكاملها»، من أصل «شالامو»: سليم، كامل. وبالعبرية «שלם»، وبالعربية «سلم».

وقد أُلّف عدد من الكتب في موضوع الكلمات المستعارة من وإلى العربية، قديماً وحديثاً. ومن بين المؤلفات الحديثة نخص بالذكر كتاب

الأب روفائيل نخلة «غرائب اللغة العربية»، وهو كتاب قيم لكنه يفتقر الي النهج العلمي الموضوعي في بعض أحكامه. في هذا الكتاب أكثر من ثبت بمفردات عربية انتقلت الى مختلف لغات العالم، وبالعكس ذلك أيضاً. إلا أننا لاحظنا أن عدداً لا يستهان به من الكلمات العربية التي اعتبرت في هذا الكتاب دخيلة، أي مستعارة، من لغات أخرى، إنما ترجع في الحقيقة الى أصل سامي مشترك، أو أن نسبها - على نحو ما جاء في كتاب الأب نخلة - غير صحيح. وها نحن نورد أمثلة من هذه الكلمات:

(١) - مانسب الى اللغة اليونانية

مَن: منا، مكيال عند اليونانيين القدماء قدره نصف كيلو غرام mna. يرى الأب نخلة أن الكلمة انتقلت الى العربية من اليونانية بواسطة السريانية manio. هذا مع العلم أن الكلمة بابلية قديمة معروفة، وتلفظ بالأكدية (منا). جاء في ملحمة كلكامش:

وسبكوا سيوفاً كبيرة نصل كل منها

وزنتان وقبضاتها ثلاثون «منا» (٢٧)

كما ورد ذكر هذه الكلمة في الموسوعة البريطانية (طبعة ١٩٦٢) تحت مادة «فينيقيا» ضمن قائمة الكلمات التي استعارتها اليونانية من الفينيقية.

خُرْص، خُرْص: حلقة الذهب؛ حلقة القراط. وهي، كما يرى الأب نخلة، من الكلمة اليونانية khrisos ذهب؛ حلية من ذهب. والعكس هو الصحيح، لأن الكلمة سامية الأصل. فهي بالأكدية «خراصو»، وبالعبرية «خاروص»، وبالأوغاريتية «خ ر ص». و «الخرص» بالعربية حلقة

الذهب. ولعل كلمة «الخارصين» مأخوذة من هذه المادة أيضاً.
وهذه الكلمة، أي khrisos وردت أيضاً في الموسوعة البريطانية
ضمن المفردات المستعارة الى اليونانية.

أقليم: وهي باليونانية klima. وقد أشار الدكتور حسن ظاها أيضاً
الى يونانيتها. ويذكر الدكتور أرنست كلاين في قاموسه أن كلمة cli-
mate الانكليزية، وتعني «مناخ»، متحدرة من الكلمة اللاتينية clima
(منطقة، مناخ)، وهذه من اليونانية klima (ميلان، منحدر، منطقة)،
وهي من الفعل klinein (يسبب الانحدار، يحنى).

ونحن لانرفض احتمال انتقال الكلمة من اليونانية الى العربية. بيد
أن هذه اللفظة وردت في نعت للملك السومري زاكيزي بالصيغة الآتية
lugal kalamma أي (ملك الأقليم)، أو (ملك البلاد)^(٢٨)، فهل انتقلت
الى اليونانية عن طريق الأكديّة أو لغة سامية أخرى، ثم استعارتها
العربية من اليونانية، أم أن العربية اقترضتها من بلاد الرافدين
مباشرة؟.

قيراط: جزء من أربعة وعشرين من أجزاء الشيء. وهي، على حد
زعم الأب روفائيل نخلة، من الكلمة اليونانية keration: ثمر الخروب.
كان بعض القدماء يزنون حب الخروب، وكل ٢٤ حبة تساوي أوقية. هذا
ما جاء في كتاب نخلة، تحت هذه المادة. وقد جاء في قاموس الدكتور
كلاين أن كلمة carob الانكليزية، أي «الخروب»، ترجع الى carrubia
اللاتينية الوسيطة، وهي من العربية «خاروبة»، وهذه من الآرامية
«حاروبها»، ويرجع بها الى أصل عبري. لكننا وجدنا الكلمة في قاموس
شيكافو للأشوريات ترد في نص أكدي قديم، وتلفظ «خروبو» أو
«خاروبو». وهذا أقدم نص عُرف.

اللقن: إناء من نحاس، وبال يونانية lekani، وهو وعاء من معدن. هذا ماجاء في كتاب الأب نخلة. لكننا وجدنا الكلمة البابلية الآتية «لخانو» وهي مستعارة من السومرية وتعني: وعاء. وفي قاموس الدكتور كلاين إشارة الى العلاقة بين كلمة lignu الأكديّة وتعني «زهريّة، إناء»، وكلمة lagga السريانية وتعني «إناء فاكهة»، والى احتمال وجود صلة بين هذه المادة وكلمة «لج» العربية التي من معانيها «معظم الماء»، و «جانب الوادي»، ومن هذه المادة السريانية جاءت الكلمة العبرية «لوع» وتعني «مقياس للسوائل». وفي قاموس الدكتور كلاين أن الكلمة الانكليزية log (مقياس للسوائل) ترجع الى العبرية. وتجدد الإشارة الى أن «اللقن» كلمة شائعة الاستعمال في العراق، مهد للسومرية.

قبرس: أجود النحاس، وقد أشار الأب نخلة الى أن هذه الكلمة العربية مأخوذة من الكلمة اليونانية kipros: جزيرة قبرص المشهورة بنحاسها منذ القدم. هذا في حين أن العكس هو الصحيح، أي أن اليونانيين هم الذين استعاروا الكلمة من اللغات السامية، كما جاء في الموسوعة البريطانية تحت مادة phoenicia، والظاهر أن أصلها سابق للسومرية والأكديّة.

النفط: ذكرها الأب نخلة من بين الكلمات المستعارة من اليونانية. وواقع الحال أن الكلمة سامية، وأن لفظة naphta اليونانية مستعارة من الآرامية «نفطا». والكلمة بالأكديّة «نفطو».

هالة: يرى الأب نخلة أن كلمة «هالة» العربية مستعارة من اليونانية alos (دائرة ساطعة تحيط أحياناً بالقمر). لكن الكلمة اليونانية من أصل غير معروف، كما تذكر القواميس، والكلمة بالعربية

تعني: دائرة القمر. تقول فلان لا يخرج من جهالته حتى يخرج القمر من هالته. وهالة اسم امرأة عبد المطلب بن عبد مناف، أم الحمزة. وهالة: الشمس، معرفة. والهالة بالعبرية «هله»، وبالأكدية «خيلو»: يسطع، يلمع، يفرح، يضاجع.

قين: وجاء أيضاً إن هذه الكلمة العربية مأخوذة من اليونانية -kami nefs التي تعني «حداد». وقد فصلنا سابقاً كيف أن هذه المادة مشتركة بين اللغات السامية والحامية.

أرز: وجاء أن هذه الكلمة انتقلت الى العربية من اليونانية، وهي صينية الأصل. لكن يبدو أن الرأي السائد اليوم أن هذه الكلمة ترجع الى أصل تاميلي (من لغات جنوب الهند، وهي من مجموعات اللغات الدرافيدية)، كما تفيد بذلك الموسوعة البريطانية تحت مادة Indo - Euro -peans. ثور:

جاء أنها من tavros اليونانية. لكن العربية لم تكن بحاجة لاستعارتها من هذه اللغة، لأن الكلمة أصيلة فيها وفي بقية اللغات السامية، فهي بالسرانية «تورا»، وبالعبرية «شور»، وبالأوغاريتية «ث و ر»، وبالحبشية واللغات العربية الجنوبية «سور»، وبالأكدية «شورو». ويمكن ملاحظة الصلة بين الثور والفعل «ثار» بالعربية، وهي كالعلاقة بين مادة ukxen الهندية الأوروبية وتعني «حيوان ذكر» والفعل uks (ينثر)؛ ومنها انحدرت كلمة ox (ثور) الانكليزية ولفظة ukxen تعني بالحرف الواحد «النائر».

(٢) - ما نسب الى الفارسية

سراة: أعلى كل شيء، وهي كما جاء في كتاب «غرائب اللغة

العربية» من «سر»، وتعني: رأس، بالفارسية. لكن الكلمة العربية تذكرنا بالكلمة الأكديّة السامية «شارو»، أي الملك، أو الرئيس^(٢٩). و «سر» بالعبرية: رئيس؛ قائد. ومن هذه المادة جاء اسم «سارة» زوجة ابراهيم الخليل.

(٣) - مانسب الى السريانية

بيت: جاء في كتاب الأب نخلة أن هذه الكلمة ترجع الى السريانية bayto من bot أقام في مكان. هذا في حين أن الكلمة ترد في الأكديّة أيضاً، على هذا النحو «بيتو». وبالعبرية «بيت». فالكلمة سامية مشتركة.

آجر: جاء أنها من السريانية agouro. لكنها بالأكديّة أيضاً agur-
.ru

أس، أساس: وبالسريانية «أشيتو». لكن الكلمة موجودة بالأكديّة أيضاً، وتلفظ «أيشدو» وبالعبرية «بسيس».

اسكاف: بالسريانية «أوشكوفو»، كما جاء في كتاب الأب نخلة. بيد أن هذه الكلمة من مفردات من يدعون بالفراتيين الأوائل، ويفترض أنهم سبقوا السومريين والساميين في العراق (ينظر في هذا الكتاب طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ص ٢٧٥). والكلمة يقال لها بلغة هؤلاء القوم ashgab صانع جلود. وقد استعارها منهم الأكديون على ما يبدو.

أكار: حراث، وبالسريانية «أكورو». لكن الكلمة بالأكديّة أيضاً ايكارو. ولهذه الكلمة صلة باللفظة (ايكر) السامية، أي قطعة أرض.

إمّر: حَمَلُ (أي خروف صغير)، وبالسريانية «إيمرو». ولاحظنا أنها بالأكديّة (إمّر) أيضاً، وتعني: خروف، خراف، ماعز. وبالأوغاريتية «إ م ر».

أنبوب: ما بين عقدتين من القصب، أو كل أجوف مستدير. وهي بالسريانية «ابوبو»: قصبة، أنبوب أجوف يسيل فيه الماء أو غيره. والكلمة بالأكديّة «اينبويو»: ناي، القصبة الهوائية. وبالعبرية «ابوب»: ناي، مزمار، أنبوب، قصبة.

إوز: بالسريانية «وازو». لكن هذه الكلمة بالأكديّة اوزو usu، وكذلك ussu، وهي مستعارة من السومرية. والكلمة بالعبرية «اوزو» أيضاً.

بعير: جمل بازل أي طلع نابه، مأخوذة من السريانية «بُعيرو»: دابة تحمل أحمالاً أو تجر مركبة، كما جاء في كتاب الأب نخلة. وقد وجدنا بالأكديّة كلمة «بيرو»: ثور «للسفاد»: ماشية (من صغار الحيوانات حتى سن الثالثة)، وبالأوغاريتية «ب ع ر»: يقود.

تاجر: بائع خمر (أقدم معانيها)، وبالسريانية tagoro. بينما هي أكديّة، ويقال لها tankaru.

تنور: من السريانية «تانور» كما يقول الأب روفائيل نخلة. وقد أشار الدكتور حسن ظا في كتابه «الساميون ولغاتهم» الى أنها آرامية، وتعني «الفرن». لكن يستطرد فيقول: «وهي بالأكديّة «تنور» ومستعملة في العبرية القديمة، وفي المصرية الفرعونية، وفي الفارسية القديمة أيضاً، ومما يرجح أن مصدرها الأول هو العراق القديم للتوسع في استخدام النار قديماً هناك، حتى في الأغراض الصناعية، كعمل الفخار الذي بدأ مبكراً جداً».

جسر: معبر على نهر أو نحوه، وبالسريانية «غوشرو». وقد لاحظنا أن هذه الكلمة وردت بالأكدية بهذا الرسم gishro، بمعنى جذع شجرة. عثر على الكلمة في نصوص بابلية قديمة، ثم في نصوص بابلية وآشورية حديثة بمعنى الجسر. ولاشك أن العلاقة واضحة بين الجذع والجسر.

جليد: ماء جامد، وبالسريانية glido. وتوجد الكلمة في العبرية أيضاً، حيث تفيد «جلد»: تجمد، تخثر، تصلب، اندمل. و«جليد»: ثلج. والكلمة الأكديّة المقابلة لهذه المادة مستعارة من اللغات السامية الغربية. ولسنا ندري بعد هذا إن كانت الكلمة مشتركة في الساميات، أو أنها انتقلت إلى العربية من السريانية، كما جاء في كتاب نخلة. لكننا سنجد أن هذه اللفظة موجودة في عدد من اللغات الهندية الأوروبية أيضاً.

الجنة: وبالسريانية ganto. لكن هذه الكلمة موجودة بالأوغاريتية أيضاً، بهذه الصورة «ج ن»: حديقة. وبالعبرية «جن»: حديقة. ولاندرى بعد هذا إن كانت أصيلة في العربية أيضاً، أم مستعارة.

حرب: سيف، تدمير، حرب. من «خراب» السريانية كما جاء في كتاب «غرائب اللغة العربية». وقد وجدنا في الأوغاريتية كلمة «ح ر ب»: المحارب، الجندي، الحربة، السيف، المدينة. وفي الأكديّة «كارابو»: الحرب. فالكلمة مشتركة في الساميات على ما يبدو.

حصد: بالسريانية «حصد». لكنها موجودة في الآشورية القديمة بصيغة «أيصيدو»، وبالعبرية «حصد». وقد لاحظنا أن الكلمة اليونانية المقابلة لها هي esodia، ولعلها مستعارة من الساميات، لأننا لم نعثر على قرائن لها في الهنديات الأوروبية.

حكيم: عالم، وبالسريانية «حكيمو» من «حكم»: علم. ولكن الكلمة موجودة في الأكديّة أيضاً «خاكامو» بالمعنى نفسه. وبالأوغاريتية «ح ك م». فهي، على ما يبدو، سامية مشتركة. والكلمة العبرية المقابلة لها «حاحام».

حمى: وبالسريانية «حيمتو»: حرارة. لكنها في البابلية أيضاً «خمتو»: حرارة؛ يشعل، يلتهب. و «حم» العبرية: حرارة، دفء. ختن: زوج البنت و «ختنو» بالسريانية. وقد لاحظنا أنها في البابلية «ختنو» أيضاً وتعني: زوج البنت، قريب من هذا المستوى. وبالعبرية «ختن»: زوج.

خس: من السريانية «خاصو» كما جاء في كتاب الأب نخلة. لكنها في البابلية القديمة «خشو»، وفي العبرية «حسه». خُص: بيت من قصب أو شجر، من السريانية «حوصو». وقد لاحظنا أنها في البابلية أيضاً «خصو».

خزير: من السريانية «خزيرو» كما جاء في كتاب الأب نخلة. لكنها بالأكديّة القديمة «خزيرو»، وبالعبرية «خزير».

دن: جرة كبيرة تركز في حفرة، من السريانية «دانو»، وقد وردت في البابلية الحديثة بصيغة «دانو»، وفي الأوغاريتية «دن»، وبالعبرية «دن» أيضاً. ولسنا ندري بعد هذا أكانت مشتركة في الساميات كافة، أم أنها استعيرت من اللغات السامية الغربية.

سامة: سبيكة من ذهب أو فضة. وبالسريانية «سيمو»: فضة. وهي تطلق أيضاً على الذهب والفضة معاً، كما جاء في «غرائب اللغة العربية». إلا أننا وجدنا بين مفردات الفراتيين الأوائل كلمة تدل على

معنى «الحداد» أو «النحاس» يقال لها simug. فهل هي أصل جميع الكلمات السامية؟ وهل تعود إليها كلمة «سبك» العربية؟

سطر: كتب، وبالسريانية «سراط»: خط، رسم. لكن الكلمة بالأكدية «شطرو»: كتب.

تسكن، استكان: خضع، ذل، وبالسريانية «سكن»: افتقر. وقد لاحظنا أن هذه المادة موجودة في الأكدية أيضاً بصيغة «موشكينو»: العبد، المسكين، الذليل.

شباط: وبالسريانية «شبوط». ثم أن «سباتو» الأكدية: الشهر الحادي عشر عند البابليين.

صر: طائر كالعصفور؛ وبالسريانية «اصيرو». وبالأكدية «إصورو» وتطلق على الطير عامة. وكلمة «ع ص ر» الأوغاريتية تعني: العصفور، الطير. وهذه المادة موجودة أيضاً في بعض اللغات الهندية الأوروبية.

عدن: جنة عدن. الفردوس الأرضي. وبالسريانية «عَدَن» من «عَدَن»: تمتع. بيد أن الأب مرمرجي الدومنيكي يذكر في كتابه «أبحاث السُّنِّيَّة ثنائية» أن كلمة «عدن» من أصل سومري «ايدينو» وتعني (الأراضي المزروعة، الخضرة، المخصبة).

فخاري: بائع الفخار؛ صانعه. وبالسريانية «فاخورو». لكن هذه أيضاً من مفردات الفراتيين الأوائل السابقين للسومريين والساميين. ونلاحظ بلغتهم pakhar وتعني فخار (صانع الأواني الفخارية).

قَبَعَة: بالسريانية «قويعو»: قلنسوة. لكن القبة بالأكدية يقال لها «كبشو»، والعبرية «كويغ». ولعل الكلمة من أصل فلسطيني.

قرأ: مَنْ قُبِلَ في إحدى الدرجات الشماسية الصغرى ليقراً الكتاب المقدس على المؤمنين، وهي بالسريانية «قورويو». إلا أننا سنرى أن هذه الكلمة موجودة في الأوغاريتية والعبرية أيضاً. كما أن هذه المادة موجودة - لفظاً ومعنى - في عدد من اللغات الهندية الأوروبية.

قُلَّة: جرة كبيرة، وهي بالسريانية «قولاتو». لكن الكلمة موجودة في الأكديّة أيضاً بهذه الصورة «كولاتو».

كيش: بالسريانية «كيشو». لكنها مشتركة في الأكديّة والعبرية، عدا عن السريانية والعربية، فلعلها سامية مشتركة.

كُتَان: من السريانية «كيتونو». وقد مر بنا أن الكلمة مشتركة في اللغات السامية كافة. ويرجح أنها مستعارة من السومرية.

كُر: ستون قفيزاً، ويساوي ستة أوقار حمار. وبالسريانية يقال له «كورو». لكن هناك كلمة «شار» الأكديّة، وتعني (كيل أو مقياس للمساحة والحجوم). كما أن هناك كلمة سومرية هي guru أو ku-ru، وهي وزن معين يساوي طناً تقريباً.

كركي: الطائر المعروف. وبالسريانية «كوركيو». وقد وردت هذه الكلمة في الأكديّة أيضاً بهذه الصورة «كوركو»، ولعلها سومرية الأصل.

كوكب: من السريانية «كوكب» كما جاء في كتاب الأب نخلة. بيد أنها في الأكديّة kakkabu.

الدب: يرى الأب روفائيل نخلة أن هذه الكلمة مأخوذة من السريانية «ديبو»، مع العلم أن الكلمة موجودة في الأكديّة أيضاً «دابو»، والعبرية «دب».

الدبس: عسل النحل، عسل التمر أو نحوه، وفي كتاب الأب نخلة
أن الكلمة العربية مأخوذة من السريانية «ديشو». ونحن نحسب أن
هذه المادة مشتركة في اللغات السامية، فهي بالأكدية «ديشو» بالقلب،
وبالعبرية «ديباش».

سكر: الخمر؛ كل مسكر. وعنده أن الكلمة العربية جاءت من كلمة
«شاكرو»، وتعني: كل مسكر غير الخمر. هذا في حين أن الكلمة ترد
في الأكدية بهذه الصورة «شاكرو»، وفي الأوغاريتية «ش ك ر»، وفي
الحبشية «سكرا»، وفي العبرية «شاخار». فالكلمة سامية مشتركة،
على ما يبدو.

سنة: من «شانو» السريانية، وهذه الأخيرة من «شنو»: تحرك. على
أننا نحسب أن الكلمة سامية مشتركة، فهي بالعبرية «شنة»، وبالأكدية
«ساتي» و «سناتي»، وبالأوغاريتية «ش ن ت».

شأ: أبغض، من «سنو» السريانية. لكننا وجدنا الكلمة في
الأوغاريتية «ش ن»: يكره، و «ش ن و»: عدو. وبالعبرية «سنا»:
كره، أبغض.

عبر: شاطئ، وفي كتاب الأب نخلة أنها من «عبرو»: أرض على
شاطئ نهر. وقد وجدنا الكلمة في العبرية أيضاً «عبر»، وفي الأكدية
«ايبار»: وراء، إلى مابعد، فوق. ومن معاني «عبر» العربية: الجانب
الآخر «من الوادي أو النهر».

عرش: كرسي ملك أو رئيس عالي المقام، من «عرسو»: سرير؛
عرش. لكن الكلمة في الأكدية «ايرشو»، ولعلها «عرشو»: سرير،
صينية، وبالعبرية «عرس»: سرير.

مشاركة: بقعة مزروعة، من السريانية «ميشورتو»، كما ورد في كتاب الأب نخلة. لكن الكلمة موجودة في الأكديّة أيضاً، ويقال لها «ماسارو» وكذلك «مشارو»: زرع، حديقة، حقل.

نون: سمكة، وعلى الأخص كبيرة، من الكلمة السريانية «نونو»، كما جاء في كتاب الأب نخلة. والكلمة بالأكديّة «نونو»، ولاندري إن كانت اللفظة العربية مستعارة من السريانية، أم من الأكديّة، أم أنها مشتركة. أما كلمة «نون» العبرية فمستعارة من السريانية، كما جاء في قاموس «قوجمان» العبري - العربي.

مَلّاح: نوتي، وبالسريانية «مالوحو». لكن هذه أيضاً من مفردات الفراتيين الأوائل، وهي بلغتهم «ملاخ».

نَجّار: وبالسريانية nagor. لكنها، هي الأخرى، من مفردات الفراتيين الأوائل.

هيكِل: معبد الوثنيين. وبالسريانية «هيكلو». لكن هذه الكلمة سومرية الأصل، وهي مركبة من مقطعين، هما: إي - كال، وتعنيان: البيت الكبير «إي: بيت؛ gal: كبير، عظيم».

الكأس: وبالسريانية «كاسو». إلا أننا وجدنا هذه الكلمة في الأكديّة أيضاً kasu، وبالأوغاريتية «ك س».

(٤) - مانسب الى اللاتينية

مُدّ: وهو نوع مكيال للحبوب. قال إنها مأخوذة من كلمة modius اللاتينية، وتعني: نوع مكيال للبضائع الجامدة والسائلة. ولكننا وجدنا في الأكديّة كلمة madadu (مدادو)، وتعني: مقياس. وبالأوغاريتية «م

د د»: يقيس. وتقابلها بالعبرية كلمة «مدد». فالكلمة سامية مشتركة. على أننا نعتقد أن الكلمة مشتركة بين اللغات الهندية الأوروبية أيضاً. كركم: في كتاب نخلة أنها مستعارة من كلمة curcuma اللاتينية. بيد أن هذه الكلمة سامية الأصل كما هو معروف، فهي بالأكدية «كركانو»، وبالعبرية «كاركوم»، وبالأرامية السريانية «كُركينا». القميص: قال الأب نخلة: «على الأرجح من camisia اللاتينية. أما الدكتور أرنست كلاين فيرجع باللفظة الإنكليزية التي تدل عليها الى اللاتينية المتأخرة camisa, camisia، وهاتان اللفظتان مستعارتان من التيوتونية (الجرمانية) عن طريق اللغة الغالية (وهي سلتية أو كلتية). ويذكر بهذا الصدد كلمة hemidi باللغة الألمانية القديمة، وكلمة hemethe بالفريزية القديمة، وكلمة hemithi بالسكسونية القديمة، وهذه جميعاً من الجذر التيوتوني hamithia، وهو من الجذر الهندي الأوروبي المفترض (n) hama (غطاء)، وهذا من الجذر kem أو kam (يغطي). على أننا وجدنا كلمة «ق م ص» بالأوغاريتية، بمعنى «ثوب» أيضاً. ويرى سايروس غوردن Cyrus Gordon في كتابه Ugaritic Text-book أن أصل الكلمة سامي.

(٥) - مانسب الى العبرية

هلوليا: ذكر الأب روفائيل نخلة أن كلمة «هلوليا» مأخوذة من العبرية، وهي صيحة فرح في الصلوات المسيحية. وبالعبرية يقال «هأليو لوياء» وتعني: سَبَّحُوا لِلَّهِ. بيد أن هذه الكلمة ترجع الى أصل سومري elilu، وبالعبرية «ولول». ثم أنها من أصوات المحاكاة (ترجيع الصوت عند الزغردة).

كروب: جاء أنها مستعارة من العبرية، وجمعها «كرويون» كروبيّة، كروبيم»: ملاك من الطغمة الثانية. وفي العبرية «كروب»، وجمعها «كروبيم». والأصح، كما هو سائد اليوم، بتعبير الدكتور سيد يعقوب بكر، أن الكلمة أكديّة الأصل، من «كاريبو» التي تطلق على طائفة خاصة من الكائنات الجنيّة المجنحة التي كانت تحرس معابد بابل وقصورها. ومن معاني كلمة «كرب» الأكديّة: بارك، وبارك هذه موجودة في العربية والعبرية^(١٠).

الهوامش

- (١) - الأب أنستاس ماري الكرمللي: نشر، اللغة العربية ونموها واكتيهاها. المطبعة العصرية. القاهرة، سنة ١٩٣٨.
- (٢) - المصدر السابق، ص ٧٠.
- (٣) - فردريك أنجلز: أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة. ترجمة أديب يوسف، ص ١٣١. منشورات دار الفارابي ودار الكاتب العربي.
- (٤) - المصدر السابق، ص ٢١٣.
- (٥) - المصدر السابق، ص ١٦٧.
- (٦) - عباس محمود العقاد: الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، ص ٢٢. المكتبة الثقافية.
- (٧) - عبد الحق فاضل: مغامرات لغوية، ص ١٤٢. دار العلم للملايين. بيروت.
- (٨) - الموسوعة البريطانية، طبعة ١٩٦٢ تحت مادة Phoenicia.
- (٩) - الأصل بالهروف اليونانية.
- (١٠) - الثقافة العربية أسبق، ص ٣٩.
- (١١) - الدكتور إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، ص ١٩٦. مكتبة الأنجلو المصرية.
- (١٢) - طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص ٢٨ - ٢٩.
- (١٣) - عن كتاب:
- W.B. Lockwood, A Panorama of Indo-European Languages. p. 13, Hutchinson University Library-London, 1972.
- (١٤) - الكرمللي: المصدر السابق، ص ١٢٧.
- (١٥) - جورج سارتون: تاريخ العلم، ج ١ ص ٨٢. دار المعارف بمصر ١٩٥٧.
- (١٦) - الدكتور حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، ص ٥٩.
- (١٧) - تاريخ العلم، ج ١ ص ٣٢٥ - ٣٢٦.
- (١٨) - آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ٢ ص ٤٦. ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريده.
- (١٩) - طه باقر: المصدر السابق، ص ٢٧٩.
- (٢٠) - ينظر في هذا كتاب الدكتور أحمد سوسة «العرب واليهود في التأريخ»، ص ٧٤. وكذلك

كتاب الدكتور حتي (سورية) الطبعة الإنكليزية ص ٥٢، الذي استقى منه الدكتور سوسة هذه المعلومات.

(٢١) - الكشيون: اسم مشتق، كما يظن، من كلمة «كشو» المجهولة الأصل، تعني القوة واليأس، ولعلها مأخوذة من الإله القومي للكشيين، ولا يعرف أصل هؤلاء القوم الذين استوطنوا مدينة بابل في الفترة (١٥٩٥ - ١١٦٥ ق. م). ومن آثارهم تل عقرقوف. أما موطنهم الذي نزحوا منه فيرجح أنه كان في موضع ما في أواسط جبال زاغروس «بين العراق وإيران». ويظن أن حكام الكشيين (أي الطبقة الأرستقراطية) كانوا من أصل هندي - أوروبي. ينظر في هذا الكتاب طه باقر أنف الذكر، ص ٤٤٦.

(٢٢) - طه باقر: المصدر السابق، ص ٢٨٤.

(٢٣) - جبر ضومط: فلسفة اللغة العربية وتطورها. طبعة المقتطف والمقظم بمصر، سنة ١٩٢٩.

(٢٤) - لسان العرب، وقد نقلتها عن أطروحة الدكتور حاشم الطعان، طبعة رونيرو، ص ١١٦.

(٢٥) - بشأن هذه اللفظة السومرية يراجع كتاب الدكتور فوزي رشيد: قواعد اللغة السومرية، ص ٣٩.

(٢٦) - الدكتور إبراهيم السامرائي: دراسات في اللغة، ص ١٤٧. مطبعة العاني - بغداد، سنة ١٩٦١.

(٢٧) - المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٢٨) - المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٢٩) - الدكتور علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة، الطبعة السابعة، ص ١٢٢.

(٣٠) - الدكتور إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٣١) - مغامرات لغوية، ص ٢٣٥ وماتلاها.

(٣٢) - عن كتاب «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية»، للدكتور ناصر الدين أسد، ص ٤٣. دار المعارف بمصر، سنة ١٩٥٥.

(٣٣) - تاريخ العلم، الترجمة العربية، ج ١ ص ٤٤٤.

(٣٤) - الدكتور إبراهيم أنيس: أسرار اللغة، ص ١٢٣.

(٣٥) - الحضارات السامية القديمة، موسكاتي، ص ٣٤٠، ترجمة الدكتور سيد يعقوب بكر. هامش المترجم.

(٣٦) - المصدر السابق، ص ٣٨١.

(٣٧) - ملحة لكلامش، ترجمة وتقديم طه باقر، ص ٧٧، الطبعة الثانية، بغداد.

(٣٨) - ينظر في هذا كتاب طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص ٢٢.

(٣٩) - ينظر في هذا كتاب الدكتور حسن ظا، الساميون ولغاتهم، ص ٣٤.

(٤٠) - موسكاتي: الحضارات السامية، هامش المترجم الدكتور سيد يعقوب بكر، ص ٣٠٤.

نظريات متضاربة حول لغات متقاربة

كان العالم الألماني شلوتسر^(١) Schlozer أول من أطلق تسمية «اللغات السامية» على عدد من اللغات التي تنتمي الى عائلة واحدة في المنطقة العربية والحبشة. وقد اشتق التسمية من اسم «سام» في التوراة، وهو أحد أبناء نوح الثلاثة: سام، وحام، ويافث. وتشتمل مجموعة اللغات السامية على الفروع الآتية:

- (١) - الأكديّة بلهجاتها البابليّة والآشوريّة.
- (٢) - الكنعانيّة وفروعها: الأوغاريتيّة، والفينيقيّة، والعبريّة، إلخ.
- (٣) - الآراميّة وفروعها.
- (٤) - العربيّة بفرعيها الجنوبي والشمالي.
- (٥) - الحبشيّة. وقد اكتشفت في السبعينات من قرننا لغة ساميّة أخرى، هي لغة «ايبلا» في سورية (قرب حلب)، وهي قريبة من الأكديّة.

ويُعتقد أن العالم اللغوي الألماني ليرسيوس Lepsius (١٨١٠ - ١٨٨٤) كان أول من أطلق تسمية «اللغات الحامية» على مجموعة اللغات التي ينطق بها أقوام في شمال وشرق أفريقيا، كاللغات البربريّة، واللغة المصريّة القديمة (الفرعونيّة ومن ثم القبطيّة)، واللغة التشاديّة،

والكوشيتية، الخ. ولوحظ منذ القرن الماضي أن هناك قواسم مشتركة واضحة بين اللغات السامية واللغات الحامية، فأطلقت تسمية «اللغات السامية - الحامية» على المجموعتين المشتركتين في عدد من السمات اللغوية.

وفي منتصف قرننا الحالي توصل عدد من العلماء الى أن العائلة الإفريقية الحامية من هذه المجموعة المشتركة لا تشكل فرعاً «حامياً» متميزاً بالمقارنة مع الفرع «السامي» الآسيوي (أو الذي يعتبر من أصل آسيوي: الجزيرة العربية).

فقد اتضح أن اللغات الحامية ليست عائلة متماسكة، بل عبارة عن مجموعات مستقلة من عائلة لغوية (أو عائلة كبرى)، تعتبر فيها كل مجموعة إفريقية في مرتبة مستقلة أشبه بفرع الساميات المتميز والمستقل. وترى المدرسة السوفيتية (سابقاً) أو الروسية (حالياً) أن من غير الصحيح والحالة هذه استعمال مصطلح «السامية - الحامية»، لعدم وجود كيان لغوي حام موحد في مقابل الكيان اللغوي السامي الموحد.

لكن المصطلح لا يزال يستعمل في الغرب، رغم أن هناك قبولاً للمصطلح الذي تقدم به العالم الروسي أيغور دياكانوف في السبعينات من قرننا، وهو «اللغات الأفرآسيوية» (أي نصف إفريقية - نصف آسيوية)، كبديل لتسمية «السامية - الحامية». وقبل ذلك، في الخمسينات، اقترح العالم الأميركي غرينبرغ J. Greenberg تسمية «أفرو - آسيوية»، لكن المصطلح لم يلق قبولاً لأنه فضفاض في مدلوله.

وفي ضوء تصنيفات دياكانوف، تشتمل مجموعة اللغات السامية - الحامية أو الأفرآسيوية، حسب تسميتها، على ستة فروع، هي:

- (١) - السامية.
- (٢) - الليبية - البربرية.
- (٣) - المصرية القديمة (التي انقرضت في حدود القرن السابع عشر الميلادي).
- (٤) - التشادية.
- (٥) - الكوشيتية.
- (٦) - الأوموطية (في غرب الحبشة).

وتجدر الإشارة الى أن تاريخ القرابة بين هذه المجاميع أقدم مما هو عليه الحال بين فروع مجموعة اللغات الهندية - الأوروبية. ونحن من جهتنا سنستعمل التسمية الدارجة، وهي مجموعة اللغات السامية - الحامية، لأن البديل الذي اقترحه دياكانوف - المشار اليه أعلاه - لم يعتمد على نطاق عام.

والآن، ماهو الوطن الأول للأقوام الناطقة باللغات السامية - الحامية؟ من أين انطلقوا، وانتشروا في البقعة الجغرافية الممتدة بين أواسط آسيا شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً، وبين تنزانيا جنوباً الى السنغال، وبين نيجيريا وجزيرة مالطا في البحر المتوسط.

هناك فرضية تدعى بالفرضية الاريترية، تذهب الى أن الموطن الأول للأقوام الناطقة باللغات السامية - الحامية كان على جانبي البحر الأحمر.

إلا أن هذه الفرضية لم تلق قبولاً بين عدد كبير من علماء اللغة، لأن أقدم صيغة للغات السامية - الحامية كانت تشتمل على مجموعة من اللهجات متقاربة جداً في نظامها الصوتي والصرفي، وفي مفرداتها،

بحيث يبدو من المتعذر نشوء أو ظهور هذه اللهجات القريبة جداً فيما بينها، على طرفي بحر، هو البحر الأحمر، كحاجز طبيعي بين الجانبين. وبالمقابل طرح ايغور دياكانوف، في العام ١٩٧٥، فرضية أخرى حول أصل هذه اللغات (السامية - الحامية) التي يسميها افراسيوية، كما سبقت الإشارة الى ذلك. في فرضيته هذه يقترح دياناكوف جنوب شرقي الصحراء الكبرى في افريقيا (بين تبيستي ودارفور) موطناً أول لهذه اللغات، وهي منطقة كانت لاتزال في العصر الحجري الوسيط غير صالحة للإقامة الى حد ما في معظم ارجائها.

ويقول دياكانوف أنه إذا لم تكن اللغة المصرية (القديمة) واللغة التشادية طورتا نظاماً لتصريف الأفعال، فعلينا أن نقر بالحقيقة القائلة، أن الناطقين بالمصرية - القديمة - كانوا أول من انفصل عن النواة الأساسية لمجموعة اللغات السامية - الحامية، قبل الألف الثامن ق . م. في البدء استقر بهم المقام في أعلى وادي النيل، ثم تحركوا الى أسفل وادي النيل في مصر. وفي حدود تلك المرحلة تقريباً - ربما قبلها قليلاً، أو بعدها بقليل - لابد أن يكون الناطقون باللغة التشادية الأم تحركوا باتجاه الجنوب، ثم اختلطوا بالجنس الزنجي. وبعد ذلك أيضاً تحرك الناطقون باللغة الأوموطية (لغة غربي الحبشة) الى الجنوب الشرقي. وفي مرحلة الانتقال من العصر الحجري الوسيط الى العصر الحجري الحديث (ليس بعد الألف السابع ق . م) هاجر الناطقون باللهجات الكوشيتية الأم الى الشرق.

ولما كان انقسام اللهجات في اللغات السامية الأم، التي كان استقر بها المقام في الجزيرة العربية قد تم تحديده بصورة نهائية في الفترة

المحصورة بين الألف الخامس ومنتصف الألف الرابع ق . م فمن المعقول أن نفترض أن الناطقين باللغة السامية الأم انفصلوا عن الليبية - البربرية الأم في فترة ترجع الى العصر الحجري الحديث (بين الألفين السادس والخامس ق .م) ولعل ذلك كان نتيجة للتغيرات المناخية في نهاية العصر الحجري الحديث والانتقال الى مرحلة أكثر جفافاً، الى جانب استنزاف المراعي الصحراوية على يد القبائل الرعوية القديمة. فرحلت القبائل الناطقة باللغة السامية باتجاه الشمال الشرقي عابرة وادي النيل، الذي مازال غير صالح في هذه المرحلة للاستيطان (حيث كان جزء من وادي النيل عبارة عن خليج بحري، وجزء آخر منه مستنقعاً يمتد الى أعلى الوادي. لذا، فإن الطريق الأكثر احتمالاً للهجرة كان وادي حمامات وما يدعى اليوم بالصحراء شرقي السويس، وأبعد نحو الشمال الشرقي). ثم انتشروا في الشرق الأوسط وفي الوقت نفسه اتجهت القبائل الليبية - الغوانشية في الاتجاه المعاكس. حتى شاطئ الأطلسي وجزر الكناري، وربما أيضاً الى شبه جزيرة ايبيريا (اسبانيا والبرتغال)، ذلك أن سكان ايبيريا القدماء كانوا يعتبرون من حيث انتمائهم اللغوي ينتسبون الى الفرع الليبي - البربري، وقد تعزز هذا الرأي الى حد كبير عن طريق النصوص الايبيرية.

لكن هناك نظرية أخرى (روسية أيضاً) حول الوطن الأم للغات السامية - الحامية، تقدم بها أ. يو. مليتاروف، تذهب الى أن المواطن الأصلية لهذه اللغات كانت في الشرق الأوسط وفي الجزيرة العربية. فلقد تجمع لدى مليتاروف مزيد من الأدلة تدعمها بيانات أثرية وتاريخية تقدم بها شنيرلمان V. Shnerelman، دعتهما الى الاعتقاد بأن الناطقين

باللغات السامية - الحامية هم النطوفيون من سكان فلسطين - سورية في أوائل العصر الحجري الحديث. وقد استند مليتاروف في نظريته هذه الى بعض السمات اللغوية المشتركة Isoglosses ، بين اللغات العربية - الجنوبية والكوشيتية (الافريقية) التي لا وجود لها في اللغات السامية - الاثيوبية. وبصدد الإشارة غير المباشرة الى الشرق الأوسط كمنطقة لتطور لهجات شتى من السامية - الحامية (أي ليس فقط السامية)، وجود مفردات لغوية مشتركة عن طريق الاحتكاك بين فروع منفصلة من السامية - الحامية، كاللغة الكوشيتية، والتشادية، واللبية - البربرية، وربما باستثناء المصرية (القديمة)، مع بعض اللغات غير السامية - الحامية من المنطقة نفسها (الشرق الأوسط)، كاللغات القفقاسية الشمالية، والسومرية.

أما المنطقة التي عبر منها بعض الأقوام من الناطقين باللغات السامية - الحامية من آسيا - طبقاً لهذه النظرية - الى افريقيا، فيفترض إنها مضيق باب المندب، فضلاً عن صحراء سيناء. لكن يفترض دياكانوف يناقش هذا الاحتمال في قوله: إن قوة التيارات المندفعة بين البحر الأحمر والمحيط الهندي، كما هو الحال عليه الآن، لا تبدو عاملاً مشجعاً على عبور المضيق بالوسائل الملاحية البدائية التي تعود الى تلك المرحلة (العصر الحجري الوسيط - أوائل العصر الحجري الحديث). لكن هناك شكاً قليلاً في أن مضيق باب المندب في المراحل القديمة كان أضيق بكثير مما هو عليه الآن (بسبب الدورة الجليدية الأخيرة التي ينخفض فيها منسوب المياه في البحار والمحيطات).

وفيفترض أن سبب الهجرة يعود الى الجفاف، كما هو الحال في

الفرضية الأولى: في هذه الحالة، جفاف الجزيرة العربية في المرحلة الممتدة بين الألف السادس - الألف الرابع ق.م.

ومن بين مآخذ دياكانوف على هذه النظرية أنها تتطلب تاريخاً متأخراً جداً لانفصال الفروع السامية - الحامية عن بعضها البعض. فإذا كانت بقيت في المنطقة نفسها (آسيا الأمامية والجزيرة العربية) حتى الألف الرابع، فإن عدد السمات اللغوية المشتركة بينها ينبغي أن يكون أكثر بكثير بالقياس إلى ما طرحه بليتاروف.

مع ذلك، ربما تبسّدوا لنا هذه النظرية أمّتين من أن ترفض بمثل هذه السهولة، ذلك أن الشرق الأوسط يصلح أكثر من غيره أن يكون وطناً أولاً للأقوام السامية - الحامية الأولى، لأنه كان - أيضاً - الموطن الأول للماعز والخراف والحبوب (الحنطة والشعير)، وهي موارد الرزق الأساسية للأقوام السامية - الحامية الرعوية. ومن الشرق الأوسط انتقلت الماعز والخراف والحبوب إلى بقية أنحاء العالم، بما في ذلك إفريقيا.

وهناك نظرية ثالثة حول الوطن الأم للغات السامية - الحامية، وهذه تندرج في إطار ما يدعى بالنظرية النوستيرية Nostratic، وتعني «لغاتنا». وتستند النظرية النوستيرية إلى وجود جذور أولى مشتركة بين المجموعات اللغوية الست الآتية:

الهندية - الأوروبية، والكارتثيلية (الفقاسية)، والدرافيدية (في الهند، كاللغة التاميلية)، والاورالية، والالطائية (اللغات التركية و المغولية، الخ)، والسامية - الحامية. وكان أبرز المدافعين عن هذه النظرية، اللغوي السوفيّاتي (سابقاً) ايليتش - سفيتش (١٩٧١). ويعتقد أن هذه اللغة النوستيرية الأم، هي نفسها كانت لغة إنسان

(كرومانيون) صاحب الرسومات الشهيرة في كهوف كرومانيون بفرنسا) الذي يرقى تأريخه الى ٢٥ ألف سنة. وقد لاحظ بعض العلماء أن القبائليين (من البربر الحاليين)، والغوانشة، وجيران المصريين القدماء (الليبيين الشرقيين) يحتفظون بالسماط الانثروبولوجية نفسها لانسان كرومانيون أكثر بكثير من معظم الشعوب التاريخية الأخرى. ومن جهة أخرى يرى علماء الانثروبولوجيا أن أجداد الكرومانيين لابد أن يكونوا في الشرق الأدنى، لأنه المكان الوحيد الذي توفرت فيه بينات أثرية حتى الآن عن الإنسان الذي يمثل مرحلة انتقالية بين النياندرتال، وانسان الكرومانيون (علماً بأن انسان نياندرتال عاش بين مائة ألف سنة وثلاثين ألف سنة خلت، وأن الشرق الأوسط كان مسرحاً لهذا الصنف من الأناسي ولصنف انسان كرومانيون الذي يشبهنا).

والهم أن هذه النظرية تطرح مسألة العلاقة بين اللغات السامية - الحامية واللغات الأخرى المشار إليها أعلاه، نعني المجموعات اللغوية الخمس. فبعض العلماء يرى أن هذه العلاقة لابد أن يكون مسرحها الشرق الأوسط (الذي يمكن أن يكون في الوقت نفسه الوطن الأقدم للأقوام السامية - الحامية)، وآسيا الصغرى. بل أن علماء آخرين (وعلى وجه الخصوص غامكريلدزه وايفانوف) يعتقدون أن الأقوام الهندية - الأوروبية يعودون في جذورهم الى هذه المنطقة وما يجاورها.

وبهذا الصدد يشار الى أن الأصوات أو الحروف الزردومية في اللغات السامية والحامية الأم ترجع الى حدود الألف العاشر ق . م. وتقدم لنا الاحصاءات اللغوية المقارنة دليلاً على أن الناطقين بهذه اللغات كانوا قادرين على عزق التربة بالعصي لأجل بذور الحبوب. إلا

أن المعلومات الآثارية والتاريخية تشير على ما يبدو الى أن ظهور المزارعين الذين استعملوا المعزقة والمنجل لزراعة بعض أنواع الحبوب المدجنة (غير البرية) في سفوح التلال في الشرق الأوسط وآسيا الصغرى لا ينبغي ارجاع تأريخه الى ما قبل الألفين التاسع - والثامن ق . م. وينبغي الإشارة أيضاً الى أن القارة الافريقية، على عكس الشرق الأوسط، لم يتم مسحها حتى الآن بما فيه الكفاية. وفي هذه الحالة يجب فحص البيانات الآثارية واللغوية (الحروف الزردومية) أيضاً. ومن المحتمل، أيضاً، أن الاتصال بين أوروبا وشمال افريقية في أثناء مرحلة فورم Wurm الجليدية (التي انتهت قبل عشرة آلاف سنة)، والانخفاض الكبير في منسوب البحر المتوسط كان ممكناً عبر مضيقي تونس وجبل طارق.

ونتيجة البحث اتضح لدى العالم فرونزارولي (في الأعوام ١٩٦٤ - ١٩٦٩) أن المفردات السامية المشتركة تقدم دليلاً على أن الناطقين بالسامية الأم كانوا في أواخر العصر الحجري الحديث (الألف السادس - الألف الخامس ق . م) مربى ماشية (غنم وبقرة) لكنهم لم يكونوا بدوا. وإن مقارنة أخرى بين السامية الأم وبين اللغات الكوشيتية المرممة تظهر أن انفصال القبائل الكوشيتية حدث في أواخر العصر الحجري الوسيط (ليس بعد الألف الثامن ق . م). في ضوء هذا، وحسب رأي ايغور دياكانوف، ينبغي تحديد تأريخ المجموعة اللغوية السامية - الحامية في العصر الحجري الوسيط.

الموامش

(١) - لقد سبقه لايبنتز في هذه التسمية.

نظريتان حول نشوء اللغة

مع أن الفلاسفة لم يألوا جهداً في الحديث عن اللغة منذ عرفت الفلسفة إلا أن معظم ما بتنا نعرفه عن اللغة ظهر في العقود الثلاثة الأخيرة. واليوم ثمة وجهتا نظر تتعلقان بنشوء اللغة: الأولى تعتبرها سمة فريدة عند البشر، وظاهرة نشأت كتطور جانبي في دماغنا الذي ازداد حجماً. وفي هذه الحالة، يُنظر إلى اللغة كظاهرة نشأت بسرعة وفي مرحلة حديثة. أما وجهة النظر الثانية فتري أن اللغة المحكية نشأت في سياق الانتخاب الطبيعي عبر القدرات المعرفية للأجداد غير البشريين. وفي هذا الإطار المتواصل، نشأت اللغة بصورة تدريجية في عصر ما قبل التاريخ البشري، ابتداءً من ظهور أجناس الهومو Homo «الكائن البشري».

ويعتبر العالم اللغوي نعوم تشومسكي أبرز القائلين بالرأي الأول، وكان تأثيره كبيراً في هذا الصدد. فعند أنصار تشومسكي، الذين يمثلون الغالبية بين علماء اللغة، ليس هناك ما يشجعنا على البحث عن دليل على الأهلية اللغوية المبكرة في تاريخ الإنسان، وأقل من ذلك في البحث عنه عند القرود. ونتيجة لذلك تعرض الذين حاولوا تعليم القرود بعض أشكال التواصل، إلى عدااء سافر. وهي حملة لا تنم عن ديموقراطية في المنهج العلمي، لأن الحقيقة لا يمكن احتكارها.

لكن الرأي القائل بفرادة اللغة البشرية بدأ يتعرض من جهته الى الطعون في الآونة الأخيرة، مع أن المعركة لم تهدأ ولم يحسم النقاش بشأنها. فمع اعتراف العالمة السايكولوجية كاثلين جيسون بأن النظرية التشومسكية علمية في فرضياتها ونقاشها، إلا أنها تنسجم تماماً مع التقليد الفلسفي الغربي الذي يرجع تاريخه الى سفر التكوين في التوراة وكتابات أفلاطون وأرسطو، والذي يذهب الى أن العقل والسلوك البشريين يختلفان نوعياً عما هما عند الحيوانات. وفي إطار هذه الفلسفة ضجَّ الأدب الانثروبولوجي بكتابات عن السلوك المتميز للكائن البشري، مثل صنع الأدوات، والقدرة على استعمال الرموز، والتعرف على النفس بواسطة المرآة، واللغة بطبيعة الحال. لكن هذا الجدار من الفردة، على حد قول ريتشارد ليكي، العالم المتخصص بأصل الجنس البشري، أخذ ينهار منذ الستينات، بعد أن اكتُشف أن القردة تستطيع صنع الأدوات، واستعمال الرموز، والتعرف على نفسها في المرآة. اللغة المحكية وحدها بقيت حجر الزاوية. وبهذا بقي اللغويون آخر المدافعين عن الفردة البشرية.

ويعترف ريتشارد ليكي بأن اللغة تخلق، بالفعل، شقاً بين «الإنسان العاقل» Homo Sapiens وبقية الحيوانات .. لكنه يؤكد في الوقت نفسه على أن القدرة على اجترار أصوات أو فونيمات^(١) متميزة، إنما هي متطورة قليلاً فقط عن مقدرة القردة العليا: فنحن لدينا خمسون فونيمة، والقرد الأعلى لديه أكثر من العشرة بقليل. ومع ذلك، ان استعمالنا هذه الأصوات لاحتاد له من الناحية الفعلية. فبالوسع ترتيبها وإعادة ترتيبها لتزود الإنسان الاعتيادي بقاموس من زهاء مئة ألف

مفردة، ومن هذه المفردات يمكن تشكيل ما لانهاية له من الجمل.
لكن كيف نشأت اللغة في المقام الأول؟ استناداً الى وجهة النظر
التشومسكية، ليس ثمة ما يدعونا للتفكير في الانتخاب الطبيعي
كمصدر لها، لأنها مصادفة تاريخية. يقول تشومسكي: «ليست لدينا
فكرة، في الوقت الحالي، كيف أن القوانين الفيزيائية تعمل عندما توضع
عشرة مرفوعة للأس عشرة من النيورونات في جهاز حجمه بحجم كرة
السلة، تحت الظروف الخاصة التي تشبه ظروف تطور الإنسان». أما
ريتشارد ليكي فيقول: «على غرار ستيفن بنكر Steven Pinker أنا
أرفض هذه المقولة. فستيفن بنكر يؤكد على أن تشومسكي سار بالاتجاه
المعكوس. ذلك أن الأرجح أن يزداد الدماغ حجماً كنتيجة لتطور اللغة،
وليس العكس». ويقول: إن دقة العمل السلوكي في مجموعة الدارات
الكهربائية الدقيقة في الدماغ هي المسؤولة عن نشوء اللغة، وليس
حجم، وشكل، وتجميع النيورونات بصورة هائلة». وفي كتاب صدر في
العام ١٩٩٤ قدم بنكر أدلة في صالح الأساس الجيني للغة المحكية التي
تدعم النظرية القائلة بتطورها وفق الانتخاب الطبيعي.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ماهي الحوافز للانتخاب الطبيعي
الذي أدى الى نشوء اللغة المحكية؟ والجواب على ذلك أنه لم يتم بين
عشيرة وضحاها. وإن الحافز كان ممارسة حياة الصيد وجني القوت، وهي
وسيلة للحصول على الطعام أكثر جرأة ومغامرة من أساليب القردة.
ونتيجة لتعقد نمط حياة البشر، ازدادت الحاجة الى التنسيق الاجتماعي
والاقتصادي أيضاً. وهذا تطلب تطوير القدرات النطقية من أجل تطوير
إمكانات التواصل. كنتيجة لذلك، فإن الخزين الأساسي من الأصوات

القردية: اللهات، والصراخ، والنخير، الخ، توسع، وإن تعابيرها أصبحت أكثر مغزى.

وتتطور وسيلة الحياة القائمة على صيد الطرائد وجني القوت، تطورت التكنولوجيا. وترجع البداية الى أقدم أجناس الإنسان Homo، أي الى ما قبل مليوني سنة، ثم بلغت القمة خلال المئتي ألف سنة الماضية. وترافق ذلك مع ازدياد حجم دماغ الإنسان ثلاث مرات. وهذا يعود بنا الى موضوعه «الإنسان صانع الأدوات» ذات البعد الدارويني. لكن تفسيراً تطورياً آخر طرح في الساحة في هذه الأيام، شعاره «الإنسان حيوان اجتماعي» أكثر من صانع أدوات. فلئن كانت اللغة، استناداً الى هذه النظرية، نشأت كوسيلة من وسائل التواصل الاجتماعي فإن دورها في تطور التواصل البشري في مرحلة الصيد وجني القوت كان عاملاً ثانوياً وليس أساسياً.

على أية حال لا يزال السؤال عن عمر اللغة مطروحاً على بساط البحث. هل يرجع تاريخها الى مرحلة قديمة، ثم تطورت بصورة تدريجية بطيئة؟ أم أنها نشأت حديثاً وعلى حين فجأة؟ لاشك في أن هذا السؤال له بعد فلسفي يتوقف على طريقة تفكيرنا أيضاً ومعتقداتنا.

يميل العديد من علماء الانثروبولوجيا في هذه الأيام الى الاعتقاد بالأصل الحديث، السريع، للغة، وذلك بسبب التغير المفاجيء في سلوك الإنسان في أواخر العصر الحجري القديم. فقبل عقد من السنين قدّم راندال وايت، عالم الآثار في جامعة نيويورك، رسالة علمية استفزازية تذهب الى أن ثمة أدلة على «الغياب التام لأي شيء ينم عن اللغة، عند البشر قبل مئة ألف سنة. ثم تمكنت الجماعات البشرية من اتقان اللغة

قبل ٣٥ ألف سنة. ويطرح راندال وايت سبعة أدلة أركيولوجية (آثارية) لدعم وجهة نظره، هي: أولاً، دفن الموتى المتعمد، الذي بدأ بصورة مؤكدة تقريباً في أيام انسان نياندرتال (بين مئة ألف - ٣٠ ألف سنة خلت)، لكنه تحسن فقط، مع اشتماله على مواد تدفن مع الميت، في أواخر العصر الحجري القديم (في حدود ٣٥ ألف سنة خلت). ثانياً، التعبير الفني، الذي يشتمل على صنع الصور، وتزيين الجسد، ولم يبدأ هذا إلا في أواخر العصر الحجري القديم. ثالثاً، في أواخر العصر الحجري القديم حدث تسارع مفاجئ في الابتكارات التكنولوجية والتحولت الثقافية. رابعاً، للمرة الأولى ظهرت الفوارق المكانية (نسبة الى منطقة) في الثقافة، وهو تعبير عن الحدود الاجتماعية وحصيلة لها. خامساً، هناك بيانات على الصلات بين الجماعات البشرية التي تعيش في مناطق متباعدة، على شكل بضائع تجارية غريبة. سادساً، ازدياد حجم المستوطنات، ولا بد أن الحاجة الى اللغة تكون ضرورية لمثل هذا المستوى من التخطيط والتنسيق. سابعاً، تحول التكنولوجيا من الاستعمال الدائم للحجر ليشمل أيضاً مواد خاماً أخرى، كالعظام، والقرون، والطين، مما يشير الى تطور في التحكم بالبيئة الطبيعية، ويصعب تصويره بغياب اللغة.

وهكذا يرى راندال وايت، وانشروبولوجيون آخرون، من أمثال لويس بنفورد، وريتشارد كلاين، أن اللغة المحكية كانت وراء ظهور هذه البدايات السبع. ولا يرى لويس بنفورد أي دليل على التخطيط والقدرة على توقع وتنظيم أحداث المستقبل بين البشر السابقين للإنسان المعاصر. وعنده أن الحافز الأساسي لذلك كان «اللغة، وعلى وجه الخصوص

الترميز، الذي يجعل التجريد شيئاً ممكناً» كما يقول. ويتفق معه كلاين تماماً، وذلك في ضوء بيّنات أركيولوجية من جنوب أفريقيا عن زيادة مفاجئة حديثة نسبياً في مهارات الصيد. ويرى أن ذلك تم نتيجة لتطور دماغ الإنسان الحديث، بما في ذلك الإمكانيات اللغوية.

لكن هذا الرأي ليس سائداً على نحو طاع في الأوساط الأنثروبولوجية. فدين فالك مثلاً يرى خلاف ذلك، ويؤيد النظرية القائلة بتطور اللغة منذ مراحل أقدم: «إذا لم تكن الكائنات البشرية تستعمل اللغة على نحو تدريجي، فإني أتساءل ترى ماذا كانت تفعل بادمغتها المتزايدة الحجم بفعل الحفز الذاتي؟».

لكن مما يدعو للأسف أن الكلمات لاتتحجر. إذن كيف يستطيع علماء الأنثروبولوجيا حل هذه المسألة؟ يبدو أن الدليل غير المباشر - الأدوات التي صنعها أجدادنا والتغير في بنيتهم التشريحية - من شأنه أن يقدم حكايات أخرى عن تاريخ تطورنا.

في ضوء الدراسات الحديثة جداً لاحظ العلماء أن المناطق المسؤولة عن اللغة في الدماغ أكثر تعقيداً بكثير مما كان العلماء يعتقدون. لقد اتضح أن هناك مناطق عدة مسؤولة عن اللغة، موزعة في أماكن عدة في الدماغ البشري. فإذا كان بوسعنا تشخيص هذه المراكز عند أجدادنا، فسنكون في وضع أفضل في تحديد عمر اللغة. لكن الدليل التشريحي لأدمغة الكائنات البشرية المنقرضة موجود فقط في الكفافات السطحية، وأن المتحجرات لاتقدم معلومات عن التركيب الداخلي للدماغ. لكن من حسن الحظ، أن أحد معالم الدماغ التي لها صلة ما باللغة وباستعمال الأدوات يمكن مشاهدتها على سطح الدماغ. إنها منطقة بروكا Broca:

نتوء بارز بالقرب من الصدغ الأيسر (عند معظم الناس). فإذا وجدنا دليلاً على وجود منطقة بروكا في جماجم بشرية متحجرة، فستكون تلك بيّنة، ولكن غير أكيدة، على وجود القابلية اللغوية. وهناك دليل آخر، هو الفرق في الحجم بين الجانبين الأيسر والأيمن للدماغ عند البشر المعاصرين. فلدى معظم الناس، نرى النصف الأيسر من الدماغ أكبر من الأيمن. ولهذا اللاتناظر صلة أيضاً بفاعلية اليدين اليمنى واليسرى. فتسعون في المئة من الناس أيمنون (يستعملون اليد اليمنى) وهذا يأتي دليلاً أيضاً على أن القدرة اللغوية والنشاط البدوي الأيمن يرتبطان بالجانب الأيسر، الأكبر من الدماغ.

وقد فحص رالف هولواي شكل الدماغ في الجمجمة المرقمة ١٤٧٠ والتي تعود للكائن البشري المدعو بالإنسان الحاذق Homo Habilis التي عثر عليها شرقي بحيرة توركانا في العام ١٩٧٢، وتوصل الى أن عمرها يرقى الى مليون سنة تقريباً. ولم يلاحظ وجود بقعة بروكا في داخل الجمجمة فحسب، بل لمس أيضاً لا تناظراً طفيفاً في الجانبين الأيسر - الأيمن من الدماغ، كدليل على أن الإنسان الحاذق (الذي يرقى الى مليوني سنة) كان يتواصل بأكثر من ذخيرة اللهاث والصراخ والنخير عند الشمبانزي المعاصر. واقترح رالف هولواي في ضوء ذلك أن مسار هذا التطور ربما بدأ عند الكائن المسمى اوسترالوثييكوس (بالحرف الواحد يعني قرد الجنوب) الذي يرجع عمره الى ٢ - ٣ ملايين سنة خلت. لكن ريتشارد ليكي يخالفه في هذا العمق الزمني، فهو يميل الى الاعتقاد بأن شكلاً ما من اللغة المحكية بدأ مع ظهور الإنسان الحاذق Homo Habilis الذي يرقى تاريخه الى نحو مليوني سنة. ويرى ليكي،

مثل بكرتون Bickerton أن هذه اللغة كانت أشبه باللغة البدائية، بسيطة في محتواها وتركيبها، لكنها وسيلة للتواصل تفوق ما لدى القردة والاولسترالوثيكوس.

إن القدرة على اجتراح مدى واسع من الأصوات عند البشر تعود الى أن موضع صندوق الحبال الصوتية (Larynx) يقع في أسفل الحنجرة، وبذا يصبح التجويف الذي يحتوي على الحبال الصوتية صندوقاً صوتياً كبيراً. واستناداً الى دراسات جيفري ليتمان من مستشفى جبل سيناء في نيويورك، وفيليب ليبرمان من جامعة براون، وادموند كريلن من جامعة ييل، إن توسع البلعوم - عند البشر - هو المفتاح لاجتراح الكلام الواضح تماماً. وهذه الظاهرة تختلف كثيراً عند جميع اللبائن باستثناء الإنسان. ففي جميع هذه الحيوانات نجد صندوق الحبال الصوتية (Lar-ynx) في أعلى الحنجرة، ليتيح للحيوان أن يتنفس ويشرب في وقت معاً. ونتيجة لذلك يصبح مدى الأصوات محدوداً في التجويف البلعومي عند الحيوانات. لذلك يعتمد معظم اللبائن على شكل التجويف الحلقي والشفيتين للتحكم بالأصوات الصادرة عن صندوق الحبال الصوتية. أما لدى الإنسان، فمع أن وجود صندوق الحبال الصوتية في أسفل الحنجرة يمكنه من إصدار مدى أوسع من الأصوات، إلا أنه لا يمكنه من التنفس والشرب في آن واحد.

لكن الأطفال من بني الإنسان يولدون وصندوق الحبال الصوتية في أعلى الحنجرة، مثل بقية اللبائن، ليكون بوسعهم والحالة هذه التنفس والشرب في آن واحد، كما يفعلون عند الرضاعة. وبعد حوالي ١٥ شهراً يبدأ البلعوم بالتحرك الى أسفل الحنجرة، ويصل مرحلة البلوغ عندما

يصبح عمر الطفل حوالي ١٤ سنة. وهكذا لاحظ العلماء أنهم إذا استطاعوا تحديد موضع صندوق الحبال الصوتية في حناجر الأجناس البشرية القديمة، فقد يكون بوسعهم التوصل الى معلومات عن قدرتهم على النطق واللغة. لكن هذا الأمر ليس سهلاً، لأن الجهاز الصوتي يتألف من ألياف لينة لا تتحجر. مع ذلك فإن الجماجم القديمة تقدم لنا مفتاحاً مهماً لحل هذا اللغز. ويكمن هذا في قعر الجمجمة. فقعر جماجم اللبانن مسطح على العموم. أما عند الإنسان فهو مقعر على نحو متميز. وهذا يمكن معرفته في الجماجم المتحجرة.

بعد دراسة لعدد من المتحجرات البشرية، توصل ليتمان الى أن قعر جمجمة الكائن ما قبل البشري المدعو. أوسترالوثييكوس مسطح. وهو في هذه السمة، الى جانب سمات أخرى، يشبه القردة. من هنا لابد أن التواصل بين جنس الأوسترالوثييكوس كان محدوداً، كما هي الحال مع القردة. وتوصل ليتمان الى أن أقدم تأريخ للحصول على جماجم مقعرة القعر هو ٣٠٠ - ٤٠٠ ألف سنة خلت، وهو أقدم أثر لإنساننا العاقل Homo Sapiens. فهل يعني هذا أن الإنسان العاقل القديم الذي ظهر قبل تطور إنساننا الحالي، كانت لديه لغة حديثة تامة التطور؟ يبدو أن الأمر ليس كذلك، بل أن التغير في شكل قعر الجمجمة يمكن تلمسه في أقدم نموذج من الإنسان المنتصب القامة Homo Erectus، وبالذات في الجمجمة المرقمة ٣٧٣٣ من شمالي كينيا التي يرجع تاريخها الى مليوني سنة تقريباً. واستناداً الى هذه الحقيقة كانت لدى الكائن المنتصب القامة، هذا، القدرة على اجترار أصوات لينة Voewls معينة، كما في كلمات مثل Feet, Father, Boot، واستناداً الى حسابات ليتمان، فإن موضع

صندوق الحبال الصوتية (Larynx) لدى أقدم نماذج الإنسان المنتصب القامة يماثل ما لدى الإنسان المعاصر بعمر ست سنوات. ومن أسف أن المعلومات تخذلنا عن الإنسان الحاذق Homo Habilis (وهو أقدم من الإنسان المنتصب القامة) لعدم توافر جمجمة كاملة من هذا الإنسان. لكن هذا لا يمنعنا، كما يرى ريتشارد ليكي، من القول أن بدايات النطق ظهرت عند بواكير نماذج الكائنات البشرية Homo قبل مليوني سنة. لكننا سنواجه مفارقة في سياق تطور الكائن البشري. فإذا سلمنا بصحة هذه الظاهرة بالقياس إلى تقعر قعر الجمجمة فإن إنسان نياندرتال ربما كان يملك قدرات نطقية أضعف من الإنسان الذين سبقوه في دنيا التطور، لأن قعر جمجمته كان أقل تقعراً حتى من الإنسان المنتصب القامة السابق له بمرحلة طويلة. فهل تراجع إنسان نياندرتال في سلم التطور؟ (في واقع الحال تصور بعض علماء الأنثروبولوجيا أن سبب انقراض هذا الكائن البشري يعود إلى ضعف قدراته اللغوية) .. لكن الطبيعة لم تقدم لنا نماذج من التراجع التطوري. لذا يتعين علينا أن نجد الحل في تشريح جمجمة ووجه إنسان نياندرتال، فلعلنا نقف على سر هذا التسطح النسبي في قعرها. ويبدو أن الجواب يكمن في طبيعة البيئة التي عاش فيها إنسان نياندرتال. فنتيجة للتكيف مع المناخ البارد القارس (المرحلة الجليدية) نتأ وسط وجه إنسان نياندرتال إلى الأمام بدرجة غير اعتيادية، وتسبب عنه وجود ممرات أنفية كبيرة، لיתاح فيها للهواء المتجمد أن يذفأ وتتكثف الرطوبة المستنشقة في أثناء التنفس. ولعل هذه العملية أثرت في شكل قاعدة الجمجمة من دون إضعاف

قدراته الكلامية الى درجة ملموسة. لكن علماء الانثروبولوجيا لا يزالون في خلاف حول هذه المسألة.

يبدو على أية حال أن الدليل التشريحي يشير الى ظهور مبكر للغة، ثم تطورت فيما بعد. لكن الأدلة الأركيولوجية عن تكنولوجيا صناعة الأدوات والتعبير الفني تقدم لنا صورة أخرى.

مع أن اللغة لا تتحجر، كما أسلفنا، وبالتالي لا تظهر بصورة مباشرة في أعمال الحفريات، إلا أن مخلفات يدي الإنسان بوسعها أن تقدم لنا معلومات عن اللغة. وبعبارة أخرى، هل بوسع الأدوات الصخرية (الحجارة التي نجرتها يد الإنسان القديم) أن تقدم لنا معلومات عن وسائل التفاهم اللغوي بين صانعيها؟.

تلك كانت مهمة غلين آيزك عندما طُلب منه أن يقدم رسالة عن أصل وطبيعة اللغة في أكاديمية نيويورك للعلوم في العام ١٩٧٦. فدرس صناعة الأدوات الصخرية منذ بداياتها التي ترقى الى أكثر من مليوني سنة الى أواخر العصر الحجري القديم (قبل ٣٥ ألف سنة). ونتيجة البحث الإركيولوجي توصل الى أن فرض عامل النظام كان بطيئاً في تاريخ الإنسان القديم. فقد كانت الأدوات في المرحلة الواقعة بين ٥, ٢ - ١, ٤ مليون سنة خلت نفعية في طبيعتها. كان صانعو الأدوات، على ما يبدو، يهتمهم بالأساس إنتاج رقائق حادة من دون الاهتمام بشكلها. وإن ما يدعى بالأدوات القلبية، كالكاشطات، والمفرمات أو الساطوريات، والقرصيات، كانت نتاجات جانبية لهذه العملية. وحتى الأدوات التي كانت تصنع في المرحلة الآشولية (التي انتهت قبل حوالي رُبع مليون سنة) فإنها تعكس حداً أدنى من الاعتناء

بالشكل. ولعل الفأس اليدوية الحجرية المشابهة لشكل الدمعة كانت تنم عن اهتمام شكلي ما. ومنذ حوالي ربع مليون سنة صنع البشر القدامى، بمن فيهم انسان نياندرتال، أدوات من رقائق مُعدة، وقد شُخص زهاء ستين نوعاً منها. لكن هذه الأصناف بقيت من دون تغيّر الى حوالي ٢٠ ألف سنة قبل الزمن الحاضر.

ولم نلمس تجديداً في هذه الصناعة إلا في حضارات أواخر العصر الحجري القديم (قبل ٣٥ ألف سنة). ليس ذلك فحسب، بل أن التقدم في هذه الصناعة بات يتسارع، وبحسب بألاف السنين بدلاً من عشرات أو مئات الآلاف. وقد عزا غلين آيزك هذا التطور في الصناعة التكنولوجية الى عامل اللغة المحكية. توصل الى أن ثورة أواخر العصر الحجري القديم هذه، تعتبر منعطفاً أساسياً في هذا المسار التطوري. ويتفق معه معظم علماء الانثروبولوجيا في هذا الاستنتاج، على رغم وجود فوارق في الآراء حول مستوى اللغة المحكية التي كانت وسيلة تفاهم صانعي الأدوات القديمة، إن وجدت.

لكننا إذا احتكنا الى العامل التكنولوجي فقط من البحث الاركيولوجي، سيكون بوسعنا أن نتصور أن تاريخ اللغة يرجع الى بداية مبكرة، ثم تطورت بصورة بطيئة في غضون معظم تاريخ الإنسان القديم، وبعد ذلك قفزت على نحو انفجاري في الأزمنة الحديثة نسبياً. أما السجل الاركيولوجي للتعبير الفني عند الإنسان القديم، فلا يقدم معلومات بمثل هذا العمق الزمني، وبالتالي لايسمح بمثل هذه الآراء التوفيقية. فلقد ظهر الرسم والحفر على الصخر في الملاجىء والكهوف فجأة قبل حوالي ٣٥ ألف سنة. أما الأدلة على وجود أعمال فنية أسبق،

مثل عصي المغرة والخطوط المحفورة على العظام، فنادرة في أفضل الأحوال ومشكوك فيها في أسوأها. فإذا أخذ التعبير الفني كمؤشر وحيد على اللغة المحكية، على نحو ما يرى العالم الاسترالي ايان دافيدسون، فإن اللغة حديثة العهد حقاً. «إن رسم صورة تشبه أشياء وأشكالاً في الطبيعة لا يمكن أن يتم في مرحلة ما قبل التاريخ إلا في مجتمعات لديها نظام مشترك للتفاهم». هذا ما يقوله دافيدسون في رسالة علمية حديثة كتبها بالاشتراك مع وليم نوبل، زميله في جامعة نيو انغلاند (استراليا). ولا شك في أن «النظام المشترك للتفاهم، لا يتم إلا بواسطة اللغة. وهذا يعني أن دافيدسون ونوبل يذهبان الى أن التعبير الفني كان واسطة تطورت من خلالها اللغة المرجعية Referential، وليس أن ابتكار الفن كان ممكناً عن طريق اللغة. أي أن الفن كان سابقاً للغة، أو على الأقل وُجد بمحاذاتها، ومن ثم، أن ظهور بواكير الفن في السجل الأركيولوجي يشير الى أول ظهور للغة المحكية المرجعية.

هكذا يتضح لنا أن النظريات حول طبيعة وزمن تطور لغة البشر مختلفة كما ينبغي الحال. الأمر الذي يعني أن الدليل، أو شيئاً منه، لم يتم تبيينه بصورة صحيحة. وفي آذار (مارس) ١٩٩٠ عقد مؤتمر مهم بمبادرة من مؤسسة Wenner - Gren للبحوث الأنثروبولوجية، عنوانه «الأدوات، واللغة، والمعرفة في مسيرة الإنسان التطورية». وقد وصفت كاثلين جيسون، إحدى المشرفات على المؤتمر، الوضع بما يلي: «مادام الذكاء الاجتماعي عند الإنسان، وصنع الأدوات، واللغة، كلها تعتمد على النمو الكمي في حجم الدماغ ... فلا يمكن أن ينبع شيء على حين فجأة جاهزاً على غرار ولادة منيرفا من رأس زيوس (الإله الإغريقي).

لابد، بالمقابل، أن يكون كل من هذه الفعاليات الذهنية تطور، كحجم الدماغ، تدريجاً. وبما أن هذه المؤهلات متفاعلة فيما بينها، لم يكن بوسع أي منها أن يبلغ المستوى المعاصر من التعقيد بصورة منفصلة».*

* كانت هذه الكلمة قراءة في كتاب ريتشارد ليكي (أصل الجنس البشري).

الهوامش

(١) - الفونيمة (Phoneme) : إحدى وحدات الكلام الصغرى التي تساعد على تمييز نطق لفظة ما عن نطق لفظة أخرى في لغة أو لهجة، مثل الـ P في Pin والـ F في Fin هما فونيمتان مختلفتان - عن قاموس المورد.

البحث عند أصل كلمة «اللغة»

مما يلفت الانتباه أن كلمة «اللغة» العربية لا قرين لها في اللغات السامية الأخرى. فهل اندثرت في هذه اللغات وبقيت في العربية وحدها، أم أن العربية اجتاحتها في مرحلة متأخرة، أو استعارتها من لغة أخرى؟. مع هذا فقد لاحظ اللغويون أن الكلمات التي تدل على معنى (تكلم) هي من أكثر المفردات التي تتغير وتبلى بسرعة. لهذا لن نتوقع أن نجد كلمة مشتركة تفيد معنى الكلام في معظم المجموعات اللغوية إلا نادراً. ولكثرة تغير هذه الكلمات، ربما بات من الصعب تحديد عمر بعضها. وتنهض هنا مشكلتنا مع كلمة «اللغة» العربية على سبيل المثال. وما مدى عراققتها؟ وهل لها صلة بقرينتها اليونانية (Lego) التي تفيد معنى (تكلم)؟.

يرى الأستاذ عبد الحق فاضل أن كلمة (لغو) العربية بمعناها الكلامي صارت في الإغريقية (Legos) بمعنى (الكلمة)، ومن (اللغة) صاغ اللاتين كلمة (Lingua) بمعنى اللغة والإنسان^(١). فهل ندّ رأيه هذا عن عصبية قومية، أم ماذا؟.

لكن فلنستشر القواميس العربية أولاً. جاء في (تاج العروس) للزبيدي: قال ابن سيده: «اللغة اللسن». وقال غيره: «وهو الكلام

المصطلح عليه بين كل قبيل». ولغا لغواً، تكلم. ومنه الحديث: «من قال في الجمعة صه فقد لغا» أي تكلم. ولغا لغواً: خاب. وبه فسر ابن شميل حديث الجمعة. واللغة واللغى، كالفتى، السقط وما لا يعتد به من كلام. وقال القالي: «اللغا واللغو صوت الطائر، وكذلك كل صوت مختلط». أما اللغة في الأكديّة فهي لشانو (وتعني لسان أيضاً)، وبالعبريّة لشون، وبالآرامية ليشونو، وبالحبشية لسن. وهي كلمات تفيد، كلها، بالأصل معنى اللسان. ثم أن اللسان بالقبطية لاس، وبالسنسكريتية (ra-sana)، وبال يونانية (gloss). أما (Ilais) بلغة ويلز (السلتية) في بريطانيا فتعني صوت. ويرى غزنيوس في معجمه لمفردات الكلمات العبرية في التوراة أن الفكرة الأساسية لتسمية اللسان جاءت من اللعق، ويمكن تلمسها في المقطع (las)، ويقابله بالعبرية لحس، لس. كما أن «لسم» تعني: ذاق. واللقلق بالعربية لسان أيضاً. وكلمة (lakiel) الأرمنية تعني: يلحق.

والآن، فلنعد إلى كلمة (لغة). يقول الدكتور حسن ظاظا: «والغريب في لفظة (لغة) أنها لم ترد مستعملة في كلام عربي يعتد به، وإنما كانت العرب تسمي مجرد الضوضاء التي لا طائل من ورائها لغواً، وجاء من ذلك الفعل الغى، يلغي، بمعنى أبطل، أي اعتبر ذلك لغواً، ولذلك فقد اختلف في اشتقاقها، وحرار بعض الأعراب في جمعها»^(٢). ويقول أيضاً «.. فالعرب الخالص لم يكونوا يستعملون كلمة لغة في كلامهم، وإنما كغيرهم من الأمم السامية، بل كأكثر أمم الدنيا، يستعملون كلمة لسان للدلالة على اللغة، وهكذا يضطرد الأمر في القرآن الكريم»^(٣). ثم يخلص من هذا قائلاً: «وإننا ونحن لانجد شاهداً

واحداً على استعمال العرب لكلمة لغة بهذا المعنى الذي نعينه، ونظراً لما بدا من اضطراب اللغويين في اشتقاقها، وتردد الأعراب في ضبط جمعها، لنميل الى القول بأنها من أصل يوناني هو كلمة لوغوس (Logos) التي معناها الأصلي (كلمة) و (كلام). وذكر المختصون من استعملاتها في اليونانية: الوحي، والحكم، أو الحكمة، أو المثل، أو الأمثال، أو القصة، أو المقالة، أو القضية المنطقية، أو التعريف، أو التفكير... الخ وكل هذا كما نرى يحوم حول التعبير اللفظي عن الفكر» (٤).

لكن الفعل الذي يفيد معنى «تكلم» باليونانية لم يكن عريقاً بهذه اللغة. ففي إغريقية هوميروس كان الفعل (agorevein) يستعمل بمثابة (تكلم). وهذه المادة تستعمل اليوم بمعنى يخطب بصيغة (agorevo)، وهي من مادة (قرأ) التي سنتطرق إليها في مناسبة أخرى. وكانت كلمة (loqui) اللاتينية تعني (تكلم)، ويقول فنديرس أن هذا الفعل قد مات أيضاً، فهو قديم. لكنه، هو نفسه، كان تجديداً في اللاتينية (أو الإيطالية السلتية) في معنى «يتكلم». أما اللغة باللاتينية فيقال لها (lingua)، والكلمة بعبارة أدق تعني «لسان، لغة». ومنها جاءت كلمة (langue) الفرنسية، وكلمة (language) الانكليزية. وأما اللغة باليونانية فيقال لها (glassa)، ومنها جاءت كلمة (gloss) الانكليزية، وتعني (تعليق، تفسير خاطيء، شرح أو تفسير لنص كتاب)، ومثلها كلمة (glossary).

أما كلمة (logos) اليونانية فتعني (كلمة، كلام، وحي، فكرة، حكاية، قصة، مثل، حكمة، نشر، سبب، علاقة، نسبة، حساب، نقاش،

حوار، الخ). وهي من الفعل (legein)، وتعني (يختار، يتكلم، يفصح).
وتقابلها باللاتينية كلمة (legere) (يجمع، يجني، يختار، يقرأ، يتلو).
وها نحن، أخيراً، نقف على سر هذه المادة، على ما يبدو. فالمعنى
الأول للفعل اليوناني (legein) هو (يختار)، والمعنى الأول لمقابلته
اللاتيني (legere) هو (يجمع). وهذان المعنيان يذكراننا بكلمة (لقط)
العربية، ومثلها بالعبرية، والآرامية، وبالأكدية (لاقاتو). فهل يمتّ هذان
الفعلان الأوروبيان ومادة (لقط) السامية إلى أصل واحد؟ وهناك كلمة
(لغت) العربية أيضاً، وهي: الصوت والجلبة. يقال سمعت لغت القوم.
واللغت: أصوات مبهمّة لا تفهم. وهي قريبة هنا من اللغو. كما أن
(لقع)، و (لاقع) فلاناً بالكلام: غالبه به. واللقة، واللقاع، واللقاعة،
والتلقاع، والتلقاعة: الكثير الكلام. و (اللق): الكثير الكلام أيضاً. و
(اللققة): صوت اللقلق، وهي من ألفاظ المحاكاة الصوتية.

فماذا نخلص من هذا؟ ها نحن ندخل في متاهة. لكننا لا نريد أن
نتعصب للغتنا من دون أن نملك الحجة الدامغة لدعم تعصبنا، ونزعم أن
كلمة (logos) اليونانية مستعارة من كلمة (لغة) العربية، لأن حضارتنا
ولغتنا لم يكن لهما ذلك النفوذ أو التأثير وقت كانت الكلمة اليونانية
تستعمل في المعاني المشار إليها (منذ القرن الخامس ق. م. على
الأقل)، بل أن الاحتمال الآخر هو المرجح. ومع هذا، ما هو وجه الصلة
بين مادة (legein) اليونانية و (لقط) السامية؟ وتنهض في ذهننا أيضاً
كلمة (لغز) العربية، هل هي أصيلة أم مستعارة من (logos) اليونانية؟
تفيد المعاجم العربية أن الجذر (لغز) يعني عمى مراده واضمره على
خلاف ما أظهر. واللغز: الكلام الملبس. واللغز: حفرة يحفرها اليربوع أو

الفأر أو الضب للتعمية على ما يعترض سبيله، ليخفي مكانه بهذا الإلغاز. ويقول ابن الاعرابي: «اللغز: الحفر الملتوي»، وعلى وجه الدقة أن هذه الحيوانات تحفر الى الأسفل باستقامة أول الأمر، ثم تعدل عن يمين الحفرة وشمالها للتعمية والاختفاء. وترد الكلمة بالعين بدل الغين - أي لعز - في العبرية والسريانية في معنى قريب من هذا المعنى العربي، أي التعمية عن المراد، واللاوضوح.

وهذا يدعونا الى الاعتقاد بعدم وجود صلة بين هذه اللفظة السامية وكلمة (logos) اليونانية. ولا يبدو أيضاً أن هناك صلة بين كلمة (لغز) وكلمة (لغة). ولعل أصل مادة (اللغة) العربية يبقى غامضاً والحالة هذه.

الهوامش

- (١) - عبد الحق فاضل، مغامرات لغوية، ص ١٩٦، دار العلم للملايين، بيروت.
- (٢) - الدكتور حسن ظاظا، اللسان والإنسان، ص ١٣٢. دار المعارف، سنة ١٩٧١.
- (٣) - نفسه، ص ١٣٠.
- (٤) - نفسه، ص ١٣١ - ١٣٢.

العربية ليست لغة هندية أوروبية

رداً على أطروحات الدكتور لويس عوض اللغوية

لم أكن أرغب في أن أكون في عداد منتقدي كتاب الدكتور لويس عوض «مقدمة في فقه اللغة العربية» لولا أنني وجدت فيه أحكاماً جزافية لا يمكن السكوت عنها، تترك المرء في ذهول كيف يمكن أن تندّ عن الدكتور عوض المعروف بمؤهلاته الأكاديمية العالية وغازة ثقافته... أحكاماً لا تناسب إطلاقاً في مستواها «الأكاديمي» مع الجهد الكبير الذي بُذل في تأليف الكتاب، ويتجلى هذا الجهد على نحو بَيِّن في فصول الكتاب التطبيقية في علم الصوتيات «الفونوطيقا»، واشتقاق الكلمات، وتفسير العديد من الأسماء والمفردات ذات الدلالات الدينية والتاريخية والأسطورية، وإن كان الاجتهاد في هذا الموضوع عرضة للنقاش كأى بحث في علم الاشتقاق، وعلى رغم تحفظنا على بعض تخريجاته الغريبة.

لم يكن كتاب الدكتور عوض جديداً في منهجيته، فقد سبقته محاولات عدة تعالج موضوع العلاقة بين العربية ولغات أخرى متبعة المنهج نفسه في هذا الكتاب: تأثيل أو تأصيل أو اشتقاق بعض المفردات المشتركة مع لغات أخرى (من غير السامية). وكان معظم المحاولات

السابقة في عالمنا العربي يضرب على وتر يرى أن العربية أم اللغات الأخرى، أو عدد منها على الأقل. نذكر على سبيل المثال كتاب عبد الحق فاضل «مغامرات لغوية»، وكتابه الآخر «العربية أم الألمانية». وهناك من زينت له أوهامه أن يتصور أن العربية أم الانكليزية... الخ. أما الجديد والغريب في كتاب الدكتور عوض فهو أن منطلقه جاء معاكساً تماماً لهذه الدعوى بنسبة مئة وثمانين درجة. فهو يرى أن اللغة العربية فرع من شجرة اللغات الهندية الأوروبية. جاء في الصفحتين ٤٠ و ٤١ من كتابه «مقدمة في فقه اللغة العربية» (الطبعة الثانية ١٩٩٣، عن دار سينا للنشر، القاهرة) «وقد انتهيت من أبحاثي في فقه اللغة العربية الى أن اللغة العربية هي أحد فروع الشجرة التي خرجت منها اللغات الهندية الأوروبية. وإذا نحن اعتبرنا العربية نموذجاً لبقية اللغات السامية فإن ما يسمونه مجموعة اللغات السامية هو أحد الفروع الرئيسية التي خرجت من هذه الشجرة ثم تفرعت الى فروع ثانوية كانت العربية أحدها».

وليس ذلك فحسب، بل أن مجموعة اللغات الهندية الأوروبية هي أم للغات أخرى، كالسومرية والحدورية، كما يزعم الدكتور في الفصل الأول من كتابه الذي يضح بمعلومات تاريخية ولغوية عجيبة لا أدري كيف أنعتها. فمن المعروف أن اللغة السومرية لاتشبهها لغة، قديمة أو حديثة، وهي لاتلتقي ولاتتقاطع بأي شكل من الأشكال مع مجموعة اللغات الهندية الأوروبية، ولا مع السامية - الحامية. وأن السومريين ليسوا هنوداً أوروبيين، بإجماع معظم الباحثين. لكن الدكتور عوض يقول عن يقين، ومن دون أن يقدم دليلاً أو يذكر مرجعاً: «وقد دلت الأبحاث

التاريخية والأثرية الى أن حضارة سومر Sumer في جنوب العراق (...). كانت حضارة هندية أوروبية. فبتحليل نقوشها وجد العلماء أن اللغة السومرية لغة ميديا سكيذية Medo Scythic. هذا يشير الى هجرة بشرية خرجت في أوائل الألف الثالثة ق . م. (من) مراعي ميديا Medea في شمال إيران المتاخمة لبحر قزوين ومن مراعي سكيذيا في القوقاز، ومن مراعي سيميريا Cimmeria حول البحر الأسود. واستقرت هذه الموجات في بلاد ما بين النهرين وأعطتها لغتها الهندية الأوروبية وربما أعطتها اسم «سومر» أو «ثومر» من اسم «سيميريا القديم». (ص ٤٤).

أرأيتم الى هذا الخلط العجيب في المعلومات التاريخية واللغوية؟ فمن المعروف أن السومريين وجدوا في العراق في الألف الرابع قبل الميلاد، على أقل تقدير، هذا إذا صرفنا النظر عن الرأي القائل بأن السومريين هم امتداد للعبيديين الذين عاشوا في جنوب العراق أيضاً في الفترة ٤٥٠٠ - ٣٥٠٠ ق . م. فكيف، إذن، خرج السومريون من بحر قزوين في الألف الثالث، وهم موجودون أصلاً في وادي الرافدين قبل ذلك بألف عام على الأقل؟ وكيف يمكن اشتقاق اسمهم من السيميريين، مع أن هؤلاء الأخيرين لم يُعرفوا إلا في الألف الأول ق . م. أي بعدهم بألفي عام على الأقل؟ وهناك أمثلة أخرى على اضطراب وارتباك المعلومات التاريخية عند الدكتور عوض. جاء في الصفحة ٤٥ من الكتاب: «أما الموجات الهندية الأوروبية التي غزت العراق فكانت موجة الكاسيين Kassites (هناك اتفاق على تسميتهم بالكاشيين: التعليق من عندي، ع. ش) بين ١٥٣٠ ق . م. ونحو ١٢٠٠ ق . م. ثم موجة الميتاني Mitanni وهم الحريون (الحوريون: ع. ش.) Hurrians... الخ».

وفي الصفحة ٢٦ يقول: «وربما كان، براهما Brahma» هو الأيبو-Epo- nym القومي لموجة هندية إيرانية استقرت في أور عبر لوريستان Luri stan في إيران. ثم هاجرت الى حران في عهد الكاشيين Kassites (نحو ١٨٠٠ ق . م) لتعيش في ظل هذه الارستقراطية العسكرية التي نزلت على حران من القوقاز Caucasus أو سكيذيا Scythia وخرج منها الاشكينازي Ashkinal» .

والآن كيف نوفق بين وجود الكاشيين في العراق في الفترة ١٥٩٥ - ١١٥٧ ق . م (وهو الرقم الصحيح) وفي العام ١٨٠٠ ق . م ؟ وفي الصفحة ١٠٢ جاء أيضاً أن الكاشيين تدفقوا على العراق في حدود ٢٠٠٠ ق . م . فإيأاً من هذه التواريخ الثلاثة لوجود الكاشيين في العراق نأخذ؟ وكيف خرج الاشكينازي من القوقاز؟ وكيف أصبح الحوريون قوماً هنوداً أوروبيين، وباجماع العلماء ليسوا منهم، بل هم قوم يتكلمون لغة أخرى تدعى آسيوية، سوى أن فئة ارستقراطية صغيرة من الميتانيين - الهنود الأوروبيين - كان لها نفوذ سياسي بينهم. ولعل أقرب جماعة للحوريين، هم الأورارطيون في أرمينيا، وهؤلاء - أي الأورارطيون - ليسوا هنوداً أوروبيين، وكان بينهم وبين الآشوريين منافسة شديدة في إطار المجال الحيوي لكل منهما.

وحين يتحدث الدكتور عوض عن الموجات السامية التي دخلت العراق، لا يتطرق الى الموجة الأكديّة، وهي أقدمها، ولها حضارة عظيمة وعريقة (انظر ص ٤٥).

ولعل أغرب تخريج لنظريته «الهندية الأوروبية» زعمه أن موجات من القبائل الآسيوية المنحدرة الى الهلال الخصيب من القوقاز وما حول

بحري قزوين والأسود من الأناضول وإيران، كانت تتكلم لغة ميديية
سكيذية (أحد فروع الهندية الأوروبية)، وربما نزلت منها موجات الى
شبه الجزيرة العربية. أي أن الموجات السامية منحدرة من هذا الأصل
الميدي - السكيذي (ص ٤٦). وبما أن الميديين هم أجداد الأكراذ (وهذا
الكلام لي وليس للدكتور عوض)، فالساميون أبناء الأكراذ، إذن!
ويستدرك الدكتور فيرى إنه إذا كانت الانثروبولوجيا البشرية تصر على
جود مستقل بذاته في الهلال الخصيب وشبه الجزيرة، فلا مناص عن
افتراض أن هؤلاء «الساميين» قبلوا اللغات الهندية الأوروبية سواء من
الأساس السومري أو من القبائل القوقازية والهندية والأوروبية المتعاقبة
التي انحدرت عليهم كالكاشيين والميتانيين والفرس (ص ٤٦ - ٤٧).

صدقوني أنني كتبت غير سطر وشطبته لثلا يكون كلامي جارحاً
بحق الدكتور عوض الذي أكنّ له المزيد من الإعجاب والتقدير. لكنني
لا أدري كيف أفسر هذا الكلام الذي يرقى الى مستوى الهذيان:
الساميون إن لم يكونوا سليلي الميديين (الأكراذ) والسكيذيين، فلا
مناص من افتراض أنهم قبلوا اللغات الهندية الأوروبية من سومر، أو من
القبائل الأخرى كالكاشيين والميتانيين والفرس!

ترى كيف تم ذلك؟ هل كانت لديهم لغاتهم ثم تخلوا عنها، أم
ماذا؟ والتأريخ لم يبق لنا من لغة الكاشيين شيئاً يذكر، سوى بضعة
أسماء علم ومفردات معدودة ومحدودة جداً من أسماء آلهتهم، أما هم
فقد تبنوا اللغة البابلية وحضارة بابل (وحباً في أن لا يبدووا غرباء في
بابل غالوا في إحياء اللغة البابلية الكلاسيكية، نعني بها الأكديّة)،
وهو عكس مايقوله الدكتور. واللغة الميديّة تمت بصلّة قريى للإيرانية،

فأي جامع يجمع بينها وبين العربية؟ ونحن نتكلم هنا عن جوهر اللغة وليس المفردات المنتقلة من هذه اللغة الى تلك وبالعكس. لأن المفردات المستعارة لا تغير من الجوهر حتى لو كانت تشكل نسبة لا بأس بها في اللغة المستعيرة، كما هي الحال في كثرة المفردات العربية في اللغات الايرانية والكردية والأفغانية والأوردية والتركية، الخ، وعدد المفردات الفرنسية في الانكليزية.

وفي احتمال آخر، حسب رأي الدكتور عوض، أن اللغات السامية انحدرت من السومرية. وهذا تماماً مثل قولنا أن اللغات الرومانية (الاسبانية، البرتغالية، الفرنسية، الإيطالية، الخ) انحدرت من لغة الباسك، وهذه الأخيرة جسم غريب - لكنه عريق - مزروع في أوروبا، لأنها لا تمت بأي صلة للغات الهندية الأوروبية. وكيف فات الدكتور عوض أن السومرية لغة فريدة من نوعها، لاشبيه لها في اللغات القديمة أو الحديثة، كما سبقت الإشارة الى ذلك، في حين تُصنّف اللغات السامية كلغات صرفية. أي ليس هناك أي جامع غراماطيقي أو حتى قاسم مشترك في المفردات الأساسية، ولو في حده الأدنى، بين الساميات والسومرية. فكيف تولد الأولى من الثانية، وكيف تولد السومرية من الهندية الأوروبية، وهذه الأخيرة من اللغات الصرفية أيضاً، وليس بينها وبين السومرية أي قاسم مشترك في المفردات الأساسية، باستثناء بعض الكلمات التي تمت استعارتها نتيجة الاحتكاك أو التلاقح الحضاري (وهذا يصح أيضاً مع اللغات السامية، لكن بنسبة أكبر، وذلك بحكم التجاور والتمازج السكاني)؟.

وفي الوقت الذي يصّر الدكتور عوض على اعتبار اللغات السامية

فرعاً من اللغات الهندية الأوروبية، يقدم مرتسماً (ص ٥٠) لتفرعات هذا «الفرع» السامي، ويهمل أو ينسى اللغة الحبشية، وهي لغة سامية معروفة، لاغبار عليها، ولها أكثر من لهجة، كالامهرية والجعرية والتيفرية، الخ.

ثم كيف تستطيعون أن تهضموا مايلي: «فالعرب إذن موجة متأخرة جداً من الموجات التي نزلت على شبه الجزيرة من القوقاز والمنطقة المحيطة ببحر قزوين والبحر الأسود نحو ١٠٠٠ ق . م. أو قبيل ذلك. ولعلها لم تستقر في مكان ما في بلاد ما بين النهرين أو في الشام الكبير لأنها وجدت في هذه وتلك أقواماً أقوى منها بأساً وأعلى حضارة فنفذت الى الفراغ الكبير في شبه الجزيرة من طريق بادية الشام حاملة معها لغتها القوقازية المتفرعة من المجموعة الهندية الأوروبية»؟ (ص ٥١ - ٥٢) إن أقل ما يواجه هذه الفرضية من طعن هو:

كيف استطاع هؤلاء العرب القفقاسيون الوصول الى الصحراء في حدود ١٠٠٠ ق . م؟ كيف اجتازوا بلداناً وممالك ومسالك مأهولة، ابتداء من القفقاس، مروراً بشمال ايران، فجنوب شرق تركيا، فشمال العراق (كان الآشوريون يومذاك هناك)، فسورية. هذا مع العلم أن الآشوريين تطرقوا غير مرة في سجلات وقائعهم الى ذكر العرب ومناوشاتهم معهم أو تحالفاتهم (كما كانت الحال مع «الملكة» زيببة)، عند احتكاكهم بالعرب في تيماء ونجد منذ ٨٥٣ أو ٨٥٤ ق . م. فكيف اجتاز العرب هذه المسافات كلها قبل قرن ونصف من تاريخ احتكاكهم بالآشوريين إذا كانوا حقاً قدموا من القفقاس في حدود ١٠٠٠ ق . م.؟

حتى إذا انتقلنا الى جدول طبقات اللغة العربية (ص ٦٠)، نرى

العجب العجاب. فالتكوين السفلي للعربية (البنية الأساسية) في الألف الثالث ق . م. مجهول، لكن مع مؤثرات ميدية سكيذية من سومر، وحامية من مصر، وهورية (قوقازية هندية إيرانية)!!.

أرأيتم الى هذا القفز فوق الخرائط، من سومر الى مصر الى الحوريين. هذا على الصعيد الجغرافي، أما القفز فوق هامة التأريخ فلا يقل عن ذلك غرابة. كيف تأثرت العربية في الألف الثالث بالميدية السكيذية من سومر، مع أن الميديين لم يدخلوا العراق إلا في أوائل الألف الأول ق . م. ومع أن السكيذيين لم تطأ أرجلهم سومر في أي يوم من أيام التأريخ، وكان أول خروجهم من عتمة التاريخ الى نوره، حسب تعبير كولن رينفرو، في الألف الأول ق . م.

بعد ذلك تأتي الموجة الأولى، وترجع الى الألف الثاني ق . م (بعد ١٨٠٠ ق . م)، وهذه هكسوسية (قوقازية) تتداخل في الجدول مع الموجة الثانية (١٥٠٠ ق . م) (مع مؤثرات قوقازية هندية إيرانية من ميتاني والحثيين ومؤثرات حامية من مصر).

ولعل هذه هي المرة الأولى التي نسمع أن العربية تأثرت باللغة الحثية - المندثرة بالطبع - وهو رأي ليس غريباً من نوعه فحسب، بل يطرحه الدكتور عوض كمسلمة أو حقيقة من دون أن يقدم أي دليل عليها. ومن أين يأتيه الدليل إذا كان مستحيلاً استحالة الغول والعنقاء والخل الوفي، على حد قول الشاعر. وبعد القوس الذي يشمل المؤثرات الحثية والحامية في مصر، نجد كلمة «عربية» لاندري ماهو موقعها في التأثير على اللغة العربية! وتزداد حيرتنا حين يأتي بعدها مباشرة قوس يحتضن الكلمات الآتية: (قوقازية امتصت كل ما قبلها في شبه الجزيرة

وتأثرت بالمؤثرات التالية)، في تداخل الموجة الثانية مع الثالثة التي تمت بعد ٧٠٠ ق . م، والموجة الرابعة أيضاً بعد ٥٠٠ ق . م. حيث نجد أن المؤثرات أصبحت الآن فارسية اخمينية هندية أوروبية مع مؤثرات بابلية آشورية.

وحتى لو سلمنا جدلاً بذلك، فإن المؤثرات البابلية الآشورية ينبغي أن يكون تسلسلها التاريخي قبل الإخمينية ... لكن ما الفرق؟.

وفي الموجة الخامسة (بعد ٣٢٠ ق . م.) كانت المؤثرات يونانية سيلوسيدية (يقصد سلوقية)، وفي السادسة (بعد ٢٠٠ ق . م) أصبحت لاتينية، لتعود في الموجة السابعة (بعد ٣٠٠ م) يونانية بيزنطية وفارسية ساسانية.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا، ما المقصود بالمؤثرات؟ هل يقتصر ذلك على استعارة بعض المفردات أم يشمل البنية اللغوية والنظام الغراماطيقي؟.

من المعروف في علم اللسانيات أن اللغات التي تنتمي الى مجموعة لغوية واحدة، تشترك في جملة عناصر أساسية لا تتغير، على مر الزمن، إلا قليلاً. هذه العناصر الأساسية هي: الضمائر، الأعداد، أسماء القرابة، أعضاء الجسم، بعض المفردات الأساسية من عالم البيئة، والتي لها علاقة بحياة البشر، البنية اللغوية والصيغ النحوية الأساسية.

وناقش الدكتور عوض هذه الخصائص لكنه استثنى البنية اللغوية الغراماطقية. ولا ضير في ذلك لو كان هدفه مناقشة هذه اللغات في طورها البدائي قبل أن ينشأ مفهوم القواعد (النحو). وينبغي عند ذاك مناقشة المفردات المشتركة، والتي يفترض أنها مشتركة بين اللغات في

إطار مجموعاتها الأم، كالسامية - الحامية، والهندية الأوروبية (طبعاً مع الدخول في الفروع والتفرع). أما أن نناقش اللغة العربية مع مجموعة اللغات الهندية الأوروبية لأجل البرهنة على أنها فرع منها، فعند ذاك لا يصح إهمال الجانب الغراماطيقي، لأن من بين عناصر القرابة بين اللغات الهندية الأوروبية اشتراكها في نظام غراماطيقي يسري على جميع لغات المجموعة. فلماذا استثنيت اللغة العربية من ذلك؟ إن المفردات وحدها لا تكفي دليلاً على إثبات صلة القربى بين اللغات. ولئن صح ذلك فإن جميع لغات العالم الآن تعتبر فروعاً من مجموعة اللغات الهندية الأوروبية، لأنها استعارت العديد من المفردات الحضارية، كالراديو، والتلفزيون، والسينما، والكومبيوتر... الخ.

والآن إذا أجرينا مقارنة بين اللغة العربية (أو الساميات) واللغات الهندية الأوروبية في البنية اللغوية أو النظام الغراماطيقي، فلن نجد أن هناك أي جامع يجمع بين الطرفين. ولندخل في بعض التفاصيل:

يلاحظ في اللغات السامية أنها تشترك بصورة عامة في الجذر الثلاثي لمفرداتها. فكلمة «سلم» يتألف جذرها الصوتي من ثلاثة حروف ساكنة، هي «س ل م». أما اللغات الهندية الأوروبية فتتألف جذور كلماتها بصورة عامة من حرفين ساكنين بينهما حرف لين، مثل LAB، أو كلمة GEN، الخ. ولسنا هنا بصدد الحديث عن أصول الجذور الثلاثية في اللغات السامية التي قد تكون ثنائية، فذلك يدخل في إطار المرحلة المبكرة لنشوء اللغة أو اللغات، وهو خارج نطاق موضوعنا.

وللأفعال في اللغات السامية زمانان أساسيان، هما: الماضي، والحاضر. أما الأفعال في اللغات الهندية الأوروبية فلها صيغ زمنية

متعددة. وفي حين يتم تأنيث الاسم والصفة في اللغات السامية والحامية، في الغالب، بإضافة تاء الى المذكر، فالتأنيث في اللغات الهندية الأوروبية يتم بطرق مختلفة ومتعددة. ومصدر الكلمة في اللغات السامية هو (الفعل)، أما في اللغات الهندية الأوروبية فهو (الاسم). ومن المعروف أن جنس الأسماء في اللغات السامية والحامية يقتصر على المذكر والمؤنث فقط، لكنه في العديد من اللغات الهندية الأوروبية يشتمل على جنس ثالث أيضاً، محايد. أما تصريف الأفعال في كل من المجموعتين السامية - الحامية، والهندية الأوروبية فيختلف أيضاً. ولنأخذ مثلاً على ذلك من اللغة العربية أولاً: أن الفعل (حمل) يتم تصريفه - في الزمن الحاضر، المضارع - على النحو الآتي، كما هو معروف: احمل، تحمل، يحمل (وتحمل)، يحملان (وتحملان)، نحمل، تحملون، يحملون (استثنينا جمع المؤنث، للاختصار).

أما في اللاتينية فنرى التالي: احمل *fero* وتحمل (أنت) *fers*، يحمل *fert*، نحمل *ferimus*، تحملون *fertis*، يحملون *ferunt*. وعلى غرار ذلك تقريباً يتم تصريف الفعل نفسه في اليونانية، والسنسكريتية، والألمانية القديمة. (ولا أظننا بحاجة الى الدخول في تفاصيل ذلك).

ومن بين الخصائص النحوية الأخرى في مجموعة اللغات الهندية الأوروبية استعمال فعل الكينونة (بما يقابل *verb to be* في الانكليزية). وهذا الشيء لا وجود له في اللغات السامية، كقاعدة نحوية، بما فيها العربية. لكننا نجد لفعل الكينونة أثراً في لفظة تفيد معنى الوجود في اللغات السامية، من دون أن ينطوي على بُعد غراماطيقي. وهذا الأثر باقٍ في كلمة (أيس) العربية، وضدها (ليس). وثمة نظائر لها أو لهما في بعض اللغات السامية ...

والآن، إذا أضفنا الى ذلك كله أن هناك أصواتاً أو حروفاً في اللغة العربية (وبقية اللغات السامية بصورة عامة)، كالحاء، والعين، والقاف، والظاء، والضاد، وربما الطاء، والصاد أيضاً، الخ، لوجود لها في اللغات الهندية الأوروبية، أمكننا القول أن البنية اللغوية العربية تختلف على نحو بَيِّن عن مثيلاتها في اللغات الهندية الأوروبية. وهذا إنما يعني، بما لا يرقى اليه الشك، أن العربية ليست لغة هندية أوروبية.

من جهة أخرى، إذا القينا نظرة على المفردات النباتية والحيوانية (ذوات المدلول الايكولوجي - البيئي) في كل من المجموعتين السامية والهندية - الأوروبية لوجدنا أن موطنيهما مختلفان. على سبيل المثال أن الكلمات الدالة على الحنطة، الشعير، الدخن، العدس، التين، وبعض المفردات التي لها صلة بعالم الزراعة، مثل: الغرس، الطحن، درس الحبوب، مشتركة في اللغات السامية، الى جانب كلمة (رعى)، مما يعطينا فكرة عن طبيعة موطن الساميين الأول، الذي لم يكن غائباً في كافة الأحوال. وفي مقابل ذلك نرى أن الأشجار المشتركة بين عائلة اللغات الهندية - الأوروبية هي: الزان، البتولا، الدردار، الصنوبر، الحور الرجراج، الطقسوس، البلوط، البلوط الجبلي، الزيزفون، الصفصاف، التفاح، الكرز، الجوز، التوت، الخلدنج، الخ.

أما الحيوانات التي عرفت لها الأسماء الهندية - الأوروبية فهي: القندس، ثعلب الماء، الوعل، الخنزير البري، الثور البري، الوشق، النمر الأرقط، السرطان، نقار الخشب (طائر)، الشرشور، الأوز، البجع، النسر، سمك السلمون، سمك الحنكليس، الى جانب حيوانات أخرى مثل: الذئب، الثعلب، ابن آوى، القار، الدب، الأسد، الغراب، الخ.

وهكذا نجد أن أسماء العديد من هذه الأشجار والحيوانات غريبة عن الأقوام السامية الحامية، على الصعيدين الجغرافي واللغوي، وبالتالي فليس هناك ما يدعونا إلى القول أن الساميين انحدروا من موطن الأقوام الهندية الأوروبية الأول، الذي يقع في جنوب روسيا، أي شمال البحر الأسود، وهو ما تؤكد المعطيات الآثارية أيضاً، وتنبه دائرة المعارف البريطانية، وكذلك معجم لاروس الموسوعي الكبير (الفرنسي).

أما الضجة العربية - السومرية - الميمنية - السكيذية - الهكسوسية - الحامية، في بحث الدكتور عوض فمردّها، على مانري، يرجع إلى تمسكه بالنظرية القائلة بالأصل القفقاسي للجنس الأبيض (والأسمر)، وهي نظرية جاء بها يوهان فردريش بلومباخ في سبعينات القرن الثامن عشر، وعفى عليها الزمن الآن. ولعل محاولته الجمع والتوفيق بين هذه المتناقضات أو المتناقضات جاءت نتيجة لآيمانه الأعمى بهذه النظرية، وبهذا ناقض الدكتور عوض نفسه في قوله: «المهم ألا ندخل في هذا البحث ونحن نحمل معتقدات جاهزة قد تكون عقبة في طريقنا إلى بلوغ الحقيقة أو بعضها» (ص ١١٩).

وبعد أن يؤكد الدكتور عوض أن استعارة ألفاظ حضارية من لغة إلى أخرى، كاستعارة العرب عن اليونانية كلمات مثل ريطوريقا، وبوطيقا، واسطقس، وقاطيغوريات، لاتمثل مشكلة فيلوجية حقيقية، إنما تبدأ المشكلة، في رأيه، عندما نواجه في صلب لغة كاللغة العربية مثلاً كلمات مثل قميص، منديل، قريان، كفاءة، هجرة، حج، لغز، بئر، سدر، عرار، نرجس، جواد، حصان، مهر، قافلة، ملك، لغة، سياسة، قانون، ناموس، قائد، جند، عسكر، شرطة وألف كلمة وكلمة وردت في

اللغة العربية الكلاسيكية والأدب العربي، ثم نجد أنها ذات وشائج بكلمات يونانية ولاتينية (ص ٢٢٩).

ويتساءل متى دخلت كل هذه الألفاظ اليونانية واللاتينية (الهندية - الأوروبية) اللغة العربية السامية الأصول وكيف دخلت؟ ويطرح خمسة احتمالات يرى أن كلاً منها لا يقل خطورة عن الآخر (ثم تصبح هذه الاحتمالات ستة فيما بعد!).

وقبل أن نناقش هذه الاحتمالات الخمسة أو الستة نقول: وماذا في ذلك، مع أن لنا تحفظنا بشأن بعض المفردات التي ذكرها الدكتور، ولعلنا نناقش ذلك في مناسبة أخرى. وهناك بالفعل من الكلمات الأخرى التي دخلت الى اللغة العربية، من الآرامية، والأكدية، والحبشية، والعبرية، والفارسية، وحتى السومرية (كلمة شمندر على سبيل المثال، من شومن دارو)، الى جانب المفردات الغربية الكثيرة المعاصرة. وفي هذا إغناء للغة، أية لغة. فاللغة المغلقة على نفسها تتحجر أو تتخلف. ثم إن استعارة المفردات الأجنبية لا تؤثر في جوهر اللغة وطبيعتها، كما سبقت الإشارة الى ذلك ... وهناك ما يعادل خمسة في المئة من مفردات اللغة الاسبانية مستعارة من اللغة العربية، وأكثر من ذلك بكثير في اللغات الفارسية، والكردية، والأفغانية، والأوردية، والتركية، إلخ. ومن المعروف أن ثلث اللغة الانكليزية مستعارة من اللغة الفرنسية، بل تعدى الأمر ذلك الى بنيتها - في حالة جمع المفردة - حيث تخلت الإنكليزية عن قاعدة الجمع القديمة المنحدرة اليها من اللغات الجرمانية، واستعملت القاعدة الفرنسية في الجمع، وذلك بإضافة حرف (s) الى نهاية الكلمة (مع بعض الاستثناءات التي حافظت على الطريقة القديمة). ومع ذلك

تبقى اللغة الانكليزية لغة جرمانية في جوهرها (من اللغة الجرمانية). وما قولنا في اللغة اليونانية التي تعتبر من أعرق اللغات الهندية - الأوروبية، ومع ذلك يقول فيها مارتن برنال: «لقد توصلت الى قناعة بأن ربع المفردات اليونانية يمكن الرجوع به الى أصول سامية. وإذا أضفنا الى ذلك ٤٠ - ٥٠ في المئة من مفرداتها تبدو هندية - أوروبية، فمع ذلك يبقى ما بين ربع الى ثلث المفردات اليونانية الأخرى غامض الأصل، (عن كتابه: أثينا السوداء، ج ١، ص ١٧ من مقدمة الكتاب). وهذا إنما يعني أن حوالي نصف المفردات اليونانية ربما كان من أصل غير هندي - أوروبي. فهل يحق لنا أن نسلخ اللغة اليونانية من شجرة اللغات الهندية - الأوروبية.

والاحتمالات الستة التي يطرحها الدكتور عوض في تفسير أسباب وجود هذه الألفاظ الغربية في اللغة العربية (مما يطعن في سامية جذورها، حسب رأيه) هي:

أولاً: التشكيك بنقاوة وعراقة اللغات السامية التي تفرعت منها العربية، كأن تكون هذه الألفاظ المستعارة من الهندية - الأوروبية امتُصت من مجموعة اللغات السامية عن طريق الأكديّة من حضارة سومر (التي يعتبرها هندية - أوروبية). وهو منطق يفند نفسه بنفسه إذا علمنا أن السومرية لا علاقة لها باللغات الهندية - الأوروبية.

ثانياً: أن تكون هذه الألفاظ رواسب عن طريق الكاشيين الذين «حطموا الدولة البابلية الأولى وحكموا العراق ٥٧٦ سنة بين ١٧٥٠ و ١٧٧١ ق . م.» (ص ٢٣٠). وها هو يأتي برقم آخر لحكم الكاشيين يختلف هذه المرة عن الأرقام الثلاثة التي ذكرها سابقاً. ولانرى بأساً في

أن نعيد القول إن الكاشيين حافظوا على اللغة البابلية - كانوا فئة
ارستوقراطية حاكمة - وعنوا بتراثها الكلاسيكي، حتى لوحظ أن
النصوص البابلية في العهد الكاشي كانت تتسم بلغتها الكلاسيكية
الجزلة العريقة.

ثالثاً: أن تكون الإمبراطورية الفارسية التي استولت على العراق
أكثر من ألف عام، من عهد كورش ٥٥٩ ق . م. حتى يزدجرد الساساني
في ٦٥١ م تركت أثراً عميقة في مجموعة اللغات السامية ...
وهذا الكلام ينسف نفسه بنفسه أيضاً لأكثر من سبب، منها أن
اللغات السامية، بما في ذلك الأكديّة والآرامية وحتى العربية، وجدت في
المنطقة قبل كورش. ولا يقدم أو يؤخر في طبيعة اللغة إذا استعارت
ألفاظاً من غيرها، كما تكرر ذكره.

رابعاً: يشير إلى تأثير الإمبراطورية الهلنستية منذ الاسكندر، ثم
الرومانية، ثم البيزنطية، ودام ذلك نحو ألف سنة من ٣٣٣ ق . م. إلى
٦٢٢ ميلادية. وما قلناه في البند السابق ينسحب على هذا أيضاً.

خامساً: وهذا هو أفطع الاحتمالات التي يذكرها الدكتور عوض في
ليّ عنق الحقيقة ارادواً لتلائم وجهة نظره أو «نظريته» العجيبة. يقول:
«إذا كانت المجموعة السامية هي التي أثرت في اليونانية، وليس
العكس (حمداً لله، إذ يعترف للمرة الأولى بمجرد وجود احتمال كهذا،
لكن لن يلبث أن يجد له مخرجاً لتفنيده، حسب منطقته)، وذلك عن
طريق التغلغل الفينيقي في اليونان، لاسيما حوالي بداية الألف الأولى
ق . م كما بين العلامة فيكتور بيرار في دراسته المهمة «الفينيقيون
والأوديسا» (ص ٢٣١).

وإذا توخينا الدقة، فإن هذا التأثير - الفينيقي - يرجع الى القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق . م. على الأقل، وهما مرحلة ازدهار أوغاريت الكنعانية وتأثيرها في كريت وجزر ايجة والبر اليوناني. ولم يكن فيكتور بيرار على علم بها عند تأليفه كتابه مار الذكر، لأنها اكتشفت في العام ١٩٢٩. وكان بودنا أن نستطرد في الحديث عن بيرار لما له من أهمية بشأن التأثير السامي في الحضارة اليونانية، لكننا نخشى أن نبتعد بذلك عن موضوعنا، آملين أن نفرّد أو نكرس كلمة مستقلة لبيرار في فرصة أخرى.

ولنعد الآن الى الاحتمال الخامس، الذي يبدو أنه لايلقى هوى عند الدكتور عوض، لأنه يسبب إشكالاً لنظريته، فقام بعملية التفاف عليه. واقترح لأجل التحقق من ذلك (هذا مع أنه لم يكلف نفسه مؤونة التحقق من الاحتمالات الأخرى) حصر الكلمات المشتركة بين الساميات في هذه المرحلة (حوالي بداية الألف الأول ق . م.) واللغة اليونانية في عصرها الهومري. فإذا كانت في صلب المجموعة السامية السابقة لهذه الفترة ألفاظ مشتركة مع ألفاظ المجموعة الهندية - الأوروبية، فقد وجب افتراض أصول هندية - أوروبية لهذه الألفاظ السامية، لأنها «امتصت في الساميات نتيجة لتأثير الموجات الهندية - الأوروبية الأربع الأولى»!

يالها من مفارقة، أن يحاول باحث فرنسي (هندي - أوروبي) تقديم أدلة على أن كثيراً من المفردات اليونانية، بما في ذلك ماله صلة بأهم منجزاتهم الأدبية، نعني الأوديسة، يرجع الى أصول سامية، وينبهي باحث منا ليرفض هذه الأدلة أو يقوم بعملية التفاف عليها، وذلك كله

لأجل أن يدافع عن حصانة أو مناعة نظريته القائلة بالأصل الهندي الأوروبي للغات السامية، وهو زعم لم يذهب اليه حتى أكثر الباحثين الأوروبيين عنصرية، لأنه يجانب الصواب على نحو صارخ. والغريب أن الدكتور عوض نفسه سيتخلى عن نظريته هذه في بقية بحثه، ابتداء من الاحتمال السادس، أو هكذا يبدو لنا. ولاندري لماذا، والحالة هذه، لم يُعد النظر في آرائه السابقة في ضوء ماسيدلي به في الفصول اللاحقة.

سادساً: ينبغي القول أن الاحتمال السادس جاء بمثابة انعطافة أو صحوة عند الدكتور عوض تختلف عما جاء في صفحات الكتاب السابقة التي تلح على فرضية انتماء العربية (والساميات) الى مجموعة اللغات الهندية - الأوروبية. فهو هنا يطرح احتمال أن تكون مجموعة اللغات السامية ومجموعة اللغات الهندية الأوروبية في الأصل مجموعتين غير مستقلتين، بل مجرد فرعين من شجرة واحدة في جذورها، ربما يمتد ساقها الى ما قبل عصور الهجرات من وسط آسيا، قبل التاريخ، ولكن لماذا من وسط آسيا؟ فليس هناك ما يدعو للقول بهذا المهد لأي من المجموعتين. لكننا لسنا بصدد الدخول في هذه التفاصيل، إنما يهمنا هذا الرأي الجديد، الذي ينطوي، كما نرى، على تناقض مع أطروحته السابقة. فقوله إنهما ربما كانتا غير مستقلتين، يفهم منه أنهما كانتا مستقلتين في الاحتمالات السابقة، واستقلالهما ينفي انتماء احدهما للآخرى، وبالتحديد ينفي انتماء السامية الى الهندية - الأوروبية.

وعلى أية حال أن الاحتمال السادس ينفي أيضاً بنوة إحدى المجموعتين الى الأخرى، ويعتبرهما فرعين من أصل واحد. ليكن.

وتصبح «المشكلة الأساسية مشكلة تأثر وتأثير أو اقتراض وإعارة» (ص ٣٢٢).

لكنه يطرح هذا الاحتمال بصورة مضطربة أيضاً، وبما يورث انطباعاً بأنه لا يريد التخلي عن نظريته الهندية - الأوروبية. فهو يقول: «نجد أن عدداً عظيماً من الأفعال والأسماء والصفات الملموسة المباشرة التي يتكون منها قاموس الحياة اليومية أسماء وأفعال وصفات هندية - أوروبية (...) نجد أسماء «الأب» و «الأم» و «الابن» و «الأخ» و «الأخت» و «الأرض» و «البقرة» و «الثور» و «الجواد» و «الحصان» و «القافلة» وفئات من أسماء الحيوانات والطيور والنباتات الأساسية هندية - أوروبية. نجد أن أسماء الألوان أكثرها هندية - أوروبية. حتى «الحياة» و «الموت» و «المرض» و «العلة» و «الشيخوخة» الخ، اسمائها هندية - أوروبية». (ص ٢٣٢).

طبعاً، هذا الكلام مردود جملة وتفصيلاً، ولسنا الآن بصدد مناقشة هذه التفاصيل التي تستغرق وقتاً ومساحة، بل سنجيء ذلك إلى مناسبة أو مناسبات أخرى.

إذن هو واضح في كلامه هنا، إن هذه المفردات هندية - أوروبية. لكنه سيتراجع بعد ذلك مباشرة (ويدهشنا حقاً هذا الاضطراب في المنهج: يقر شيئاً كحقيقة مفروغ منها، ثم يستدرك بعد ذلك فيطرح تساؤلات معقولة تنقض يقينه السابق. فأى منهج هذا في البحث؟) ها هو يقول بعد ذلك «وعندئذ لا يسعنا إلا أن نسأل هذا السؤال: هل كان الآشوري أو البابلي أو العربي أو العبراني بحاجة إلى غزو الاسكندر ليتعلم أن أباه هو أبوه وأن أمه هي أمه ولكي يعد على أصابع اليدين

(اثنين) (ثلاثة) (خمسة) (ستة) (سبعة) (الخ، والعكس صحيح، فلا نحسب أن اليوناني كان بحاجة الى الفينيقي ليأخذ عنه هذه الأشياء الأساسية المتصلة بمعاشه وحياته اليومية ...» رأيتم الى هذا الاضطراب في الكلام. هل هناك داع لأن ينتظر اليوناني الفينيقي ليعيره هذه الألفاظ الأساسية، إذا كانت هي أصلاً هندية - أوروبية، كما ذكر قبل قليل؟.

وفيم هذه الحيرة كلها؟ إذا كانت هناك ألفاظ أساسية، كالتى ذكرها الدكتور عوض، مشتركة بين المجموعتين اللغويتين، فإما أن ترجع هاتان المجموعتان الى أرومة واحدة قديمة جداً، أو أن هذا التشابه في الألفاظ ربما كان بعضه مما يدعى بكلمات المحاكاة الصوتية - onomato-poeia (تسمية الأشياء أو الأفعال بحكاية أصواتها، مثل أزيز، صلصلة، الخ). وفي هذا قد تتشابه أو تتقارب مثل هذه الألفاظ في أكثر من لغة. وقد يرجع بعضها الآخر الى الاستعارة نتيجة الاحتكاك. أما إذا كان عدد هذه المفردات الأساسية المشتركة غير قليل، فالأرجح أن نعود الى القول بالاحتمال الأول (الأصل الواحد).

على أن الرأي الأخير الذي استقر عليه الدكتور عوض، بعد أن استعرض نظريتي الانتشار Diffusionism والنشوء أو الخلق التلقائي، هو أخذه بنظرية الموجات اللغوية أو السلالية التي تصبغ المجتمعات التي تتدفق عليها أو تذوب فيها. وإذا كان حلول لغة محل لغة أخرى حلولاً تاماً أمراً عسير التصور، مهما كان الغزو قوياً أو مهما توافرت للغة الغازية من عناصر الرقي الى يرفعها على اللغة المغزوة، فالأرجح دائماً أن تظهر من هذا الغزو اللغوي لغة ثالثة مركبة من اللغة الغازية واللغة المغزوة (ص ٢٣٤).

ربما كان هذا صحيحاً الى هذه الدرجة أو تلك. وتبقى هذه الفرضية نسبية وليست مطلقة. والظاهر أن الدكتور عوض حاول تطبيقها على اللغة العربية في فصول الكتاب التالية التي تشكل الجزء الأكبر منه، وكرست لمناقشة المفردات الأساسية في أبوابها الآتية: أسماء الأعداد، أسماء القرابة، أعضاء الجسم، أسماء الحيوانات، أسماء النباتات، عناصر طبيعية.

لكن منهج البحث لم يتغير، لأنه يناقش المفردة العربية في إطار علاقتها بالمفردات - المماثلة - في اللغات الهندية - الأوروبية، والمصرية القديمة فقط، ثم يطرح رأيه في ضوء هذه المناقشة. وهذا المنهج مجاني للصواب من أساسه، لأنه يعزل ويسلخ المفردة العربية عن شجرتها الأم الأصلية، ونعني بها المجموعات السامية - الحامية. وليس يكفي ذكر القرائن في اللغة المصرية القديمة وحدها، لأن هذه اللغة فرع كالعربية، وليست أصلاً (فرع من الحاميات). ثم لماذا يعود بالمفردة العربية دائماً الى المصرية القديمة إذا وجد بينها وبين نظيرتها المصرية تشابهاً؟ ألا يحتمل العكس أيضاً؟ ومعروف أن المصرية القديمة تأثرت باللغات السامية (نتيجة التدفق السامي الى مصر)، ولم تأخذ الساميات من المصرية إلا القليل، ونقاط الالتقاء العامة بين الساميات والمصرية القديمة مردها الى انتمائها جميعاً الى المجموعة السامية - الحامية.

ولنضرب مثلاً على منهجه هذا: في الفصل المخصص للأعداد يناقش الأعداد من الواحد الى العشرة في العربية فقط، وفي المصرية القديمة، وفي مجموعة اللغات الهندية الأوروبية، وكأن العربية في

أوقيانوس أو شاة ضالة عن قطيعها (وقطيعها هو اللغات السامية الحامية). فعند مناقشة العدد (٣) في هذا الإطار يتوصل الى مايلي: «فكلمة (٣) في العربية من جذر هندي أوروبي لكنها في المصرية القديمة من جذر غير هندي أوروبي» (ص ٢٣٧). وبالنسبة أن (٣) بالمصرية القديمة يقال لها: خ م ت (و). وكان من المفروض أن يناقش هذا العدد، وبقية الأعداد، في بقية اللغات السامية. فالثلاثة بالأكدية (شلاشت)، وبالأوغاريتية (ث ل ث) للمؤنث، وبالعبرانية (شلوشا)، وبالسريانية (ثلاثة)، وبالحبشية (شلاستو)، وبالعربية الجنوبية، أي اليمنية القديمة (ثلث) و (ثلث). وهذا يعني أنها أصيلة في هذه المجموعة. وإذا كانت اللفظة الدالة على الثلاثة في اللغات الهندية الأوروبية مقارنة للألفاظ السامية، وإذا صحّ مثل هذا على بعض الأعداد الأخرى، فمن المرجح أن يعني هذا، أن هناك جذوراً مشتركة بين المجموعتين السامية - الحامية والهندية الأوروبية، موهلة في القدم، كما سبقت الإشارة الى ذلك. وبالنسبة إن الكلمة الهندية الأوروبية المفترضة للعدد ثلاثة هي treyes.

ونخلص من هذا كله لنقول: على رغم الخلل في منهج البحث عند الدكتور عوض، الذي يلزم الكتاب من أوكه حتى نهايته، إلا أن الكتاب يبقى غنياً جداً في مادته، ومثيراً للاهتمام في تحليلاته واشتقاقاته اللغوية للعديد من الألفاظ والمفردات العربية ذات الدلالة التاريخية والأدبية والدينية والأسطورية بصرف النظر عن أن بعض اجتهادات المؤلف يبقى عرضة للنقاش.

ملحق

بعد أن فرغت من كتابة هذه الكلمة وقعت تحت متناول يدي مجلة «سومر» العدد (١ - ٢) لسنة ١٩٨٦، فيها كلمة بعنوان «لغة آشور في الامبراطورية الميتانية بين حوالي ١٤٥٠ - ١٣٥٠ ق . م» بقلم العلامة اللغوي الألماني فولغرام فون زودن، مؤلف القاموس الأكدي الشهير (بالألمانية). جاء في هذه الكلمة ما يؤكد اشارتنا الى أن اللغة البابلية هي التي فرضت نفسها على الميتانيين والكاشيين والخوريين، وليس العكس، على رغم أنها كانت لغة قوم محكومين، لأن الحضارة البابلية كانت متفوقة في المنطقة والعالم في تلك المرحلة ولما بعدها بألف عام. وحياً في الإيجاز سنختار بضعة مقاطع من هذه الكلمة، تؤكد عكس ماذهب اليه الدكتور عوض من أن الكاشيين والميتانيين والخوريين فرضوا لغتهم على الأكديّة (والعربية!).

جاء في كلمة فون زودن: «ويبدو أن الامبراطورية الميتانية كانت غير قادرة على تثبيت اللغة الحورية كلغة لإدارة الإمبراطورية. ولو أن اللغة الحورية هي التي كانت اللغة السائدة لسلطات ميتاني لكانت هناك وثائق ورسائل باللغة الحورية، أكثر مما وجدنا بكثير.

«إن المصادر المتوفرة لدينا لا تسمح لنا بالتوصل الى أي استنتاج

آخر سوى أن اللغة الأكديّة سادت كلغة للإدارة في تلك الامبراطورية. واعتقد أن أحد أسباب هذه الحقيقة المهمة هو عدم وجود نوع من اللغة الحورية الأدبية القياسية ...

« ... وعلى أية حال فإن لغة الإدارة المستعملة عادة في الامبراطورية (الميتانية) كانت اللغة البابلية المتأثرة بالكنعانية. لكن البابلية كانت قبل كل شيء لغة بابل، وكذلك أثناء حكم الكاشيين، لأن الكاشيين لم يحاولوا، حسب علمنا، فرض لغتهم على رعاياهم».

حول الألفاظ العربية المستعارة من الفارسية

من يتصور أن الكلمات الآتية أصلها فارسي: أيضاً، الأمة، البريد، البرهان، البستان، البط، البليد، التابل، تفه، الجاموس، الجناح، الجاه، الخنجر، الخندق، الخيار، الدبوس، الديجور، الدرب، الدستور، الدهليز، السخط، السراب، السربال، السل، الشأن، الشيء، الصدى، الصيدلاني، الطراز، العسكر، الفوغاء، الفخ، الفرو، القلعة، الكوخ، الخ، الخ...

كان السيد أدّي شير، صاحب كتاب «معجم الألفاظ الفارسية المعربة» على حق تماماً في قوله: «واعلم أن العرب قد أبتوا بعض الألفاظ الأعجمية على صورتها الأصلية، وبعضها غيروها قليلاً. وأكثرها صحفوها أقبح تصحيف، أو جعلوا فيها القلب والإبدال. ولهذا قد صار البحث في تحقيق أصل الألفاظ المعربة من أصعب وأدق المباحث اللغوية». لكن هذا ينسحب على جميع اللغات، بلا استثناء. فمن يتصور أن كلمة traffic الانكليزية مستعارة من كلمة «تفريق» العربية؟. نعم، إن مهمة البحث في أصول مفردات لغة ما من أصعب وأدق المباحث اللغوية حقاً، كما قال السيد أدّي شير، لأن الأمر لا يتوقف على إمام المحقق أو الباحث بلغة أو لغتين، بل قد يتأتى عليه أن يرجع إلى

العديد من اللغات الأجنبية عند دراسة أصول المفردات. وحتى عند البحث عن الأصول الفارسية للمفردات العربية، ليس يكفي أن يكون الباحث ملماً باللغتين الفارسية والعربية، ولا حتى في عدد من اللغات الأخرى، وهو ما كان عليه السيد أدّي شير، الذي يجيد السريانية أيضاً. فقد لاحظنا - في حدود معرفتنا - أن الكاتب فاتمه - أحياناً - أن يأخذ في الحسبان اللغتين السومرية والأكدية (البابلية) حتى في أصول الكلمات التي يحسبها فارسية التجار. وينبغي أن لا ننسى أن العربية تنتمي الى مجموعة اللغات السامية. فإذا اشتركت لفظة بين العربية والفارسية ولغة سامية أخرى أو أكثر، فأغلب الاحتمال أن اللفظة سامية الأصل، إلا إذا كانت تمت الى جذر فارسي أو هندي أوروبي. في هذه الحالة، سنرى أن عدداً من المفردات العربية التي أرجعها السيد أدّي شير الى الفارسية، لها قرائن في اللغة الأكدية، أو اللغة السومرية، اللتين كان حضورهما في المنطقة أقدم من الفارسية والعربية. فإما أن يكون الأصل أكدياً أو سامياً مشتركاً، أو سومرياً. وهذا يصدق على المفردات الآتية:

الآجر: جاء في معجم السيد أدّي شير أنه تعريب agur الفارسية، وهو تراب يُحكم عجنه وتقريصه ثم يخرق ليُبنى. ونقل عن فرانكل أن أصل اللفظة آرامي، وإنه موجود في اللغة الآشورية القديمة (لعله يقصد الآشورية).

الاسبيداج: جاء في (معجم الألفاظ الفارسية المعربة): «بياض الرصاص والآتك، تعريب سبيدانك (بالباء الفارسية p)، ومعناه الآتك الأبيض». أما الصواب فإن الكلمة سومرية، وتلفظ بهذه اللغة _ BI _ ZI

DA، أو BI_ZI_DA، وتعني (الاثمد، الانتيمون). وهو حجر يُكتحل به؛ ويلفظ باليونانية Stibi وباللاتينية Stibium ومثلها بالإنكليزية. والكلمة بالعراقية الدارجة (سبداج)، مسحوق أبيض تتجمل به النساء. البستوقة: جاء في (معجم الألفاظ الفارسية المعربة): «القُلة من الفخار، تعريب بستو». ونحن نعتقد أن الكلمة ترجع الى أصل سومري؛ ذلك أن المقطعين BI_Ush يعنيان «منتصب»، وكلمة DUG تعني قرية أو جرةً وبالتالي فإن BI_Ush_DUG تعني جرة قائمة. والبستوقة معروفة في العراق، وهي الجرة الطويلة التي يكون أعلاها وأسفلها أضيّق من وسطها، وتطلى بمادة (صبغة) زرقاء عازلة للسوائل من النضوح.

الباب: جاء في كتاب أدّي شير: «وهو معروف: فارسيته بيا، وهو بيه بالآرامية والسريانية، وبه بالعبرانية». والواقع أن اللفظة مشتركة في معظم الساميات، بما فيها العربية، على ما يبدو. فهي بالأكدية (بابو)، وبالآرامية (بابه) و (بابها).

الدف: في كتاب السيد أدّي شير: «ما يُضرب به من آلات الطرب: فارسيته دَفّ. وعندي أن الفارسي مأخوذ من الآرامي (دَفه) ويرادفه اليوناني depas ومعناه الكأس، وأما فرنكل فيقول أن الدف معرب عن الآرامي ...». ولعل هذا صحيح. لكن أصل الكلمة يرجع الى السومرية adapa، ومنها انتقلت الى الأكدية بصيغة adapu.

السراة: أعلى كل شيء وتعريب سرّ، أي الرأس والأوج. هكذا جاء في كتاب السيد أدّي شير. ونحن نعتقد أن «سراة» العربية، ومنها

«سُراة القوم»، أي سادتهم، ربما ترجع الى كلمة «شارو» الأكديّة، التي تعني «ملك». ولعل الكلمة الفارسيّة «سر»، أي الرأس، مأخوذة من الأكديّة.

السرو: فارسي، وهو شجر حسن الهيئة قويم الساق. هذا ماجاء في كتاب السيد أدّي شير. ولعل العرب استعاروا الكلمة، بالفعل، من الفارسيّة. لكن الكلمة بالسومريّة: SHUR_ME، وبالأكديّة Shurmenu، وهي مستعارة من جنوب القفقاس أو شمال فارس، حيث لا يزال السرو البري ينمو هناك. وترجع هذه التسمية الى مرحلة تسبق العصر البرونزي، أي قبل مجيء الفرس الى المنطقة. وبالتالي، فالكلمة ليست فارسيّة الأرومة.

الاسكاف: الخفاف ... وقيل إن الكلمة فارسيّة ... فيكون إذاً الاسكاف تصحيف كَفَشُكِر. هكذا جاء في كتاب السيد أدّي شير. أما الصواب فإن الكلمة سومريّة، وتلفظ بهذه اللغة ASHGAB.

الملوخية (الطولق): الطولق معرّب تُوله، وهو الملوخية، أي الخبازي. وأما الملوخية فهي معرّبة عن اليوناني molokhi، وهي طُولك بالكرديّة. انتهى كلام السيد أدّي شير. لكننا لاحظنا في معجم ر. كامپل تومپسون عن أسماء النبات الآشوريّة أن الكلمة الآشوريّة ملاختو قد تعني السبانخ. ولعل العبريّة ملاخ، وكذلك العربيّة «ملوخية»، واليونانيّة أعلاه، ترجع الى هذه الكلمة الآشوريّة. والأصل هو الكلمة السومريّة (مالاخ).

الكَركي: جاء في كتاب السيد أدّي شير: «طائر يقرب من الوز، ابتر الذنب، رمادي اللون، في خده لمعات سود، قليل اللحم، صلب

العظم، يأوي الماء أحياناً. فارسيته كركي، ويقال له بالتركية تُورنا، ويوافقه اليوناني geranos، والرومي grus، والفرنسي grue». والكركي بالأكدية (كوركو)، ولعلها سومرية الأصل. وهي بالسريانية (كوركيو). أما الغرنوق فلعله هو الكركي نفسه، أو طائر يشبهه. وهو بالأكدية أُرنيقو، وبالعبرية أرناق. ويبدو أن الكلمة الدالة على الكركي والغرنوق مشتركة أيضاً في اللغات الهندية - الأوروبية.

كعك: جاء في (معجم الألفاظ الفارسية المعربة) أن الكلمة «تعريب كاك، وهو خبز يعمل مستديراً من الدقيق والحليب والسكر، ومنه كوكة بالآرامية ويقابله Cake بالانكليزية، و Facaccia بالاطالية، و Kuchen بالجرمانية». لكنني أذكر أن الكلمة بالأكدية: كعاتو.

الأنبوب: «مابين الكعبين من القصب والرمح. ومن النبات ما بين عقدتيه ويستعار لكل أجوف مستدير كالقصب ... تعريب أنبويه، وهو المسداة (ماسورة الموك)، ويطلق أيضاً على بُلبُ الإناء والولوب ... والظاهر أن اللفظة آرامية الأصل ...». هذا ماجاء في كتاب السيد أدّي شير. أما الصواب فإن الكلمة مشتركة في اللغات السامية كلها. ولا بد أن الفارسية استعارت هذه الكلمة من البابلية.

الهالة: في كتاب السيد أدّي شير: «دائرة القمر، فارسيته هالة. مركبة من (هال) ومن هاء التخصيص. ومعنى (هال) الميول التي تنصب في طرفي الميدان المعد للعب الكرة والصولجانة. أو معربة عن اليونانية halo (فرنكل)». أما الأب روفائيل نخلة فيرى أن الهالة العربية مأخوذة من اليونانية alos. لكن المعاجم تفيد بأن الكلمة اليونانية من أصل غير معروف. والهالة بالعبرية «هله»، وبالأكدية «خيلو» وتعني: يسطع، يلمع، يفرح، يضاجع.

الوقت: المقدار من الزمان، يحتمل أن يكون مأخوذاً من وُكْتَه، أي النقطة، ومنه الكردي وَخْت. هكذا جاء في (معجم الألفاظ الفارسية المعربة). أما نحن فنشير الى احتمال آخر، هو أن الكلمة ربما كانت مأخوذة من (آكيتو) الأكديّة، وهي اسم عيد رأس السنة البابلي.

اللوبياء: جاء في (معجم الألفاظ الفارسية المعربة) « أنها تعريب لُوبية، وفيها لغات بالفارسية ... وقال فرنكل أنها مأخوذة من الآرامي (لوية)، ويقربها اليوناني lobos، أي السِّنْف». لكننا وجدنا اللوبياء في السومرية LU _ UB، وفي الأكديّة lubbu، أو luppu. فالكلمة ليست فارسية الأصل، بل سومرية.

سلسلة معاجم تعيد اللغة العربية الحياة ... والمستقبل

لعل تأليف قاموس من أشق المهام التي يأخذها مؤلف على عاتقه. فمثله في ذلك سيكون كمثّل الدكتور جونسن في قوله: «يتوق كل من يؤلف كتاباً الى المديح. أما من يصنف قاموساً فحسبه أن ينجو من اللوم». وبهذه الكلمات صدر منير البعلبكي مورده. وأحسب أن هذا لسان حال كل من يتصدى لتأليف قاموس، مع أن مصنف القاموس أخرى بالمديح من سواه من المؤلفين، لعظم الجهد الذي يبذله، وعظم الفائدة المرجوة من القاموس. ولربما، لهذا السبب وحده، أعني الفائدة المتوخاة من القاموس، يحق لنا أن نجعل مصنفي القواميس في مصاف كبار الكتاب والمؤلفين، ولا يُستثنى من بين هؤلاء هادي العلوي مؤلف القاموس الموسوعي الجديد «المعجم العربي المعاصر»، الذي يغطي عشرة مجلدات، صدر منها المجلد الأول بعنوان «قاموس الإنسان والمجتمع».

يلتقي هادي العلوي في نهجه القاموسي مع المجددين ومن يذهبون الى مزيد من المرونة في تطوير لغتنا. ودافعه في ذلك حبه للغة العربية وإيمانه بأهمية اللغة في حياتنا ومستقبلنا، انطلاقاً من أن اللغة مفتاح العلوم. وأنه يمكن القول أن مقدمته لقاموسه هذا، التي تناهز المئة

صفحة، جاءت أشبه بأطروحة، وكانت بحد ذاتها كتاباً مهماً في اللغة. وهذا المعجم، الذي يحمل اسم «المعجم العربي المعاصر»، هو معجم مخصص للغة الحديثة، أي أنه لا يصلح مرجعاً للنصوص القديمة، فمن يقرأ نصاً قديماً فليرجع الى معجم قديم، كما يقول المؤلف. وقد صُنّف هذا المعجم على الموضوعات، على طريقة ابن سيده في «المخصص»، وليس على أحرف الهجاء. ويشتمل هذا المعجم العربي المعاصر على عشرة قواميس، هي: قاموس الإنسان والمجتمع، وقاموس السياسة والاقتصاد، وقاموس المعيشة والعمران، وقاموس الفكر والثقافة، وقاموس العلوم والصناعات، وقاموس النبات والحيوان، وقاموس الفلك والجغرافيا، وقاموس الطب، وقاموس العنف والحرب، وقاموس الكليات الذي يشتمل على المفردات التي لا تبوب في قاموس معين.

عُني هذا المعجم بخاصة بلغة الاصطلاح في إطارها الفصيح والعامي (العامي إذا تعذر وجود مقابل للفصحى). وجمع مادته الاعتيادية من معاجم القدماء والمحدثين، من قاموس الفيروز ابادي، ولسان العرب، ومن محيط البستاني، ومنجد معلوف، ووسيط مجمع القاهرة. وأخذ اصطلاحاته من التهانوي، والجرجاني، والكفوي. وتوسع فحاول أن يضم اليه مفردات المعاجم الاقتصادية الأكثر معاصرة، ومصدره الأول في هذا الباب معجم المصطلحات العلمية والفنية لأحمد الخطيب، كما جاء في مقدمة الكتاب الأول لهذا المعجم.

وتطرق هذا المعجم الى لغة الترجمة، فحرص على أن يصحح «بعض الترجمات في المواد العلمية الحديثة جداً بعد أن أوردها بنصها في الكتب أو المعاجم المتخصصة...». وحرص المعجم على مراعاة المزاج

اللغوي الحديث، فاستبعد الاشتقاقات المتقكرة والمغالية في التفاصح، ورسم ألفاظ المفردات كما تعودها الناس اليوم مع التنبيه الى لفظها القديم.

واستعرض - في المقدمة - عيوب المعاجم العربية الحديثة:

١ - في التبويب، حيث تصر المعاجم الحديثة على العودة الى جذور الكلمات فتعقد مهمة من يرجع الى المعجم، وقد يتعذر عليه الوصول الى الجذر.

٢ - ومن عيوب هذه القواميس الحديثة، أيضاً، اعتماد المفردات القديمة وإهمال استعمالاتها الحديثة. وذكر أمثلة على ذلك. فالسلي في المعاجم، قديمها وحديثها، هو الولد ساعة تضعه أمه، أو الولد بإطلاق. (ولاشك في أنه مشتق من الجذر «سل» أو «استل»). أما المعنى المعاصر فالمنحدر من سلالة، كأن يُقال فلان سليل بني كذا

...

٣ - التمسك بالأصول الصرفية، المبنية غالباً على السماع لا القياس، في ايراد المشتقات وصيغ الجموع. فالمعاجم تجمع «الساق» على «سوق»، وتتجنب «سيقان» مع أن «سوق» تلتبس مع كلمة السوق، أي المكان الذي يتبضع منه الناس.

٤ - تزمت القواميس في التزام القواعد الصرفية والنحوية، وعدم مراعاة المزاج اللغوي أو تجنب الالتباس. على سبيل المثال قولهم «خلايا بشرية»، في حين يقتضي القول «خلايا البشرة».

ويقول المؤلف في مقدمته: «إننا الأمة الوحيدة الممنوعة من استعمال لغتها لتلبية الحاجات المستجدة والمتواردة على جميع الأمم

يوميّاً لأن اللغويين حرموا علينا القياس والاشتقاق والمجاز والنحت والتركيب ... ولاحقوا الكتاب والباحثين بالتخطئة والتلحين فألجأوهم إلى المفردات الأجنبية فراراً من الملاحقة». ويُثني على بعض قرارات مجمع اللغة العربية في القاهرة التي فتحت ثغرة في الحصار المضروب على لغتنا، لكنها ثغرة صغيرة، لأن المجمع بقي على حذره حتى في ما أباحه من القياس والنحت.

ويعارس «المعجم العربي المعاصر» مزيداً من الحرية في الاشتقاقات، ويتوسع فيها، أو يتبنى أمثلة قديمة مهملة لأنها لم تكن قياسية، مثل صيغة «مفعول» من «أفعل»، التي يفضل اللغويون عليه صيغة «مُفعل». فهو يبيح «مغلق» إلى جانب «مُغلق»، وقد وردت في شعر أبي الأسود الدؤلي (في أوائل العصر الإسلامي):

ولا أقول لقدّر الحيّ قد غليت

ولا أقول لباب الدار مغلق

وبالفعل، إن «محبوب» أسلس من «مُحَبّ» التي يُصر عليها

اللغويون.

وتبنّى النسبة إلى الجمع، ناهجاً بذلك نهج العلامة الراحل مصطفى جواد، الذي دافع عنها بحماس، وأقرها مجمع القاهرة بتحفظ. لكننا، على رغم فتاوى مجمع القاهرة والمجمعي اللامع مصطفى جواد، نقرأ في الصحف «طالبي» بدلاً من «طلابي» خضوعاً لنزوة لغوي يريد أن يزايد على زملائه في أسرار اللغة، كما يقول هادي العلوي. وفي هذا الإطار، يفضل «دساتيري» على «دستوري»، و«أمي» على «أمي». وهناك حكاية «الدؤلي»، و«الدؤلي»، ولكل منهما معناه.

ويستنكر لماذا يتجاهل اللغويون عرب الإسلام وعربيتهم، مع أنهم أصبح عقولاً من عرب الجاهلية بحكم النمو الثقافي الهائل والنهضة الشاملة في العلوم والمعارف. «ومن المنطقي والمعقول أن نتخذهم مراجع في اللغة كما اتخذنا الجاهليين». ويشير الى أن الإسلاميين قصّروا في استعمال البواديء - في اللغة - تحت ضغط اللغويين وتحريمهم النحت والتركيب لكنهم استعملوا بادئة النفي، كما في قولهم، «لا أدري»، و «اللاوجود» ... أما اليوم فبفضل الترجمة، كثرت البواديء في اللغة العربية، لكنها لاتزال دون أن تفي بالحاجة.

ويشير الى تردد اللغويين في تلفظ المركبات، ومنها المؤلفة من بواديء. فالناس يلفظون «برمائي» بسكون الراء، وهكذا جرى اللفظ بعامة، مع أن اللغويين يشترطون تغيير حركة «الراء» مع الاعراب ... ومن طريف قوله (في المقدمة): «ونأمل من اللغويين أن يوافقوا على اعتبار القرآن مرجعاً في اللغة، كالشعر الجاهلي»، وهو ما يعني أن لغتنا العربية - ماتزال في مرحلتها الجاهلية.

ولقد قرأت بإعجاب اشتقاقات معظم المفردات الواردة في الكتاب الأول من هذا المعجم. وحرك بعض هذه الاشتقاقات عندي الرغبة في مناقشتها. وسأبدأ بكلمة Abyssal الانكليزية التي وردت خطأ - ربما مطبعياً - بالصورة الآتية Abbyssal، وهي من بين الكلمات التي يوردها المؤلف كمثال على الاصطلاح الأجنبي الذي يترجم عندنا الى عبارة. وترُجمت هذه الكلمة في قواميسنا الى عبارة «لا يُسبر غوره». والعلوي يفضل الكلمة الواحدة على العبارة، قدر الإمكان، وهو محق. وفي هذه الحالة فضّل كلمة «الغوري»، لكنه يستدرك أيضاً ويقول: «الكلمة من

أصل مصري يفيد الهاوية والغور. والمعنى الحرفي لصيغتها هنا هو (الغوري)، مالم ترجع الى الأصل فتقول أبيسي، لأن الكلمة مصرية». وحديث الاشتقاق أو جذور الكلمات ذو شجون حقاً، وقد يتعذر أو يصعب القطع فيه أحياناً. فإذا رجعنا الى المعاجم الانجليزية، نراها برمتها تقريباً ترجع بكلمة Abyss الى Abussos اليونانية، وتعني هذه «لاقعر له، لايسبر غوره». لكنني قرأت في هامش الصفحة ٢٢٠ من كتاب «ملحمة جلجامش»، ترجمة طه باقر (الطبعة الرابعة، بغداد، ١٩٨٠)، أن كلمة Abyss التي تفيد معنى اللج، أو العماء، ترجع الى كلمة Apsu، أو Absu الأكديّة، والأبسو بالأكديّة المياه العذبة، أو هاوية مغمورة بالماء المحيط بالأرض. ولعلها، كما يقول جون الليغرو، من ZU AB _، وهذه من AB _ ZU السومرية، وتعني (محيط، بمعنى أوقيانوس).

وجاء أن كلمة «أبوة: نعم، عامية معاصرة مركبة من أي والله تبعاً لتخريج أنيس فريحة أو من أوه السامية القديمة». وأني أتساءل إن كانت ترجع الى كلمة Evet التركية، التي تعني «أبوة»، أي نعم. وقرأت في الصفحة ١٦٢ أن «واوا: حكاية صوت الألم عند الطفل في سورية الطبيعية، وفي العراقية أوك». وهناك قصيدة سومرية (تنويعه طفل)، على لسان أمه، عنوانها «أوا - آوا»، فهل هي أصل اللفظتين السورية والعراقية؟

وجاء في الصفحة ٢١٥، وكذلك في الصفحة ٢٥٠ أن «مُلاً بضم الميم وتشديد اللام، تحريف مولى، لقب لرجال الدين والمثقفين، ظهرت في العصر العباسي الأخير». لكنني لاحظت أن كلمة Mu - lu السومرية

تعني «سيد، رجل حر»، واستعملت بمعنى «مرتّل المزامير»، وهي المقابل لكلمة «قالو» الأكديّة. فليس من المستبعد أن تكون هي أصل كلمة «مُلاً» لأنها مطابقة لها في اللفظ، وقريبة منها في المعنى.

وذكر كلمة «ست» في الصفحة ٢٨٧، كلقب عام للنساء. وأشار إلى أن بعض اللغويين أرجعها إلى العدد (٦)، بمعنى يا ست جهاتي (!)، وبعضهم الآخر يرى أنها لا تزال اختزال كلمة «سيدتي»، مع أن الكلمة لا تقف عند النداء، بل تعدته إلى اللقب. وأنا أرجح أن الكلمة مأخوذة من Aste اليونانية، بمعنى «فتيات».

وجاء إلى «اسبيداج مسحوق أبيض ناصع من رمادي الرصاص تزين به نساء الريف والبادية وجوههن، ويسمى عندهن سبداج. والكلمة من العرب قديماً من الفارسية، وهي فيها سبيتاج (باء بارس وجيم قاهرة)».

وأنا أعتقد بأن الكلمة الفارسية ترجع إلى أصل سومري ZI _ BI _ DA وتعني «الأثمد، الأنثيمون»، وهو حجر يكتحل به، ويلفظ باليونانية Stibi، وباللاتينية Stibium، ومثلها بالانكليزية. ويشير جون الليغرو إلى أن كلمة «مستباتا» الآرامية تعني «امرأة متزينة»، وهي من الجذر (ص. ب. ت)، بمعنى نظم. وفي آرامية الترجوم للتوراة يراد بالفعل (صبت) استعدادات الحرم للزينة. ويقول الليغرو أن (صبت) في السومرية ZI _ BI _ DA.

وبعد، أن المعجم العربي المعاصر، لم يصنف حسب الأحرف الأبجدية، لأنه معجم موضوعات وليس معجم مفردات. ولئن بُذلت عناية فائقة في وضع فهارس ومسارد له في صفحاته الأخيرة، بما يقابل الـ In-

dex في المعاجم الأوروبية، فإن هذا التوبوب لن يُسعف القارئ كثيراً، في رأينا، لأن مفردات المعجم مبنية بحسب مواضيعها، وبذلك يتعين على القارئ أو مراجع المعجم أن يرجع الى الموضوع العام (أي الكتاب، أو المجلد)، ثم الى الباب، ثم الى الفصل، الخ، الذي تنتمي اليه الكلمة ... وفي هذا ارهاق للقارئ. وفي هذه الحال ينبغي أن يُنظر الى هذا المعجم كمعجم مواضيع في المقام الأول. وهو في هذا الإطار مرجع لغوي مهم. وقد لانبالغ إذا قلنا أنه من بين أكثر المراجع اللغوية - المعجمية - الحديثة فائدة للقارئ والباحث. وفي الختام، أود أن أهنس في إذن الصديق هادي العلوي أن يخفف من غلواء أحكامه الايديولوجية التي لا يُفترض أن يكون مكانها في المعاجم!.

الحامش

الكتاب: قاموس الإنسان والمجتمع.
المؤلف: هادي العلوي.
الناشر: دار الكنوز الأدبية - ١٩٩٧.

ألفاظ عامية لها جذور ضاربة في القدم

«أكو»، «ماكو»

كثيراً ما تساءل أشقاؤنا العرب، بل والعراقيون أنفسهم، عن أصل هاتين اللفظتين العراقيتين العجيبتين، نعني بهما «أكو»، و«ماكو»، وما سر انفراد العراقيين باستعمالهما دون بقية أبناء العالم العربي، مع أن هاتين اللفظتين لا قرين لهما في أي من اللغات العالمية الحية؟.

قبل أن يتصدى لهما المختصون باللغات القديمة، أدلى فقهاء اللغة العربية بدلوهم، من بينهم العلامة المرحوم مصطفى جواد (من العراق). فرجح - على ما أظن، وأنا أتكىء هنا على الذاكرة - أن الأصل: كان، أو يكون بكلمة أدق. و«أكو» إنما هي تخريم لـ «يكون»، أما «ماكو» فهي تخريم لـ «ما يكون»، أي لا يكون. وهو تخريج ضعيف، على ما يبدو، لكنه كان الاجتهاد الوحيد المعقول في إطار اللغة العربية، إذا علمنا أن اللغات المعروفة المرشحة لأرومة اللفظتين، كالفارسية والتركية، لا وجود لهاتين المفردتين في قاموسهما.

ثم تصدى لهما المرحوم طه باقر، المختص بعلم الآثار واللغة البابلية، وأول مترجم للحملة جلکامش الى العربية. فأسلست له كلمة «ماكو» قيادها، لكن كلمة «أكو» خذلتها الى حد ما. جاء في الصفحة

٤٧ من كتابه «معجم الدخيل في اللغة العربية» مايلي:

«- تأصيل كلمتي (أكو) و (ماكو):

من المفردات اللغوية الغربية التي يقتصر تداولها على عامية العراق، وتعنيان، على ما هو معروف، يوجد ولا يوجد. وقد حار المفسرون المحدثون في تأصيلهما، وذهبوا مذاهب شتى ... وتعييننا النصوص المسمارية على حل هذا اللغز اللغوي، فقد ورد في اللغة الأكديّة كلمة (ماكو) بمعنى لا يوجد، وترادفها في اللغة السومرية «نو - كال Nu Gal» (لا يوجد). ومع أنه لم يرد حتى الآن نص مسماري عن كلمة (أكو)، بيد أن المرجح قياساً على ورود كلمة (ماكو) أن هذه الصيغة أي ماكو نفي لكمة (أكو). وتوسعاً في معنى «ماكو»، راجعنا قاموس شيكاغو للأشوريات (وهو معجم كبير يخصص لكل حرف من حروف الأبجدية الأكديّة مجلداً أو اثنين) فوجدنا استعمالات كلمة (ماكو) في السياقات الآتية:

(١) بمعنى: فقر، حاجة، عوز. وورد استعمالها في اللغة البابلية القديمة (بين ٢٠٠٠ ق. م. - ١٥٠٠ ق. م.)، والعيلامية، والبابلية الوسيطة، والبابلية الفصيحة. وذكر القاموس أمثلة من الجمل التي استعملت فيها مثل: «عسى أن يجعله (أدد) يعاني من الجوع والفاقة، فيلازمه الفقر، والعوز، والتعاسة ليل نهار».

(٢) كفعل، ترد «ماكو» بمعنى «لا يوجد»، كما في الجملة الآتية: «يعلم الملك أنه لا يوجد لديّ مكان أعيش فيه». ورد هذا الاستعمال في أحد ألواح تل العمارنة بمصر (وهي رسائل بين ملكي مصر امنحوتب الثالث وامنحوتب الرابع الذي سمى نفسه فيما بعد اختانون، وولاتهما

من حكام فلسطين وسورية، وكانت تكتب باللغة البابلية، لأنها كانت اللغة الديبلوماسية في العصور القديمة).

(٣) وورد استعمال ماكو في ألواح مدينة ماري قرب دير الزور

السورية بمعنى: «فقدان، عدم وجود، غياب».

لكن بما يدعو للحيرة أن كلمة (أكو) موجودة في البابلية بمعنى آخر، يختلف عن معناها في العراقية الدارجة المعاصرة. في قاموس شيكاغو للآشوريات جاء أن (أكو) تعني:

١ - محروم، ضعيف، لاحول له، متواضع أو وضع.

٢ - أعرج، مُقعد، مشوّه.

على أننا لاحظنا أن كلمة «أكا» المندائية (الصائبية) تعني «يوجد». وفي المعجم المندائي الانكليزي، اعداد السيدة دراور (بالاشتراك مع لغوي آخر لا يحضرني اسمه) يرد ذكر رديف لكلمة «أكا» بلغة التلمود، هو «يكا» المنحوتة من «ايث + كا». ولعل هذا سيعود بنا الى مادة «يكون»، ومنها «يك» في العربية. ويمكن ذكر «أك» العبرية، وهي من «أكن» المشتقة من الجذر «ك و ن» بمعنى (كان)، وترد (١) بمعنى الإيجاب، أي: حقاً، يقيناً، لا شك. (٢) بمعنى «فقط».

وفي الكلدانية هناك: هاكني، هاكي، ك. فهل لهذه الألفاظ صلة بكلمة «أكو» العراقية؟.

أبي: هذه الكلمة الشائعة الاستعمال في بلدان الخليج العربي، لاسيما الكويت، بمعنى «أبغي، أريد». لم نجد في العربية الفصحى رديفاً لها سوى كلمة (أبي، يأبى)، وتفيد معنى معاكساً. ففي

القاموس، أبى الشيء: لم يرضه، كرهه. لكننا لاحظنا أن هناك جذراً سامياً (أ ب ي)، ومثله مصرياً قديماً (ء ب ي)، يعني كل منهما (يرغب، يحتاج). ومن الجذر السامي جاءت الكلمة الأوغاريتية (الكنعانية) «أ ب ي ن ت» بمعنى «تعاسة، بؤس»، والكلمة العبرية «أبيون» بمعنى «محتاج، فقير». ومن الجذر المصري القديم جاءت الكلمة الديموطية (مصرية قديمة كانت تستعمل في الحياة اليومية) «ء ب ي ن» (شحاذا)، والقبطية «أ ب ي ن» (شخص بائس).

شفط: «شفط» لفظة عامية تستعمل في عدد من اللهجات العربية الدارجة، كالعراق ولبنان. ففي العراقية الدارجة تعني: ابتلع. الكلمة تورث انطباعاً بأنها من الألفاظ الصوتية. أما في اللبنانية، فهناك كلمة «سفت» بمعنى صادر، أو استولى على، كقولنا «سفت له حقه». ولعلها - في اللبنانية - منحدرة عن الأصل الفينيقي «ث ف ط»، بمعنى (قاضٍ)، كما يرجح الدكتور أنيس فريحة. فمن ألقاب الإله الفينيقي «يم»: ث ف ط ن ه ر، أي قاضي النهر، أو القاضي نهر. لكننا نفضل أن نعود إلى اللفظة العراقية، فلعلها أقدم استعمالاً، لأنها ترقى إلى أيام حمورابي على الأقل. فحسب شريعة حمورابي أن المتهم كان يرمى في النهر، فإن كان بريئاً لفظه النهر، وإن كان مذنباً ابتلعه، ذلك أن القدماء كانوا يعتبرون منبع الحياة بمثابة فوهة تُفضي إلى العالم السفلي، عالم الأموات. وكان يعتقد أن النهر يلعب دور القاضي (شافط) في محاكمة المجرمين أو المتهمين. وبعد أن أبطلت هذه المادة القانونية بقيت لفظة (شفط) في العراقية الدارجة بمعنى ابتلع. لكن اللغة العبرية حافظت على الكلمة (شافط) بمعنى (قاض). فقد استعملت في التوراة

بهذا المعنى، كما جاء في سفر أيوب (٢٢ : ١٣)، وسفر حزقيال (٤٤ : ٢٤)، الخ.

وفي العراقية الدارجة تستعمل كلمة (لفظ) بمعنى «شفط» أيضاً، أي ابتلع. وهي ليست فصيحة، لكنها تذكرنا بكلمة (لفظ) الفصيحة، وتفيد عكس معناها: رمى الشيء (من فمه) وطرحه. فالشيء لفيظ، وملفوظ ومن هنا جاءت كلمة «اللفظة»، أي الكلمة المنطوقة. كما تجدر الإشارة الى أن كلمة (ثافط) الفينيقية التي تطلق على القاضي، أصبحت باللغة اليونانية Sofet.

السومريون ليسوا أكراداً!

الغموض السومري يبقى مثاراً للجدل، ما لم تتوافر أدلة تاريخية وآثارية قاطعة حول الهوية السومرية. وما دامت هذه الأدلة القاطعة غائبة فالجدل مستمر، والنظريات تترى. وقد قيل الكثير عن أصل السومريين. ولعل النظرية الخليجية كانت أقواها، مع أن لها ثغراتها، ومفادها أن السومريين قدموا من الخليج العربي، ربما من شبه القارة الهندية أو خوزستان، الخ.

لكن النظريات الكلاسيكية أخذت تفقد قوتها بعد توافر بيانات آثارية في العقود الأخيرة عن حضارات رافدينية سابقة للمرحلة السومرية تورث انطباعاً بأن الأخيرة كانت امتداداً لها وليست حلقة منفصلة عنها أو غريبة عن المنطقة. وهذا يُعيد الى الأذهان ما قاله العالم الآثاري الشهير د. فرانكفورت قبل أربعين عاماً: «إن المناقشة المسهبة لمشكلة أصل السومريين يمكن أن تتضح في النهاية بأنها مجرد ملاحقة وهم (Chase of Chimera) لا وجود لها مطلقاً».

ومع ذلك لا يزال اللغز السومري قائماً، ولا تزال تظهر بين حين وآخر آراء جديدة حوله. أحدث هذه الآراء - في عالمنا العربي - ما طرحه السيد صلاح سعد الله بما يفيد أن السومريين أكراد (جريدة «الحياة» ٢٩

كانون الثاني/يناير ١٩٩٥). ورأينا أن نناقش هذه الفرضية التي طرحها السيد سعد الله بشي، من التواضع لكن بمزيد من التسرع، لأنه «لفلف» أطروحته هذه بأقل ما يمكن من «الأدلة»، ومن دون أن يحسب حساباً - على ما يبدو - للطعون التي يمكن أن تتعرض لها. لكن فرضيته، مع ذلك كله، تبدو طريفة و «متماسكة» للوهلة الأولى. لذا فهي جديرة بالنقاش. وليس كمثّل الفرضيات الأخرى العجيبة، كقول بعضنا «أن السومريين عرب»، وقول بعضهم «أن اليهود سومريون»!

تستند فرضية سعد الله الى النقاط الآتية:

أولاً: بضع مفردات لاتكاد تتجاوز عدد أصابع الكف الواحدة يعتبرها مشتركة بين اللغتين السومرية والكردية، هي (أ) جلجامش، (ب) كلمة «دب» الدالة على (اللوح الكتابي)، (ج) كلمة «در» الدالة على الشجرة، (د) كلمة «كور» وتعني (عميق، العالم السفلي)، (هـ) كلمة «آرو»؟ الدالة على الماء، ومرة أخرى كلمة GISH الدالة على الشجرة.

ثانياً: تبنى الرأي القائل: أن السومريين عراقيون أصلاً انحدروا من شمال العراق. وصاحب هذا الرأي هو الدكتور فوزي رشيد من العراق، وذلك بالاستناد الى الكشوفات الأثرية في العقود الأخيرة التي قدمت بينات على وجود ظواهر حضارية، شبيهة بالسومرية، عند العبيديين السابقين لهم، وقبلهم السامريين، الخ.

ثالثاً: بعض وقائع ملحمة جلجامش، وشيء يتعلق باسم (خاوا).

وفي مايلي مناقشة لهذه النقاط:

١ - البند الأول لا يستحق المناقشة، في رأينا، لأن من غير المنطقي

أن تُبنى نظرية عن صلة قرى بين لغتين استناداً الى خمس أو ست مفردات متشابهة بينهما (حتى لو كانت الكلمات التي ذكرها الكاتب صحيحة). ومع ذلك فإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: إذا كانت هذه الكلمات متشابهة بين السومرية والكردية، فلماذا يعود أصلها الى الكردية وليس السومرية، مادامت هذه الأخيرة أقدم من الكردية، (في العراق طبعاً) بأكثر من ألفي سنة على الأقل؟ أن منطق الأشياء يقضي بأن تكون اللغة الأحدث - في المنطقة - هي المستعيرة وليس العكس. وسأكتفي بمناقشة كلمة GISH لأن الكلمات الأخريات، وأخص بالذكر الألفاظ السومرية منها، لم يرسمها بالحروف اللاتينية، الأمر الذي يجعل تحليلها مقطعيّاً متعذراً. إن محاولة ارجاع كلمة GISH السومرية التي تُطلق على الشجرة، الى الكلمة الكردية (كاز) التي تُقال للصنوبر، تفتقر الى قوة الاقتناع، لأن علينا قبل كل شيء أن نبحث عن أصل كلمة (كاز) الكردية، وهل لها قرائن في شقيقاتها من اللغات الآرية (الإيرانية، الهندية، الأفغانية، الخ) وفي اللغات الهندية - الأوروبية الأخرى. فإن لم تكن لها قرائن، فقد تكون والحال هذه مستعارة من السومرية أو من لغة أخرى.

٢ - ليس لدى كاتب هذه السطور تحفّظ على النظرية القائلة بانحدار السومريين من شمال العراق، لكنه لا يتفق مع السيد صلاح سعد الله بأي شكل من الأشكال في قوله أن السومريين أكراد، لسبب بسيط هو أن الأكراد قدموا الى منطقة كردستان العراق (كما تسمى اليوم) من الشمال الشرقي للعراق بعد أقول حكم السومريين بأكثر من ألف عام. فكيف يمكن أن يكونوا أجداداً للسومريين الذين وجدوا في وادي

الرافدين في الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل؟ وعلى أي أساس تاريخي استند السيد صلاح سعد الله أن الأكرد «استوطنوا منطقتهم الحالية قبل سبعة آلاف سنة على الأقل مما يجعلهم أعرق قوم في المنطقة؟».

من المعروف أن الأكرد ينتمون الى الأقوام الهندية - الأوروبية، وفي نطاق أضيق الى الأقوام الآرية. وليس ثمة مايشير في أي مصدر من المصادر التاريخية الى أن الأكرد استوطنوا كردستان (الحالية) قبل سبعة آلاف سنة، لأن الأقوام الهندية - الأوروبية لم يكن لهم أي وجود أو ذكر في الشرق الأوسط برمته في تلك المرحلة. وفي واقع الحال أن وجود الأكرد في العراق (كردستان العراق) كان متأخراً جداً عن التاريخ الذي ذكره سعد الله. إنه يرقى الى الربع الأول من الألف الأول قبل الميلاد. يقول J. P. Mallory في كتابه «في البحث عن الأقوام الهندية - الأوروبية» (باللغة الانكليزية، طبعة ١٩٩١، دار Thames and Hudson): «العام ٨٣٦ ق . م. ظهر لأول مرة اسم الميديين في السجلات الآشورية، وكانوا يومذاك على مشارف أصفهان الحالية، أما الفرس Par-sua فكانوا في شمال غرب كرمنشاه. في تلك الأيام كان يحكم فارس سبعة وعشرون ملكاً، كانوا كلهم يدفعون الجزية للملك الآشوري شلما نصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق . م.) وكان واضحاً من الأخبار الآشورية أن الميديين والفرس الذن احتكوا بهم كانوا قد رسخوا أقدامهم في المنطقة قبل هذا التاريخ عندما توغل الآشوريون الى الشمال الشرقي في جبال زاغروس. وهذا يدعو للاعتقاد بأن القبائل الكردية والإيرانية كانت موجودة في المنطقة الشمالية من جبال زاغروس منذ بداية القرن التاسع ق . م.» (ص ٤٩).

ومن المعلوم أن سقوط الآشوريين تم بعد تحالف الميديين (أجداد الأكراد؟) والبابليين. ففي العام ٦١٤ ق . م. زحف الملك الميدي هُوفاكشاترا (ويدعى كاشتاريتو أيضاً أو أوماكشتار، حسب النطق البابلي، أو سياكساريس حسب نطق هيرودوتس اليوناني) نحو نينوى، واستولى على غرود الآشورية، واستولى على آشور، قبل وصول حليفه البابلي نابوبولاصر. واجتمع الملك البابلي (الكلداني) نابوبولاصر مع الملك الميدي هُوفاكشاترا تحت جدران مدينة آشور المدحورة «وعقدا حلفاً مشتركاً للصدقة والتعاون». وفيما بعد تعزز هذا الحلف بزواج نبوخد نصر، ابن نابوبولاصر، من أميتس Amyitis ابنة، وفي رواية أخرى حفيدة، الملك الميدي. ومعلوم أن مدينة (أربيل) كانت آشورية في أول الأمر، واسمها آشوري، ومعناه «أربعة إيلو» أي (الأربعة آلهة). وكانت أربيل موطناً لعبادة عشتار. ويقول بشير فرنسيس وكوركيس عوآد في دراستهما «نبذ تاريخية في أصول أسماء الأمكنة العراقية» أن التسمية العربية لهذه المدينة هي أربل. ويسمّيها الناس اليوم «أربيل»، و «أرويل»، و «أوريل»، و «أولير»، و «هولير». والصيغ الثلاث الأخيرة هي حسب نطق الأكراد لاسمها. وكانت أربيل في العهد الفرتي (١٢٦ ق . م - ٢٢٧م) عاصمة لمملكة حدياب الآرامية. فالحديث عن العراق التي تطرق إليها سعد الله غير صحيح، وليس له معنى أو مغزى أصلاً، لأن أربيل - على سبيل المثال - أصبحت مدينة كردية على مرّ القرون، مثل سائر مدن كردستان الحالية، وهو أمر لم يعد مثار نقاش.

٤ - يرى سعد الله في كلمته ذاتها «حلّ المسألة السومرية: السومريون والأكراد!» أن افتراض الآثاريين ومترجمي ملحمة جلجامش

بأنه سار من (أوروك) في جنوب العراق الى غابة الأرز في لبنان لجلب الخشب، يفتقر كلياً الى المصادقية. «فليس من المعقول أن يذهب المرء من جنوب العراق الى لبنان - وهو بلد قد يكون مجهولاً لدى هذا المرء أصلاً - لجلب الخشب عبر منطقة لا تتوافر فيها وسيلة طبيعية مناسبة للنقل، كالنهر. ثم أن الخشب متوافر في الشمال، ويسهل نقله نسبياً بواسطة النهر ...». ويقول أن جلعامش «لم يعبر الصحراء ولم يذهب الى غابة الأرز في لبنان، بل ذهب على الأرجح الى غابة الصنوبر في الشمال. نعم لم يكن الأرز، بل الصنوبر، ولم يكن في لبنان بل في كردستان ... الخ».

إن طرح سعد الله يبدو منطقياً هنا، لأن شمال وادي الرافدين أقرب بكثير من لبنان الى الجنوب العراقي. لكن السجلات التاريخية تؤكد على أن ملوك وادي الرافدين منذ عهد سرغون الأكدي (٢٣٤٠ - ٢٢٨٤ ق. م.) كانوا يفضلون خشب لبنان، لاسيما الأرز، على رغم صعوبة نقل هذه الأخشاب.

وسأستند في المعلومات التالية، بهذا الشأن، الى دراسة بالانكليزية بعنوان «غابات آسيا الغربية القديمة» بقلم أم. بي. باوتن-M. B. Bawton، الأستاذ في المعهد الاستشراقي في شيكاغو. والدراسة منشورة في مجلة JNES (مجلة الدراسات المتعلقة بالشرق الأدنى) الصادرة في شيكاغو «وأظن أن تاريخ نشرها كان في العام ١٩٦٧». جاء في هذه الدراسة: «ولكن مع جبل حرمون (في سورية) نصل الى أفق النصوص المسمارية - وهنا أكثر من إشارة في هذه النصوص لغاباته». ويعتقد الباحث باوتن أن جلعامش وانكيدو في بحثهما عن خاوا «حارس

الغابة» هبطا الى وادٍ، ربما كان هو الوادي بين جبل حرمون وجبل لبنان. وفي نصوص سارغون الأكدي وحفيده نرام - سن تراد إشارة الى جبل الأرز، وبالتخصيص جبل أمانوس. ويصد نقل الأخشاب من شمال سورية الى وادي الرافدين يقول باوتن: «إن أشجار السرو، والأرز، والتنوب، والصنوبر كانت لها أهمية كبيرة لمدن سومر البعيدة. وكان يمكن نقلها عبر الثلج الى مكان مناسب على نهر GOK SU، وبعد ذلك يُطوَّف على الفرات في وقت فيضان الربيع». وفي الاحتمالات كافة «إن هذه المنطقة، الى الشمال والجنوب من فجوة ماراس Maras، هي التي تدعى غابة الأرز، أو جبل الأرز في نقوش الملوك السارغونيين (الأكديين)، وجبل الأرز في أسطورة نرام - سن.

وفيما إذا كانت الشجرة المقترنة بخواوا شجرة أرز أم لا، جاء في كلمة لثيو بارو منشورة في JNES، العدد ١٦ (١٩٥٧) الصفحات ٢٤٥ - ٦٢، بعنوان «مقطع من ملحمة جلجامش يعود الى المرحلة البابلية القديمة»: «إن حياة خمبايا، حارس غابة الأرز في لبنان تتوقف على شجرة أرز يجب قطعها قبل أن يقتل».

٥ - جاء في كلمة سعد الله: «ويلاحظ أن اسم حارس الغابة في الملحمة (ملحمة جلجامش) يرد بشكل (خاوا) أيضاً. وهو اسم قريب كذلك (...) من (خاوا) الاسم الكردي للإله».

لاشك في أن الكلمة الكردية التي تطلق على الإله من أصل هندي - أوروبي، فهي (خُدا) بالفارسية، وتقابلها God بالانكليزية، الخ. ونحن لانعتقد أن لهذه الكلمة - خوا - صلة بالاسم (خاوا) للسبب الآتي: إن اسم خمبايا يرد بالصيغتين الآخرين أيضاً خويابا،

وخاوا، وهو كما يقول مايكل أستور في كتابه (ايلينوساميتيكا) (ص ٢٥٨) على وزن فُعال من الفعل (خبب) ويعني «أحب»، ولعل الكلمة تعني «محبوب» (بالفينيقية، وهو رمز محبوب عندهم على الضد من سميّه في بلاد الرافدين). وقارن (خواب) أبا زوجة موسى. وكان (خب ب) رئيساً للكتبة في أوغاريت. ويرى بنفنيست أن كومبابوس -Comba-bos هو صيغة أخرى لخومبابا، وأكد في الوقت نفسه على أن الشخصيتين مختلفتان تماماً (يقصد أنه محبوب في فينيقيا ومكروه في وادي الرافدين).

في ضوء ماتقدم نحن لانعتقد أن اسم (خاوا) له صلة بكلمة (خوا) الكردية.

الدماغ وأثره في الأنغام والكلام

يختلف مركز الموسيقى عن مركز الكلام في الدماغ في الإطار العام لكل منهما، وإن كانا يتداخلان إلى حد غير قليل. فاللغة تصدر في الغالب عن نصف الدماغ الأيسر، أما الموسيقى فمركزها النصف الأيمن بصورة عامة. على أن تقسيم الوظيفة لا يظهر بين الكلمات والموسيقى بقدر ما هو بين المنطق والعاطفة. فعندما نتحدث الكلمات عن العواطف أو المشاعر، كما في الشعر والأغاني، فإن النصف الأيمن من الدماغ ينشط هنا. لكن النصف الأيسر مسؤول عن اللغة التي تتعلق بالقضايا الفكرية والذهنية. ويمكن معرفة هذه الفوارق عن طريق التجارب العلمية. فمن الممكن تخدير أحد نصفي الدماغ في حين يبقى النصف الآخر في حالة طبيعية من الوعي. إذا حقنت مادة الباربيتوريت (مخدر) في الشريان السباتي الأيسر، فإن النصف الأيسر من الدماغ ينوم أو يخدر، ويفقد الشخص القدرة على الكلام، لكنه يستطيع الغناء، أما إذا حقن الشريان السباتي الأيمن، فإن الشخص لا يستطيع الغناء، لكنه يملك القدرة على الكلام بصورة طبيعية. وفي هذا الإطار يكون بوسع المتأثرين أن يغنوا في بعض الأحيان جملاً لا يستطيعون نطقها بصورة اعتيادية، لأن التأتأة لها علاقة باللغة، ومركزها في النصف الأيسر من الدماغ.

في حين يتحكم النصف الأيمن بالغناء بصورة عامة. وإذا عزف لحنان مختلفان في آن واحد، واستمعنا إليها من خلال النصفين الأيمن والأيسر من السمع (الذي يشد الى الأذنين)، فإن اللحن الذي يسمع من خلال النصف الأيسر من السمع سيكون تذكره أقوى من الآخر الذي يسمع من خلال النصف الأيمن، وذلك أن الأذن اليسرى لها موقع سمعي أقوى في النصف الأيمن من الدماغ. وأن النصف الأيمن من الدماغ يتعامل مع اللحن بصورة أكثر فاعلية من النصف الأيسر. أما إذا أعيدت التجربة مع الكلمات فإن النتيجة ستكون معاكسة. عندما أصيب الموسيقي السوفياتي فيساريون شيبالين بسكتة دماغية، وعانى من الحبسة (فقدان القدرة على الكلام)، عالجته العالم لوريا المختص بالأمراض النفسية - العصبية. ولاحظ أنه لم يعد قادراً على فهم معاني الكلمات، لكنه واصل تدريس الموسيقى وألف سمفونيته الخامسة التي اثني عليها كثيراً الموسيقي السوفياتي المعروف شوستاكوفتش. وقد عالج العالم يوريا مريضاً آخر، هو زاسيتسكي الذي تلقى رصاصة في أثناء الحرب العالمية الثانية أعطت جانباً كبيراً من الجزء الأيسر من دماغه. فكانت قدرته على استعمال وفهم اللغة ضعيفة جداً في بادئ الأمر. كما أن أدراكه للأبعاد الفضائية ضعف كثيراً أيضاً. وكان بوسعه أن يتذكر بسهولة ألحان الأغاني، لكن بدون كلماتها؛ ويحدثنا هوارد غاردنر عن موسيقي أميركي كان يعاني من الحبسة أيضاً، التي جعلته يواجه صعوبة كبيرة في القراءة. لكنه، بالرغم من عدم قدرته على فهم معاني الكلمات المطبوعة، لم يواجه صعوبة تذكر مع النوطات الموسيقية، وكان بوسعه تأليف الموسيقى تماماً مثلما كان يفعل قبل أن يبتلى بالحبسة.

وفي كتاب أوليفر ساكس، الموسوم بـ «الرجل الذي تصور زوجته قبة» يحدثنا المؤلف عن موسيقي آخر تعرض لعطل معين في دماغه. كان هذا الموسيقي بوسعه أن يرى، لكنه لم يكن يستطيع معرفة أو تمييز حقيقة الأشياء التي يراها، على نحو ما يشير إليه عنوان الكتاب. مع ذلك لم تضعف مؤهلاته الموسيقية: في واقع الحال كان يستطيع ارتداء ملابسه، أو تناول طعامه، أو الاستحمام، إذا فعل ذلك، وهو يغني! وهكذا أصبحت الموسيقى بالنسبة له الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بواسطتها التعامل مع العالم الخارجي، أو يجد معنى فيه. وعلى عكس ما يرى عديد من الباحثين - اللغويين - أننا قد لا نفكر من خلال الكلمات .. ذلك أن تقطيع وفرز أو تصنيف المعلومات يجري في الدماغ بصورة لاواعية في حالة النوم أيضاً. وبالتالي فليس ثمة من داع لاعتبار التفكير مقترناً بحالة الوعي فقط. أما إذا أردنا أن نعد أفكارنا، ونعبر عنها، وننقلها إلى الآخرين، فلا بد أن نصوغها في كلمات. ومع أن فهم اللغة يمكن أن يتم في نصفي الدماغ إلى حد ما، إلا أن صيغة الأفكار في كلمات، واقتراح جمل جديدة، من اختصاص النصف الأيسر. وفي الموسيقى أيضاً، عندما يزداد مستمع أو هاوي الموسيقى ثقافة، أي إذا نمت أو تطورت عنده الثقافة الموسيقية النقدية، فإن الإدراك الموسيقي ينتقل بصورة جزئية إلى النصف الأيسر من دماغه. وعندما تزداد العلاقة بين الكلمات والموسيقى، كما هو الحال في كلمات الأغاني، سيرتبط كلاهما على ما يبدو بالنصف الأيمن كجزء من جشتالت واحد. ومن المعروف أن المواهب الموسيقية متعددة وليس من الضروري أن توجد جميعها عند شخص واحد. وهناك على العموم هوة

كبيرة بين الولوج الموسيقي، والموهبة الموسيقية. الكثير من أولئك الذين يحبون الموسيقى يحاولون جهدهم أن يصبحوا موسيقيين لكن بلا طائل. وبالمقابل ليس من الضروري أن يكون الموهوبون موسيقياً شديدي الولوج بالموسيقى. وهذا يعني أن أجزاء الدماغ التي لها علاقة بالجوانب العاطفية في الموسيقى (بما في ذلك تذوقها) تختلف عن تلك التي لها علاقة بتذوق أو فهم بنيتها. وقد أظهر قياس ضغط الدم، والتنفس، والنبض، والفعاليات الجسدية الأخرى التي يسيطر عليها الجهاز العصبي اللا إرادي، الذي جرى على شخص في حالة انصراف تام للموسيقى، أن هناك تغيرات واضحة في الانفعالات الفيزيولوجية عنده. لكن مثل هذه التغيرات لم تكن واضحة، أو ظاهرة عندما اتخذ الشخص موقفاً تحليلياً ونقدياً. وهذا يأتي تعزيزاً لثنائية فلهلم فورنغر المتخصص بتاريخ الفن، حول التقمص العاطفي والتجريد، وهما مقولتان يمكن تطبيقهما على الموسيقى مثلما طبقهما على الفن التشكيلي. فحسب فورنغر أن علم الجمال الحديث يتوقف بالأساس على سلوك الإنسان المتأمل، فإذا أعجب شخص ما بعمل فني، فلا بد أن يندمج فيه. ويصبح جزءاً منه لكن هذا التقمص العاطفي مع العمل الفني هو وسيلة واحدة فقط للوصول إليه. أما الوسيلة الأخرى، فتتم عن طريق التجرد. كما أن التذوق الجمالي يتم عبر اكتشاف الشكل والنظام، الذي يقتضي انفصاماً عن العمل الفني. وهذان الموقفان مرتبطان بانيساطية (انفتاحية) الإنسان وانغلاقيته. وعند الأفراد يبرز أحد هذين الموقفين. وإذا ظهر هذا الاختلاف بصورة مبالغ فيها، فإنه سيؤول الى عدم التجانس. هذا وأن التقمص العاطفي مع عمل موسيقي قد يجعل الشخص متجاوباً عاطفياً معه الى درجة أن

النظرة النقدية له قد تصبح متعذرة. وفي المقابل، أن المقاربة الذهنية المتجردة كلياً قد تكون على حساب الجانب العاطفي للموسيقى. ومع ذلك لا تزال هذه المسألة موضع جدل ونقاش بين علماء النفس والمعنيين بعلم الجمال.

أحدث المعلومات عن نشوء الأبجدية وتطورها

ترجم عن: وليم كوليكان

نعني بالأبجدية نظاماً كتابياً يعبر عن أصوات لغة (ماكان منها أصوات لين أو ساكنة) بالعلامات وفي الغالب بعلامة واحدة. وبالمعنى الحرفي للكلمة، كان الإغريق أول من فعل ذلك (لعل الكاتب يقصد هنا الاستعمال الكامل للأصوات اللينة، الى جانب الساكنة، في حين، أهمل الفينيقيون الأصوات اللينة - ع.ش)، لكنهم اعترفوا بأنهم تعلموها من الفينيقيين. والأدلة على ذلك كثيرة، ليس فقط في اشتقاق الحروف اليونانية القديمة من النماذج الفينيقية الأولى، بل أيضاً في احتفاظ اليونانية بالعديد من الحروف الصامتة الفينيقية، فضلاً عن الحروف مثل (أ ب ج، ل م، ف ق، الخ) كما هي في الفينيقية أو الأبجدية السامية الغربية. كما أن بعض الأساليب المتبعة في اليونانية للرمز الى حروف العلة يعكس تأثيراً سامياً غريباً في جوهره. ولأن الفينيقيين (شأن المصريين القدماء) لم يستعملوا رموزاً لحروف العلة، فقد استعمل اليونانيون علامات للأصوات، السامية، لوجود لها في لغتهم للتعبير

عن حروف العلة في لغتهم: واو مقابل u، يود (الياء) مقابل الحرف y، أو i، الهاء مقابل e، واستعمل بعض الكتابات السامية الغربية، كالآرامية، والعبرية، والموآبية بعض الصيغ الصامتة بصورة صائتة، مثل الألف للحرف أ (وسُمِّي باليونانية ألفاً)، استُعمل في بادئ الأمر في نهاية الكلمات فقط. لكنه كان يُستعمل أيضاً في المواضع الداخلية للكلمة منذ أواخر القرن الثامن ق . م.

الفينيقية: التاريخ الذي لاجدال فيه للأبجدية الفينيقية يرقى الى حدود العام ١٠٠٠ ق . م. وهو تاريخ الكتابة المنقوشة على ناووس (= قبر صخري)، الملك أحيرام في جبيل، وهي أقدم نقش طويل بالأبجدية النظامية. لكن عدداً من النقوش القصيرة على رؤوس رماح برونزية عشر عليها في لبنان وفلسطين يعكس استعمالاً نظامياً لصيغة حروف أقدم من كتابة أحيرام: من هنا نستطيع القول أن الأبجدية الفينيقية المؤلفة من ٢٢ حرفاً ظهرت الى الوجود في حدود ١٢٠٠ ق . م.

في المناطق المجاورة ظهرت أقدم الكتابات الفلستينية الطويلة في تقويم جازر (يرقى الى حدود ١٠٠٠ ق . م.)، وفي شرقي الأردن في نصب الملك ميشا حاكم موآب في ٨٤٠ ق . م. وفي سورية في الكتابة الآرامية الطويلة لزاكر، ملك حماة، في ٧٨٠ ق . م. وبار ركوب في سنجرلي في ٧٣٠ ق . م. وكلها مؤرخة وفق أحداث تاريخية. لكن الإشكال الأساسي في تاريخ الأبجدية يكمن في العلاقة بين هذا النظام الفينيقي وما سبقه.

السينائية: في الأصل كانت فكرة العلامة الواحدة مقابل الصوت الواحد مصرية. فقد كان نظام الكتابة الهيروغليفية معقداً، لأن علاماته

يمكن أن تشير إما الى أشياء أو أفكار أو أصوات (حروف)، بحيث كان من الضروري استعمال رمز إضافي للدلالة على الصوت فقط للإشارة الى الطريقة التي يمكن أن تُقرأ بواسطتها هذه الكتابة الهيروغليفية. وكان الغرض الرئيسي لاستعمال هذه الكتابة الشبيهة بالأبجدية المؤلفة من ٢٤ صوتاً ساكناً، تهجئة الملحقات الهيروغليفية الصوتية، لكن شيئاً فشيئاً صارت تستعمل لتهجئة الكلمات ولا سيما في الأسماء الأجنبية التي لم تكن الكتابة الهيروغليفية تصلح لقراءتها. إنما تنبغي الإشارة الى أن المصريين لم يستعملوا هذه الأبجدية إلا في نطاق ضيق جداً، أي أنهم لم يتبنوا النظام الأبجدي من حيث المبدأ. وعلى أية حال كانت كتاباتهم خلواً من أي حرف من حروف اللين. لكنها كانت ابتكاراً مهماً، وتعتبر بحق غير بعيدة الصلة بالنظامين الرئيسيين اللذين سبقا الأبجدية الفينيقية: ونعني بهما الكتابة التي عثر عليها في المناجم المصرية في سرايت الخدم في سيناء (سينائية قديمة)، وكتابة مدينة جبيل الكنعانية. وكلتا هاتين الكتابتين تستعملان مزيجاً من الرموز الصورية والعلامات الخطية. وكلتا الكتابتين تستعملان من قبل الساميين، ويبدو أنهما كلتيهما استعملتا وطورتا المبدأ الألفبائي للعلامات الصامتة زائداً حروف العلة، لكن أياً منهما لم تطور كتابة نظامية.

تتألف الكتابة السينائية من ثلاثين علامة، وهي قليلة جداً لكتابة مقطعية أو صورية، لكن على رغم أن العديد من هذه العلامات شبيه بكتابة جبيل (بل حتى الفينيقية المتأخرة عنها)، فإن أقل من ثلاث كلمات يمكن ترجمتها. على أن أهميتها تكمن في النظرية القائلة إن العلامات لا يمكن أن تكون طرفية خالصة (الكتابة التي تقتصر على

الأطراف الأولى للكلمات)، وإنها تنطوي على مبدأ مزدوج في تطوير أبجدية كل من الفينيقية والسامية الجنوبية (العربية)، وإن السينائية لم تكن تطوراً محلياً، بل مرتبطة بتجارب معاصرة (أي في منتصف الألف الثاني ق . م) للكتابة السامية في جبيل وأماكن أخرى.

الكتابة الجبيلية: تورث النقوش المحفورة على الملوقة (ملعقة الصيدلي) البرونزية والبلاطة الحجرية في جبيل انطباعاً قوياً بأن فترة طويلة من التجريب مرت هناك مع استعمال صيغة ما من الأبجدية المصرية في الشطر الأول من الألف الثاني ق . م. كما أن وجود صلة قريى بالنظام المصري يمكن توقعه في جبيل التي كانت لها علاقات تجارية وثيقة مع دلتا النيل. إن تحليلاً دقيقاً للنقش على الملوقة البرونزية يشير الى استعمال علامات صورية ورمزية. وهناك ما يدعو للاعتقاد بأن جبيل عرفت النظام الأبجدي في أوائل الألف الثاني ق . م.

الكنعانية الأم في فلسطين: الى الشمال من سيناء، في فلسطين، نجد بضعة نماذج من النقوش الكتابية محدودة المدى في علاماتها، بعضها يشبه السينائية الأم. عُثر على هذه النماذج في شُقف (كسر) أوانٍ في مواقع كنعانية، مثل بيت شمس، شكيم (نابلس)، جازر، لحيش، مجدو. ولا تكمن أهميتها في وجود صلة بالسينائية الأم أو الجبيلية، بل في الدليل الذي تقدمه على المحاولات المتعددة للكتابة السابقة للعبرية في فلسطين. ويصعب تحديد تاريخ لها، فبعضها مثل خنجر لحيش وبلاطة نابلس يرقى على ما يبدو الى المرحلة الأخيرة من العصر البرونزي الوسيط (القرن السادس عشر أو الخامس عشر ق . م). لكن معظمها يرجع تاريخه الى القرن الثالث عشر أو الثاني عشر ق .

م. وليس من بينها نقش يمكن قراءته على نحو واضح أكيد، أو يمكن البرهنة على أنه كتابة أبجدية، لكنها في أغلب الاحتمال تبدو كذلك. وظهرت في سورية وشمال لبنان بضعة نماذج من الكتابة الخطية متفرعة من التجارب الفلسطينية. وهناك نماذج من القرن الرابع عشر ق . م. من كامد اللوز (البقاع) تنطوي على أبجدية أطول مع نقاط التقاء مع العربية الجنوبية. وأخرى من لجش (حوالي ١٧٠٠ ق . م). هي عبارة عن مزيج من العلامات تتراوح بين العربية الجنوبية والخط (أ) الكريتي(*).

وهكذا، في حين تتوافر الأدلة على تطور منهجية الكتابة الفينيقية بين ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق . م. فإن من الصعوبة الوقوف على تاريخ للأبجدية سابق للفينيقية. ويبدو على أية حال أن هناك عدداً من التجارب حول الكتابة الأبجدية أو الأبجدية جزئياً في كنعان في العصر البرونزي الوسيط والأخير. كما يبدو من المرجح أن يكون الاقتصاد اللغوي لنظام الحروف الاثني والعشرين الفينيقية عاملاً مهماً في تحقيق هذا الإنجاز.

وأُسيط اللثام حديثاً عن نماذج من الكتابة في عزبة سرته في فلسطين تقدم دليلاً على أن أبجدية كنعانية قديمة مؤلفة من ٢٢ حرفاً كانت موجودة في حدود ١٢٠٠ ق . م. وهو تاريخ تعزز به البعثات الأثرية والكتابية. وقد كُتبت من اليسار إلى اليمين حسب التقليد الكنعاني القديم، وليس من اليمين إلى اليسار كما هي الحال في

(*) - في كتابنا (ملاحم من التلاقي الحضاري بين الشرق والغرب) تطرقنا إلى قراءة سايروس غوردن لهذا الخط الكريتي، وكيف توصل إلى أن اللغة سامية (المترجم).

الفينيقية. أما النماذج الفلسطينية القديمة من الكتابة الكنعانية الأم فكُتبت بكلا الاتجاهين وعمودياً، مع أن هناك ميلاً متزايداً في الكتابة من اليسار الى اليمين. وأن بعض التفاصيل في تسلسل أو تعاقب الحروف - ترتيبها الأبجدي - يورث انطباعاً بأن أبجديتها ربما نشأت في فلسطين وليس في فينيقيا.

المقطعية والأوغاريتية: كانت الكتابة المقطعية في آسيا الغربية التي ظهرت إما بالصيغة المسمارية (كالسومرية، والأكدية، والعيلامية، والأورارطية، والفارسية القديمة) أو بالهيروغليفية (الصورية) كما هي الحال في الكتابة المصرية والحشية، وربما الأورارطية الأقدم، أو فيما عدا ذلك في نظام الرموز الخطية كما هي الحال في الكتابات الكريتية والميسينية والقرصية، كانت هذه كلها سبقت الأبجدية الخطية الفينيقية التي يتبناها معظم شعوب البحر المتوسط.

على أن أقدم نظام كتابي أبجدي معروف كان في رأس الشمر في القرن الرابع عشر ق. م. في أوغاريت القديمة على الساحل السوري. كان نظامها مسمارياً مبسطاً جداً، الى ثلاثين علامة فقط (بالمقارنة مع المسمارية السومرية المؤلفة من أكثر من ٥٠٠ علامة مقطعية - المترجم)، لكنها لم تكن مشتقة من المقطعية المسمارية، لأن العناصر الصورية الموجودة في العلامات الأوغاريتية المسمارية، هي أقرب الى الصور الكنعانية الأم، كما أن تسلسل أو تعاقب الحروف في الأبجدية الأوغاريتية هو من طراز التعاقب الأبجدي السامي الأخير.

وكل الأدلة تشير الى أن الأوغاريتية كانت واحداً من النماذج التجريبية الكنعانية لكتابة الأبجدية، لكنها مصممة للكتابة على الطين الذي كان أصلح مادة للكتابة المسمارية. ومع ذلك فإن الطبيعة

التجريبية للأبجدية الأوغاريتية تظهر في الابتكارات الجديدة التي لم تكن معروفة في أية أبجدية سامية أخرى.

الأبجدية اليونانية: إن الخلاف لا يقتصر على تأريخ استعارة اليونانيين الأبجدية الفينيقية فحسب، بل كيف وأين تمت الاستعارة أيضاً. فقد تحدت إلينا كتابات إغريقية قديمة أكثر بكثير من الفينيقية، حتى باتت المقارنة بين عدد كبير من التهجيات المختلفة تغطي مساحة واحدة من جهة (يونانية) وبضعة نقوش من منطقة محدودة من جهة أخرى (فينيقية) مما يعقد علينا مسألة البت في الموضوع.

وثمة كثرة من الحروف اليونانية يمكن مقارنتها مع أقدم النماذج الفينيقية يتراوح تأريخها بين ١٠٠٠ - ٨٥٠ ق . م. (نقوش أحيرام وسنجرلي المبكرة). وهذه المقارنات الدقيقة بين النقوش تمخضت عنها نظريات حديثة تفيد بأن اليونانيين ربما كانوا على معرفة بالأبجدية السامية منذ زمن مبكر يرقى الى حدود العام ١٢٠٠ ق . م. واستنسخوا النماذج الكنعانية الأم. وحتى الرأي القائل أن الدلتا (الดาล) والكابا Kappa (الكاف) اليونانيين لم يمكن استعارتهما قبل نظيريهما الفينيقيين في حدود ٨٥٠ ق . م، فقد ثقله في ضوء اكتشافات نقوش عزبة سرتة. أما من الجانب الأغريقي فإن الأدلة ترجع القرن الثامن ق . م. لبداية الكتابة، ومما يؤسف له أن المعلومات عن تطور الكتابة في فينيقيا بين ٨٥٠ - ٧٥٠ ق . م. ليست متوافرة إلا في الحد الأدنى، بقدر تعلّق الأمر بالقدم والمناطق، مما يجعل المقارنات في عدد من الحالات مؤشرات لا يمكن الركون إليها.

لكن هناك عاملاً مهماً آخر، وهو تاريخي، ففي حين ساد الاعتقاد

لسنوات بأن اليونانيين تعلموا الكتابة (ربما في مركز واحد أو على الأقل بصورة منسقة) في سياق مضارباتهم التجارية في سورية، في منتصف القرن الثامن ق . م. فإن الرأي القائل أنهم تعلموها من التجار الفينيقيين الذين كانوا مستقرين في مناطق مختلفة من اليونان (مثل رودس، وكوس، وكريت)، يحظى الآن بمزيد من الاعتبار، لاسيما بعد أن تم العثور حديثاً على نقش فينيقي يرقى الى حدود ٩٠٠ ق . م. في قبر كريتني هندسي في مدينة كنوسوس (الكريتية)، وهو أول نقش مبكر عشر عليه في منطقة إيجيه. وفي الوقت الحاضر لا يبدو أن النظرية القائلة بالاستعارة المبكرة، ومن ثم «الاستعارة ثانية» مقنعة. ومن ثم فإن معرفة «العراق» ربما تعود الى الفوارق بين المناطق. لكن هناك بينات أخرى تشير الى أن اليونانيين تعلموا الكتابة بصورة نظامية، وليس فقط عن طريق الاحتكاك العفوي مع التجار. أما في الوقت الحاضر فإن الرأي السابق القائل أن اليونانيين تعلموا الأبجدية في أثناء المرحلة «الاستشراقية» من مراحل حضارتهم القديمة (٧٥٠ - ٦٥٠ ق . م) لا يحظى بتأييد كبير.

ولم يعد كذلك أمراً لا يرقى إليه الشك، اعتبار اليونانيين مسؤولين عن انتشار الكتابة في مناطق أخرى من البحر المتوسط فالكتابة الاتروسكية لا تبدو أبجدية إلا جزئياً، وعلى أية حال فإن أقدم احتكاك للاتروسكيين مع اليونانيين في إسخيا Ischia لم يكن أقدم من النماذج الفينيقية والآرامية التي عشر عليها حديثاً في ذلك الموقع. ومع أنه لم يكن هناك تقليد في اسبانيا لاستعارة الأبجدية الفينيقية، فإن أقدم النصوص «التارتيشية» ظهرت على ما يبدو في بيئة فينيقية في حدود ٧٥٠ ق . م.

تنويعات على حرف الهاء

حرف الهاء؟ لعله أكثر الحروف الأبجدية أهمية، على الإطلاق! لأنه، في المقام الأول، يقترن بالتنفس. فهو، إذن، حرف الحياة والهواء. ولم يكن اعتباطاً اشتقاق كلمة «هواء» العربية من الهاء. وحرف الهاء، أيضاً، من أكثر الحروف تعبيراً عن الانفعالات. فهو، في المقام الثاني، يقترن بالضحك. من هنا قيل في العربية «هاها» أي قهقهه. وهناك تنويعات في العربية على الهأهأة. فعند زجر الأبل، أو سواها من الدواب تقول: «هىء هىء». وعلى هذا الغرار تستعمل «هىء» في العراقية الدارجة، وربما في سواها أيضاً من العربيات الدارجة، للنفي، بمعنى «لا».

من جهة أخرى يطلق صوت «هىء» عند الفواق. وهذا يذكرنا باللفظة الإنكليزية Hic أو Hiccup أو Hiccough التي تعبر عن الفواق أو الحازوقة. وهناك لفظة «ها» في اللغة العبرية، وتعني: انظر، لاحظ، عجباً! وفي العربية ترد الهاء للتنبيه أيضاً، كما في «هذا، هذا». وفي الإنكليزية يعبر صوت ha عن العجب أو الفرح أو الحزن وأحياناً عن الشك أو التردد، وفي لهجاتنا العامية تستعمل «ها» بما يفيد معنى الاستفهام. أما hi الإنكليزية فتستعمل لإثارة الانتباه، وهي موازية

للفظة hey، أيضاً. كما تستعمل «ها» في العربية الفصيحة كاسم فعل بمعنى (خذ)، نحو «ها الكتاب»، أي خذ الكتاب». ويجوز مدّ ألفها هاءً. أما «هَيَّ» فاسم فعل للأمر، بمعنى «أسرع في ما أنت فيه» و «ها هيا» من أسماء الأفعال أيضاً، ومعناها «أسرع». وفي هذا الإطار أيضاً يقال «هَلَمْ»، وهي كلمة بمعنى الدعاء الى الشيء، كتحال، وفي هذه الحال تكون لازمة غير متعدية. ويمكن أن تستعمل متعدية، نحو «هَلَمْ شهداءكم» أي أحضروهم. وفي هذا الإطار أيضاً يقال هَيْتَ أو هَيْتَ لك (بتثنية التاء، أي ضمها أو نصبها أو جرّها)، وتعني: هَلَمْ وتعال. وعلى هذا النحو نادت أو خاطبت امرأة العزيز يوسف.

وفي العراقية هناك تعبير هائي غريب، يلفظ على النحو الآتي: «ها أها»، ويراد به: هكذا، أو على هذا النحو، أو انتهينا، الخ. وأذكر أن غائب طعمة فرمان استعملها في حوار روائي. والهاء أداة التعريف في اللغة العبرية وبعض اللهجات العربية القديمة، مثل هيوم، بمعنى اليوم، وهليلة، بمعنى الليلة. والهاء تدخل في بعض الضمائر في اللغات السامية وغيرها. ولا حاجة بنا للدخول في التفاصيل.

وفي العبرية تستعمل «هاه» للتعبير عن الحزن أو الأسى، ومثلها «هو». وترد لفظة «هاوا» في العبرية في المعاني الآتية: (١)، يتنفس (وتقابلها مادة هواء في العربية)، (٢) يرغب، يهوى (وتقابلها هَوَى العربية)، (٣) يندفع نحو أي شيء، يسقط، يهلك. وتقابلها بالعربية هَوَى يهَوِي، بمعنى يسقط، أما «هاياه» العبرية فتعني (١) يكون، يوجد. (٢) يُصبح.

وإذا عدنا الى العربية، نجد أن «هَهْ»: اسم صوت للتذكرة والوعيد.

و «هَوَ»: تفجع. وأشرنا الى هَوِي، وهَوَى. أما (هيهات) بموسيقاها الهائية، فتعبر تماماً عن مدلولها اللغوي، الذي يفيد معنى الاحتمال البعيد. وقد تهاها سعدي يوسف في إحدى قصائده (منزل كافافي) في قوله:

«هذا الهواء هو هيهات هيهات هيهات

هذا الهواء الذي هو في هَوَ الآه، آه؟»

وأمر الهاء غريب في بعض اللغات، فقد يُلَيَّن ويلفظ كالهزمة، كما في اللغة اليونانية واللغة الفرنسية. إن Helen اليونانية تلفظ Elen، وكلمة Homme الفرنسية تلفظ Omme. وفي الروسية لا وجود لحرف الهاء. فهم يقولون Gitler ويعنون Hitler.

وتخفيف أو تليين صوت الهاء يقودنا الى الحديث عن حرف التوكيد (إِنَّ) التي تنصب المتبدأ وترفع الخبر، وقرائنها في اللغات السامية. فهذه الكلمة تلفظ بالهاء في بعض اللغات السامية - الحامية، وبالألف في سواها. ففي الأوغاريتية (الكنعانية) تلفظ (ه ن)، وفي العبرية (هَنَ)، وفي المصرية القديمة يلين حرف الهاء الى ألف وتلفظ الكلمة (إِنَّ). أما في العبرية فبالألف أيضاً في الصيغ كافة: إِنَّ، وأن، وإن. وفي مايلي أمثلة على استعمالاتها في هذه اللغات (أخذناها عن كلمة للباحث ولیم وارد منشورة في مجلة دراسات الشرق الأدنى، بعنوان دراسات مقارنة في المصرية القديمة والأوغاريتية): بالعربية «إِنَّ ابنك سرق». بالعبرية: «وهَنَ جمال يا إيم» (تلفظ الجيم على الطريقة المصرية)، وترجمتها الى العربية: «إِنَّ الجمال قادمة». وبالأوغاريتية: «ه ن. أَ ث ت م. ت ص ح ن»، وترجمتها الى العربية: «إِنَّ الزوجتين تصيحان». هنا (ا ث ت) تقابل (انثى).

وجاء في الكلمة المشار إليها «إن أقدم صيغة لهذه البنية في المصرية (القديمة) هي (إنْ) مضافاً إليها جملة اسمية. وهذه البنية لها ما يوازيها في اللغات السامية، كالعربية والأوغاريتية. بالعربية: «إنْ هذان لساحران». بالأوغاريتية: «Hn bpy sprhn»، ترجمتها: «إن عددهم في فمي». بالعبرية: «هن (Hen) عيسو أخي أش شعير»، ترجمتها: «إن أخي عيسو رجل مشعر».

وفي ضوء الصيغتين، المصرية القديمة والأوغاريتية، نحن نميل إلى الاعتقاد بأن الصيغة المخففة للنون في كلمة (إنْ)، أي من دون تشديد، كانت هي الأصل، في اللغة العربية أيضاً. أما تشديد النون فجاء في مرحلة متأخرة.

معناها المسافة عند العرب من منظور لغوي

قرأت في كتاب «معجم الأدباء» لياقوت الحموي تعليقاً بقلم محقق الكتاب، لا أذكر من كان: هل هو مارغليوث، أم محمد فريد أبو حديد، أم سواههما (مضى على ذلك سنوات عدة والمصدر ليس متوافراً لدي الآن في الغربة)، مفاده أن العرب اشتقوا كلمة «المسافة» من الفعل «ساف، يسوف» بمعنى: شم، يشم. واستشهد المحقق بيتين لأبي العلاء يفسران هذا المعنى، هما:

ولقد ذكرتك يا أميمة عندما

نزل الدليل الى التراب يسوفه

فهواك عندي كالغناء لأنه

حسن لدي ثقيله وخفيفه

(الثقيل والخفيف من إيقاعات الموسيقى العربية القديمة).

وتفسير البيت الأول أن الشاعر من شدة حبه لصاحبته أميمة أن ذكرها لا تبرح ذهنه حتى عندما يكون في أخرج الأوقات: على سبيل المثال، عندما يكون في سفر ويضل الموكب سبيله، فينزل الدليل من على دابته ليسوف التراب، أي يشمه، ويحدد - في ضوء ذلك - وجهة السفر

الصحيحة. ويفهم من هذا أن الطريق الذي قطعه العربي يسمى مسافاً أو مسافة، أي مُشَمّاً. ولاشك في أن طبيعة الصحراء الخالية من معالم بيئية واضحة، لم توفر للعرب سوى هذه الوسيلة لتلمس طريقهم في قطع الفياقي والمسافات.

ولمادة (ساف، يسوف) أكثر من معنى في المعاجم العربية من بينها: اشتم. والمساف: الأنف، لأنه يساف به، أي يشم، والمساف، والمسافة: البعد، وأصله من الشم. تقول «كم مساف هذه الأرض، ومسافتها، وسيفتها» أي بعدها. والمستاف: موضع الاشتمام، وكذلك الذي يقطع المسافات.

وتقصينا عن مادة (ساف) في اللغات السامية الأخرى، وحتى في المصرية الفرعونية، فوجدناها تعني: ينتهي، ينهي، يتوقف، يقف، يهلك، يتلاشى، يختفي، يحطم، يقضي على.

وترد في العربية بمعنى الهلاك. يقال ساف المال (= المواشي) أي هلك. أسافه الله: أهلكه. ولا بد أن (الأسف) جاء من هذا الجذر. وجاء في كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي أن الإسفاف: الدنو من الأرض والسفيف والإسفاف: المرور على وجه الأرض، كما يُسف الطير. والسفى: التراب.

وهناك معنى (الصبر، والتأجيل) في «سوف»، أي مظل. وسوف: حرف استقبال، أطول زماناً من السين.

ولم نجد في اللغات السامية - في حدود اطلاعنا - نظيراً لهذه المادة، نعني (ساف) بما يفيد معنى (شم). وبالتالي فإن (المسافة) لفظة عربية بحتة بمعنى التباعد.

وهناك كلمة (شم) العربية، وهي قريبة في لفظها من (ساف) وتفيد المعنى نفسه. وهي بالأكدية (شمو)، وتقابل (سم) في بقية اللغات السامية، وتعني عقار، دواء، مادة سامة. ويمكن ذكر كلمة soma السنسكريتية، وتطلق على نوع من النبات ينمو في شرقي الهند، أو على عصارتها. وفي الأساطير الهندية أن هذا العصير هو «رحيق الآلهة»، ويورث شاربته الخلود. وفيما بعد صار (سوما) رمزاً للقمر في أساطيرهم، ويقابله (هوما) باللغة الإيرانية القديمة.

والعربية تنفرد أيضاً عن الساميات في الكلمات التي تدل على السفر أو الارتحال. فمادة (سفر) أو (شفر) السامية تفيد أكثر من معنى في هذه اللغات، ليس من بينها ما يدل على السفر بمعنى الارتحال. فهي تعني: «يخط، ينقش، يكتب، يعد، يتكلم، يكشط، يحك، يصقل. ومنها الشفرة بالعربية. ومن هذا الجذر جاءت كلمة (صفر) باللغة العبرية، ويقابلها ظفر بالعربية. ومن معاني (سفر) أيضاً: بياض النهار. ومن هنا جاءت كلمة أسفر، ومنها السفور، بالعربية. أما كلمة (شفرفرة) العبرية فتعني: جميل. لكن سفر Safara الحبشية تعني: يقيس. وأشفر: مقياس. فهل يذكرنا هذا المعنى بالسفر، أي الارتحال في العربية؟.

وتنفرد العربية أيضاً في كلمة (رحل)، ومنها الرحلة، بالكسر، وتعني الارتحال، والرحلة، بالضم، وتعني الجهة التي يقصدها المسافر. والرحل (بتسكين الحاء): ما يجعل على ظهر البعير كالسرج. ولم نجد في الساميات نظائر لهذه المادة سوى (راحيل) العبرية، وجذرها غير مستعمل في هذه اللغة، لكن الكلمة تعني: شاة، خروف. وراحيل هو اسم زوجة يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم. وتقابلها (رخل) و (رخل) في

العربية، وتعني: شاة، نعجة. ويرى اللغويون أن (راحيل) العبرية، و(ارخل) العربية ترجعان الى كلمة (لاهار) Lahar السومرية، مع إبدال الحرفين الأول والأخير، وهي اسم ربة الأغنام عندهم.

ومن الكلمات التي تدل على معنى الرحلة في الآرامية والعبرية: درك، هلك. الأولى تقابلها (أدرك) العربية، بمعنى لحق. والدركة بالعربية هي الدرجة في حالة النزول لا الصعود، وتقابلها الدرجة للصاعد. يقال «الجنة درجات، والنار دركات». ومن الجذر (درك) جاءت كلمة (الدركي) (عن المنجد).

أما (هلك) فتعني في بعض اللغات السامية: يذهب، يمشي، طريق، رحلة. لكنها أخذت معنى الموت والهلاك في العربية.

وهناك (السبيل) بمعنى (الطريق) في اللغة العربية. وتقابلها (سبيلا) بالآرامية، و (شبيل) بالعبرية. وجذر هذه الكلمة يفيد في العربية معاني أخرى، مثل شتم، وسبل الستر، وأسبله: أرخاه. وأسبل الدمع: أرسله. وأسبل الزرع: خرجت سبلته. والسبل: السنبيل.

الاسم ، الوسم ، الوشم وأشياء أخرى

العلاقة بين الاسم والوسم واضحة. الأول يدل على تسمية ملفوظة، والثاني على علامة منقوشة. وعند بعض علماء الانثروبولوجيا أنهما، كليهما، يعبران عن شيء واحد يمثل طوعم العشيرة المجسد في حامل الاسم أو الوسم. ونجد مثل هذه المعادلة بين الاسم والوسم في اللغات الهندية - الأوروبية أيضاً. فالكلمة اللاتينية nota تدل على العلامة، وكلمة nomen تدل على الاسم. وكذلك الحال مع كلمة onotazo (علامة)، وكلمة onoma (اسم)، اليونانيتين. فأَي من هاتين المادتين أسبق من غيرهما، الاسم أم الوسم؟.

بعض الكوفيين (النحويين) يرى أن الاسم من الوسم. أما المستشرق البريطاني روبرتسون سميث (أوائل هذا القرن) فيرى العكس، أن الاسم أسبق من الوسم. ولعل رأيه أدعى إلى الصواب، فالبشر تسمّوا بالأسماء قبل أن يسموا الحيوانات أو بعضهم (العبيد والأسرى) بمجسم. ثم أن لفظة «اسم» مشتركة في اللغات السامية كافة، فهي بالأكدية شيمو، وبالأوغاريتية الكنعانية (ش م)، وبالأرامية shema، وبالعبرية shem، وبالحبشية sem. كما أنها مشتركة باللغات الحامية (شقيقات

الساميات)، فهي باللغة الكوشيتية البدوية sun، وبلغة (والامو) التشادية sin، وبلغة الهاوسا التشادية سونو.

ومن الفعل العربي (وسم) اشتقت السومة (بضم السين)، والسيمة، والسيما، والسيما، وكلها تعني «العلامة» جاء في القرآن الكريم: «سيماهم في وجوههم». وقال الشاعر «فإن عداك اسمها، لم تعدك السима». وقال الجوهري: «السومة: العلامة تجعل على الشاة، وفي الحرب أيضاً». واستشهد الزبيدي في قاموسه «تاج العروس» بالآية: «حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين» أي معلمة، أي عليها ختم. وقال المتنبي:

فدتك الهند وهي مسومات

وبيض الهند وهي مجردات

كما أن كلمة «سيم» العبرية تعني: وسم، علم، أشر. وهناك كلمة sema اليونانية، وتعني (علامة، دليل). ومنها جاءت كلمة semantics (علم المعاني أو الدلائل). ويشير جورج سارتون في كتابه «تأريخ العلم» الى أن كلمة sign الانكليزية، وباللاتينية signa، هما ترجمتان للفظة اليونانية semeia وتعني علامات الإلهة omina. ولاشك في أن هناك علاقة بين (السيما) العربية (أو السامية) وكلمة sema اليونانية، فأيهما مستعارة من الأخرى؟ أن صيغة الكلمة العربية في كافة ألفاظها تبدو مستعارة أكثر منها أصلية، لكن جذر الكلمة (وسم) أصيل في الساميات، الأمر الذي يدعونا الى الاعتقاد بأن الكلمة اليونانية ربما كانت هي المستعارة.

والوسم ظاهرة عرفت منذ القدم لتثبيت ملكية المواشي وتمييز العبيد

والأسرى ... تقول الأسطورة اليونانية أن قدموس - الفينيقي - عندما ذهب الى اليونان بحثاً عن شقيقته «أوروبا» التي اختطفها اليوناني زيوس Zeus، صادف في طريقه قطيعاً من البقر يعود للملك pelagon، فباعه هذا بقرة موسومة على خاصرتيها بدائرة كاملة، هي علامة القمر بدرأً (والعلاقة بين القمر والبقر معروفة ميثولوجياً). كما استطاع سيزيف ادانة اللص أوتوليكوس جد أوديسيوس بطل الأوديسة، بعد أن رسم حوافر ماشيته (هو سيزيف) التي سرقها فيما بعد أوتوليكوس، وكانت علامة الوسم حرفي ss مكررين. لكن حرفي ss المكررين هما صيغة اغريقية أحدث للعلامة () الأقدم التي كانت تدل على حرف s المكرر وترمز أيضاً لضم نصفي الشهر القمري مع بعضهما وما ينمان عنه: نمو وانحاق القمر، أو الزيادة والنقصان، أو المباركة واللعنة، الخ. فقد كانت المواشي ذات الصلغين المفترقين تُنذر للقمر، بحسب المعتقدات القديمة.

ومن مرادفات (وسم)، كوى، وتعني: احرق جلده بحديدة ونحوها. وكوى الثياب: أمرٌ عليها المكواة لتملس. وترد (كوى) العربية بمعنى (لدغ) أيضاً. يقول كوته العقرب. والكؤ، والكوة: الحرق في الحائط النافذة. ولا بد أن هذه المعاني جاءت من الجذر الذي يفيد معنى الحرق. وتقابل هذه الكلمة السريانية (كوا)، وبالعبرية (كوه)، وبالأكدية (كوؤو). وهناك كلمة kaio اليونانية، وتعني (يشعل، يشتعل)، ومنها جاءت الكلمة الانكليزية cauterize: يکوي، يعالج بالکي. ولا بد أن الكلمة اليونانية مستعارة من اللغات السامية.

وإذا عدنا الى مادة (وسم)، نجد أن اللغة العربية اشتقت من هذا

الجذر عدداً من الألفاظ والمعاني. فوسم وسمّاً وسمّة: كواه وأثر فيه بسمّة أوكي. والسمّة: العلامة. والوسم - أيضاً - شجرة ورقها خضاب. والوسمة: ورق النيل أو نبات يختضب به. والوسمي: أول مطر الربيع، سمي بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات. والوسام: مايوسم به الحيوان. ومنه جاءت تسمية النيشان الذي يعلق على الصدر، ويمنح للمتفوقين أو المتميزين في فعال ما. ومن هذا الجذر أيضاً، أي من (وسم)، اشتقت كلمة (الوسيم): حسن الوجه. واشتقت كلمة (الموسم)، وتعني: مجتمع الناس، ثم استعملت لوقت اجتماع الناس، لاسيما الحجاج وسوقهم... الخ.

ونحن نتساءل، ترى هل اشتقت كلمة (وسيم) من الوسم بمعنى الكي (في موضع بالجسم)، أو من صيغة الوسم (النيل)، فقد كان الاختضاب معروفاً عند العرب أيضاً... وهذا ينقلنا الى (الوشم) أيضاً، وهو غرز الإبرة في البدن وذر السخام عليه، فيترك رسوماً على الجلد ثابتة اللون. واستعمل الوشم في معظم أنحاء العالم، لاسيما عند ذوي البشرة الفاتحة. لكنه لم يعرف في معظم أنحاء الصين (على الأقل في القرون المتأخرة). ويعتقد معظم الشعوب أن نقوش الوشم لها غرض سحري ضد الأمراض أو سوء الطالع. كما يستعملها البعض كرمز للانتماء الى جماعة ما، أو لغرض اجتماعي طبقي. ووجد الوشم على المومياءات المصرية منذ حوالي ألفين قبل الميلاد. وتطرق الى ذكرها الكتاب اليونانيون في سياق الحديث عن الوشم عند التراقيين (شمال اليونان)، والاغريق، والغاليين، والجرمان القدماء؛ والبريطانيين القدماء. وكان الرومان يشمون العبيد والمجرمين. واستناداً الى بلينيوس، عالم

الطبيعيات الروماني، إن نساء وفتيات بريطانيا القديمت كن يخضبن كل أجسادهن بصبغة الوسمة في «طقوس معينة»، حتى لببدين أشبه بالحبشيات، ثم يخرجن عاريات، وكانت صبغة الوسم سراً نسائياً في إيرلندا القديمة، يحجب عن الذكور. وأشار أبولودوروس الى الرائحة الكريهة في تراقيا وجزر ايجة الشمالية، التي كانت تفوح من أجساد النساء من قبائل ليمنيا مما دعت الرجال هناك الى الامتناع عن معاشرتهن، لأن استخراج واستعمال هذه الصبغة يورث رائحة كريهة.

وفي الأمريكيتين كان العديد من القبائل الهندية يشمون الجسم أو الوجه أو كليهما. وبعض الأسكيمو وشعوب شرقي سيبيريا كانوا ينقبون الجلد بالإبرة ويسحبون خيطاً ملطخاً باللون تحت الجلد (السخام على الأغلب). وفي نيوزيلاندا ينقشون الوجه - كله أحياناً - بخطوط ومنحنيات متنوعة التصاميم وفي اليابان يشمون بألوان مختلفة ...

وجاءت كلمة tattoo التي تقال للوشم بالانكليزية وبقية اللغات الأوروبية من تاهيتي عن طريق جيمس كوك ويعثته في العام ١٧٦٩. وذكروا الوشم بالشامة أيضاً. يقال شام شيماً، أي ظهرت في جلده شامة، فهو وشيم، وهي شيماء. والشامة: الخال، أي بشرة سوداء في البدن حولها شعر. ويقال صاروا شاماً في البلاد، أي تفرقوا تفرق الشامات في الجسد.

ويمكن ذكر الشيمة، أي الخُلُق، والطبيعة، قال الشاعر: «أراك عصي الدمع شيمتك الصبر» ... وقد لا تنتهي القائمة عند هذا الحد. فهناك الفعل (سام) بمعنى: عرض السلعة وذكر سعرها، أو غالى بثمانها. وسام الأمر: كلفه إياه. وسامه خسفاً: أذله.

الصفير ، والصفر ، والضفدع

جليّ للعيان أن كلمة (صَفَرَ) من الألفاظ الصوتية، أو مما يدعى بأصوات المحاكاة الطبيعية. ومعناها يصوِّت بالنفخ من الشفتين. والصافر كل ذي صوت من الطير، وهو - أيضاً - ضربٌ من الطيور يصفر خيفة أن ينام فيؤخذ . ومنه المثل: «اجبن من صافر». والكلمة الأكديّة (البابلية) التي تقابل هذه المادة هي (صفارو)، وتعني: يتكلم، يصرخ. ومن بين معاني (صفر) العبرية: يسقسق، يغرد، طير. و(صفرا) بالسريانية: طير.

وتجدر الإشارة الى أن كلمة Spirare اللاتينية تعني: يتنفس. ومنها جاءت Esprit الفرنسية، بمعنى (روح، شبح)، وكلمة Spirit الانكليزية، وتعني: روح، شبح، الروح القدس، مزاج، حيوية، شجاعة، شخص، كحول ... ويرجح الدكتور أرنست كلاين في معجمه عن أصل المفردات الانكليزية أنها من الجذر الصوتي Spies (يصفر، ينفخ). ومن هذه المادة جاءت الكلمة السلافية Pisto وكذلك Piskati (يعزف على المزمار، أي ينفخ)، وربما الكلمة الهندية القديمة أيضاً Picchora (مزمар، ناي).

ويبدو أن هناك صلة بين مادة (صفر) و(العصفور)، فهو الطائر الذي يصفر أو يسقسق. فالعصفور بالأكديّة (اصوَّرو)، وبالأوغاريتية

الكنعانية (ع ص ر)، وبالعبرية (صفور)، وبالسريانية (صفرو). ثم أن الكلمة التي تقال للعصفور بالانكليزية Sparrow، وهذه ترجع الى الاسكندنافية القديمة Sporr، وبالألمانية القديمة Sparo، وبالبروسية القديمة Spurjilis، والعصفور باليونانية Spargoulos وكذلك Sporgilos. أما الزرزور باليونانية فهو Spar وكذلك Psaros. والصلة بين الألفاظ السامية والهندية - الأوروبية واضحة.

وإذا عدنا الى الجذر (صَفَر) نجد أن من بين معاني كلمة (صافر) العبرية: يستدير، يدور، يرقص في دائرة، يشب، يرقص. وتقابلها (ضفر) العربية، التي من بين معانيها (يشب في عدوه). ويرى غزنيوس في الترجمة الانكليزية لمعجمه عن المفردات العبرية للثوراة أن كلمة (صفردع) العبرية التي تقال للضفدعة، والمؤلفة من خمسة حروف مركبة على ما يبدو من الفعل (صفر) بمعنى (رقص، وثب) ومن كلمة (رداع) العربية التي تعني (الطين والماء)، لكأن المراد بذلك الوثوب في الطين والماء. وتقابل هذه الصيغة الخماسية العبرية، في العربية والسريانية، صيغة رباعية أكثر اختصاراً، هي (ضفدع) في الأولى، و(اوردعا) في الثانية. والضفدع بالأكدية مُصاعيرانو.

وللجذر (صفر) معان كثيرة في اللغة العربية، منها اللون الأصفر، كالذهب على سبيل المثال. ومنها الصُفْر، أي النحاس. ولا بد أن اللون (الأصفر) مشتق من الصُفْر، لون النحاس، لأن الكلمة الدالة على هذا اللون في اللغات السامية هي غير ذلك (مادة يرق، ومنها اليرقان. وهذه تقابل الورق بالعربية، والرقعة، بدون تشديد القاف، وهي الفضة في العربية). لكن (الصُفْر) العربية مستعارة، على ما يبدو، من السومرية،

لأن البرونز في هذه اللغة الأخيرة - أي السومرية - يقال له Siparo ، وفي مرحلة لاحقة Zabar. لكن هذه الكلمة السومرية مستعارة من لغة أخرى - عراقية - أقدم منها ، ليست معروفة الهوية أطلق عليها لغة الفراتيين الأوائل (وهو رأي يختلف بشأنه المؤرخون). وربما اشتقت منها أيضاً كلمة (قبرس) أو (قبرص). والقبرس بالعربية: أجود النحاس. وهذه الكلمة تفيد معنى النحاس في عدد من اللغات الأوروبية أيضاً. فكلمة Copper (نحاس) الانكليزية ترجع الى اللاتينية المتأخرة Cuper ، وهذه من أصل aes ciprium ، وتعني بالحرف الواحد (الصفير أو النحاس القبرصي). وترجع هذه الكلمة اللاتينية الى اليونانية khuprion ، وتعني (قبرص) ، وهي من كلمة khupros ، الاسم الذي يطلق على جزيرة قبرص ، لأن النحاس كان موجوداً بوفرة في هذه الجزيرة.

ويذهب الدكتور أرنست كلاين في قاموسه عن أصل المفردات الانكليزية الى أن اسم جزيرة قبرص Cyprus مشتق من Kuprios اليونانية ، وهذه من Kupros ، وتعني جزيرة السرو Cypress tree ، وأن كلمة Cypress (السرو ، أي شجر السرو) ترجع الى كلمة gopher العبرية ، وتعني (السرو) أيضاً. لكن الموسوعة البريطانية تشير الى أن كلمة Ku-pros اليونانية مقتبسة من الفينيقية (انظر تحت مادة Phoenicia). فهل هي كلمة gopher العبرية التي تقال للسرو؟ هذا وتجدر الإشارة الى أن شجر السرو بالأكدية يقال له Shurmenu ، وهي بالسومرية Me-Shur. ولا بد أن اللفظة العربية جاءت من الأكدية.

لكننا نميل الى الاعتقاد بأن الأصل يرجع الى اللفظة السومرية الدالة على البرونز ، ونعني بها Siparo ، لأن شهرة جزيرة قبرص كانت في

النحاس بالدرجة الأولى. أما السرو فموجود في كل مكان، من الصين حتى قبرص ... ويقال أن النحاس عُرف منذ العصر الحجري الحديث، أي منذ حوالي ٨٠٠٠ ق . م. لكن هذا المعدن كان يستخرج من قبرص على نطاق واسع منذ ٣٠٠٠ ق . م. وهذا جعل الجزيرة محط أطماع الغزاة: المصريين، فالآشوريين، فالفينيقيين، فالأغريق، فالرومان. ولعلها عُرفت باسم (قبرص) منذ أيام الفينيقين، لأنها قبل ذلك كانت تعرف بأسماء أخرى، من بينها (الآشيا).

وإذا عدنا - مرة أخرى - الى الجذر (صفر) في اللغة العربية، نجد أن من معاني (صَفَرَ): خلا. يقال صَفَرَ وطأه أو إنأؤه: إي هلك. صَفَرَ البيت: أخلاه. أصفر: افتَقَر وهو صَفَرٌ أو صِفْرٌ، أي ليس فيه شيء. والصِفْر، والصَفْر: هو اللا عدد في الرياضيات، أو المقدار الفاصل بين الأعداد الموجبة والأعداد السالبة. ولا بد أن هذه الكلمة جاءت من معنى (الخلو). وهذه أيضاً من الصغير، لأن المكان إذا خلا، صُفِر فيه الريح. فالأصل، على ما يبدو، هو المعنى الصوتي، وهو من ألفاظ المحاكاة الطبيعية كما سبقت الإشارة الى ذلك.

الكساء، الغطاء، الكفر، الغفران ...

من جذور لغوية واحدة

في لغات متعددة

كان الكساء من أقدم الهواجس التي شغلت بال الإنسان، لأنه لم يجد نفسه كبقية الحيوانات مكتسباً بشعر «غزير» أو صوف أو وبر أو فراء (ونحن لانتحدث هنا عن المراحل الموهلة في القدم من تاريخ الإنسان). وربما لأجل هذا نجد الكلمات التي تدل على الكساء، والغطاء، وحتى الجلد، مشتركة في بعض المجموعات اللغوية منذ القدم. فمن معاني (غطى) العربية: ستر، وارى، كسا. و (عطه) العبرية: ارتدى، اكتسى، تحجب. و (عطا) السريانية، و(خاتو) الأكدية: غطى. والجذر الهندي - الأوروبي quet يعني: غطى. ومنه جاءت الكلمة الإغريقية Khutos (جلد، غطاء)، والكلمة اللاتينية cutis (جلد)، وكلمة hide الانكليزية (يختفي، يخفي، جلد) ... الخ.

أما كلمتا (كفر) و(غفر) الساميتان فتعنيان بالأصل (غطى) أيضاً. ثم ذهبت الأولى لمعنى التجديف، والثانية لمعنى الغفران، لأن الساميين كانوا عند تقربهم لآلهتهم يقدمون لها التقدّمات من الطعام والشراب ونحو ذلك. ومن (يكفر)، أي يغطي هذه التقدّمات، فهو جاحد. ومن المجاز قولهم في العربية: الليل كافر، لأنه يستر الأشياء،

يغطيها. قال ثعلبة بن صغير:
فتذكرا ثقلاً رثيداً بعدما
ألقت ذكاء يمينها في كافر
وذكاء (بالضم): الشمس، وكافر: الليل، أي الحاجب.

وقال البهاء زهير:
ياليلِ طل، ياشوق دُم
إنني على الحالين صابر
لي فيك أجر مجاهد
إن صح أن الليل كافر

و (كفر) كلمة مشتركة في اللغات السامية وهي تعني: غطى، مسح، طلى، زفت، غسل، محا، نظف، كفر، جحد. وهذه المادة مشتركة في عدد من المجموعات اللغوية الأخرى، كمجموعة اللغات الدرايفية (في الهند)، والألطائية (التي تحدت منها لهجات اللغات التركية وغيرها). ولا نرانا بحاجة الى الدخول في التفاصيل، خشية الإملال.

و (غفر) الذنب بالعربية: غطى عليه وعفا عنه. وغفر الشيء: ستره. والغفرة: ما يغطي به الشيء. والمغفارة: رداء يرتديه الاحبار في الهياكل. والغفور: الكثير المغفرة. وعفره في التراب: مرّغه ودسه فيه: وعفر الشيء: بيضه. و (عافر) العبرية: أبيض، أو أحمر، وتعني أيضاً مشعر. وعافار: غبار ... ثم أن gafar العبرية، وكذلك aparو الأكدية، تعنيان: غطى، طلى، زفت. ومن هذه المادة ربما جاءت كلمة (كبريت)، وبالسرانية كبريتا، وبالعبرية جفريت (تلفظ الجيم على الطريقة المصرية)، وبالأكدية Kibritu، والكلمة العبرية تعني: زفت، قار. وهناك

معفرة بالعبرية، وتقابلها معفرة بالعربية، وتعني قبعة. ومثلها بالسريانية، حيث أن معفرة تعني: تاج الأسقف.

وكلمة (خفى) أو (أخفى) العربية تقابلها (حفه) بالعبرية، وتعني بهذه اللغة: غطى، ستر. وبالسريانية (حفا): اختفى. ومنها (حوايا): غطاء، ستر، حجاب، برقع، قناع. والخوف بالعربية: جلد يشق كهيئة الإزار يلبسه البنات والصبيان. وفي حديث عائشة: «تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليّ خوف». قال ابن الأثير: «... وهو ثوب لا كمين له». والحفة بالعربية: المنوال، وهو الذي يلف عليه الثوب. والحف هو المنسج، قاله الأصمعي. وفي لسان العرب: حفة الحائك خشبته العريضة ينسج بها اللحمة بين السدى. ولاحظنا أن كلمة ufi اليونانية، ومثلها ufos تعني: نسج. كما أن huph-ainein تعني: حاك، نسج. ويمكن ذكر weave الانكليزية التي ترجع الى wefan، وبالألمانية weben. و (حاك) بالسسنسكريتية: vay، وبالتوانية vej (تلفظ vey). ولعل هذه الألفاظ جميعاً، السامية والهندية - الأوروبية ترجع الى أصل واحد.

و (شمّل) العربية: لفّه بالشملة. والشملة: كساء واسع يشتمل به. جاء في المثل العربي:

أوردها سعدٌ، وسعدٌ مشتملٌ
ما هكذا تورّد ياسعدُ الإبلُ

و (شمله) و (شلمه) العبريتان تعنيان: ملابس. وهناك من يعتقد (على سبيل المثال يوزيف سيمونيس) أن اليد الشمال، أي اليسرى، إنما سميت شمالاً لأنها كانت تكسى أو تُشتمل باللباس، لأن الملابس

الخارجية - عند الساميين قديماً - كانت تُلقى على الكتف اليسرى، دون اليمنى.

و(لبس) مشتركة في اللغات السامية (ترد بصيغة لبش في بعض اللغات). وهذه الكلمة، شأن بعض الكلمات الأخرى التي تدل على الغطاء والستر تعطي معاني أخرى، كالنفاق، والغدر، والسلب. وهذه تتأتى من الاخفاء والتغطية. فمن معاني (لبس) عليه الأمر، بالعربية، خلطه وجعله مشتبهاً بغيره خافياً. وبإبدال الحروف تصبح (سلب). والسلب هنا تجريد السلب من كل شيء بما في ذلك اللباس. ونحن نراها مشتقة من (لبس). ومثل هذا يقال في مادة (كتم) السامية، فهي تعني اكتسى بالملابس، كما في الأكدية، وأخفى، أو حجب، الخ.

ومثل هذا أيضاً يقال في مادة (قبع) السامية التي تعني في العربية أدخل رأسه في جلده وتواري (القنفذ على سبيل المثال)، أو أدخل رأسه في ثوبه، الخ. ومن هنا جاءت (القبعة). وعلى غرار ذلك، أن (قوبع) العبرية: خوذة، ومجازاً تعني: يخدع، يراني، يسلب. لكن بعض الباحثين يذهب الى أن مادة (قبع) مأخوذة من لغة الفلسطينيين (سكان ساحل فلسطين الذين وفدوا الى المنطقة من الأناضول أو كريت عبر البحر في حدود القرن ١٣ ق . م) ففي إحدى اللغات الأناضولية القديمة يقال للخوذة Kupakhkhi (كوباخي). وهذه تذكرنا بكلمة (قبع) العراقية الدارجة المستعارة من التركية.

وبمناسبة الحديث عن القبع والقبعة، يمكن الإشارة الى كلمة (سدارة)، التي يستعملها الجنود الأميركيون كغطاء للرأس، وكانت تستعمل في العراق، وتسمى فيصلية أيضاً. فهي باللاتينية Cidaris،

وباليونانية Kidaris ، ويُعتقد أن هاتين اللفظتين مستعارتان من الفارسية. فكلمة Chatra الفارسية تعني «شمسية». لكن كلمة (كتر) في السريانية الحديثة تعني «مظلة، شمسية». و (كتر) العربية، ومثلها كتر: السنام المرتفع، و (كترت) العبرية: تاج العمود، أما (كتر) فتعني (تاج). لكن (كتر) الأكديّة: فطر، فالكلمة سامية الأصل على ما يبدو. و (كسا) العربية: ارتدى. واكتست الأرض بالنبات: تغطت به. و (كاساه) العبرية: غطى، ارتدى. أما (كسه) فتعني بدر، و(كسا) السريانية: اليوم الأول من البدر، وكذلك أيام البدر عند اكتماله. ثم إن مادة (ستر) سامية مشتركة أيضاً، فهي كذلك بالآرامية، و (ش ت ر) بالأوغاريتية: غطاء، أما (شاتارو) الأكديّة فتعني: ملابس عائلية. ثم إن الفعل (سربل) يعني: غطى (لباس، أو سواه)، وأصله من (سبل). وسبل أو أسبل الستر، بالعربية: أرخاه. وبالعبرية تعني: يحمل ثقلاً، أو عبثاً ثقيلًا. وسربل العبرية: ارتدى سروالاً أو بدلة. وهناك سربال، وسروال، بالعربية. قال الناظم:

أنا ابن عم الليل وابن خاله

إذا دجا دخلت في سرباله

وفي المنجد أن السربال: القميص أو كل ما يلبس. أما السروال فلباس يستر النصف الأسفل من الجسم. قال كعب بن زهير بن أبي سلمى: «من نسج داود في الهييجا سراويل». وهناك سربلين العبرية، وسارباله الكلدانية: سروال طويل فضفاض. وبالسريانية: سربلا.

وأنا لم أتابع أصل السروال، لكنني أملك أن أقول أن المصريين والساميين لم يعرفوا هذا اللباس في زمانهم، فهو لم يكن لباس البابليين

ولا الكنعانيين ولا الآموريين، ولم يعرفه الحثيون ولا أقوام البحر الذين غزوا تركيا وبلاد الشام في أواخر العصر البرونزي، ولم يعرفه العرب ولا الأغارقة أو الرومان. وأذكر أنني قرأت في مسرحية «رومولوس العظيم» لفردريك دورنمات أن الجرمان هم الذين أدخلوا لباس السروال أو البنطلون الى روما ... ومعروف أن الجوارى في أيام الأمويين والعباسيين كن يرتدين السراويل الفضفاضة، ولعل ذلك جاء من فارس. فالسروال بالفارسية يقال له (شلوار)، وبال يونانية Sarabara وكذلك Saraballa، وباللاتينية مثلهما، وبالإسبانية Cerulas وبالهنغارية والسلافية Schal-wary، وبالبولندية Scharmari .

العجلة ، الجولان ، الجالية ، الجيل ... من جذر لغوي واحد

أهي مجرد مصادفة أن تكون الكلمات الدالة على العجلة أو العربية، في ثلاث مجموعات لغوية، الى جانب اللغة السومرية، متشابهة أو متقاربة في لفظها، مع أن هذه المجموعات اللغوية مستقلة عن بعضها؟ فقد لاحظ العالمان السوفياتيان (قبل انفراط الاتحاد السوفياتي) توماس غامكر يلدزة وفياتشلاف ايفانوف أن العربية ذات العجلات كانت تسمى باللغة الهندية - الأوروبية الأم Keko، وباللغات الكارتفيلية (القفقاسية) grgr، وباللغات السامية galgal، وباللغة السومرية girgir. فهل اخترع العربية أحد الأقوام الناطقة بإحدى هذه اللغات ثم استعارها الآخرون اسماً وصناعة؟.

لكن الأمر المحير هنا هو أن أسماء العربية في مجموعتين لغويتين على الأقل (السامية، والهندية - الأوروبية) مشتقة من أفعال أصلية في كل من هاتين المجموعتين، سنتطرق الى ذكرها بعد قليل. وهناك حقيقة تاريخية لا لبس فيها هي أن أقدم نماذج للعربية تم العثور عليها جاءت من وادي الرافدين. فما السبيل الى حل هذا اللغز اللغوي (نعني به التشابه اللفظي مع احتمال ان الاستعارة قد تكون مستبعدة!).

من المعروف أن الكلمة الهندية - الأوروبية الدالة على العربية -Kek lo مشتقة من الجذر الهندي - الأوروبي Kel (يدور، يفتل، يشني، يلوي، يدور حول) وهناك اشتقاقات عدة في اللغات الهندية - الأوروبية من هذا الجذر، مما يؤكد على أنه - أي الجذر - لا يحتمل أن يكون مستعاراً (اللهم إلا إذا كان مشتركاً مع بقية اللغات أو بعضها، في مرحلة ضاربة في القدم). أما جذر كلمة galgal السامية فهو (جل)، أو (جال)، أو (جلل). ومن التكرار نحصل على الكلمة الدالة على العربية. وهذا التكرار اللفظي للجذر هو نحت لغوي منطقي لتسمية العجلة (في كل من هذه المجموعات اللغوية)، لأنه ينطوي على دلالة صوتية للفظ، تتأتى من حركة العجلة (وكانت دواليبها مصممة وثقيلة في بادئ الأمر، وتحرك بجلبة). من هنا جاء معنى الجلبة أيضاً في اللغة العربية، وهي كلمة صوتية.

وفي هذه المقالة سنكرس الحديث للجذور اللغوية لهذه المادة واشتقاقاتها في عدد من اللغات، لننتقل بعد ذلك (في مقالة أخرى) إلى تأريخ العجلة ومواطن ابتكارها الأولى.

إن مادة جلل (تلفظ الجيم هنا على الطريقة المصرية في معظم اللغات السامية، عدا العربية) تعني: يدور، يتدحرج، مدور، ومنها اشتقت كلمة gullatu الأكديّة، وتعني: انتفاخ، كرة. ولا بد أن الكلمة العراقية الدارجة gulla منحدرّة منها. وكلمة galgal العبرية تعني (عجلة)، و gall السريانية (مدور)، وكلمة gal الأوغاريتية الكنعانية: إناء مدور. وكلمة galg الامهرية الحبشية: مدور. ثم أن كلمة (عجلة) العربية، والعبرية، والآرامية (عجلتا)، مشتقة من الفعل (عجل) الذي

يعني في اللغتين الأخيرتين: يدور، يتدحرج، لكنه يعني في العربية: يسرع. وهذا الجذر (عجل) يرجع الى مادة (جلل). فإذا عدنا الى الجذر الأصلي (جلل) نجده يذهب أولاً الى معنى التدوير والتكور والدرجة، كما هي الحال في كلمة (جلجل) التي تفيد معنى العجلة، وكذلك يعني (دوامة) في العبرية. كما تعني كلمة galalu باللغات السامية الغربية، واستعارتها منها الأكديّة أيضاً: حصاة. أما (جليل) العبرية فتعني: حلقة، وكذلك: درجة، استدارة، وتعني أيضاً: محيط بقعة ما أو البقعة الواقعة ضمنه. وهناك منطقة الجليل التي كانت موطناً للفينيقيين في فلسطين. وتعني (جلجلت) العبرية: جمجمة. سميت كذلك لاستدارتها، وتستعمل هذه الكلمة أيضاً عند إحصاء الأفراد، بما يعني كذا رأس، وذلك على غرار اللاتينية Caput، والألمانية Kopf، والانكليزية heads. أما في العربية فستعمل كلمة (رأس) في إحصاء الماشية.

ثانياً، يرد استعمال مادة (جلل) في الأشياء الثقيلة، والكبيرة، كالتي تُدحرج ولا تحمل. من هنا فإن (جل) العبرية: كومة أحجار. و (جوليم): جذوع. سميت كذلك لأنها تُدحرج. و (جلال): حجر كبير (بالعبرية). وتستعمل، ثالثاً، في ما يدل على أمواج المياه التي تندفع الى أمام، كما الدرجة، مثل كلمة (جل) العبرية.

أما مادة (جلّ) العربية فمن معانيها: كبر في الحجم، وهو قريب من المعاني السابقة. والجلّ: الضخم. والجلل: العظيم. والجلّة: قُفّة كبيرة. ومن هذا الجذر جاءت معاني التجلّة والإجلال، الخ.

إذا انتقلنا الى كلمة (جال) نجد أنها تعني: طاف، دار. والجوال، والجوالة: الكثير الجولان. والمجال: محل الجولان. وأنجال الغبار: ارتفع

وانتشر. والجَوْلان والجَوْلان: التراب الذي تجول به الريح على وجه الأرض.

وهناك الفعل جلا، بمعنى خرج (عن بلده ومنه). والجالية، مؤنث الجالي: الغرباء هاجروا من أوطانهم وتوطنوا البلاد التي نزلوا فيها. وكلمة (جولاه) العبرية تعني: جلا، أفرغ الأرض من سكانها. وتعني: منفى، أو عصابة من المنفيين. وتقابلها في العربية جالة، وجالية: منفيون. وربما اشتق اسم هضبة الجولان السورية من هذا المعنى، أو من معنى جولان التراب. والجيل: الصنف من الناس، أو أهل الزمان الواحد، أو القرن، كما تعني بالعربية والعبرية. ولا بد أن المعنى الأصلي للكلمة يرجع إلى التدوير.

أما العجلة في اللغات الهندية الأوروبية فهي باليونانية Khukhlos، وبالسكسكريتية Cakrah، وبالإيرانية القديمة Caxra، وبالسلافية القديمة Kolo، وبالانكليزية Wheel، وترجع إلى الاسكندنافية hvel أو hjol.

ويلاحظ أن العجلة تقال للدولاب وللمركبة، وهي بالأصل تعني الدولاب. واستعمل منير البعلبكي في قاموسه (المورد) كلمة (المعجلة) في مقابل Chariot الانكليزية، وهي العربة الخفيفة السريعة، وقد تشتمل على أربع عجلات أو اثنتين. وكانت تستعمل للقتال والسباق والصيد والابهة قديماً. أما كلمة (مركبة) العربية فمن الفعل (ركب)، وهي سامية، واستعارتها المصرية القديمة من السامية. لكن كلمة (عربة) ليست عربية، بل يونانية، كانت تعني بالأصل سفينة، فالعربات سفن رواكد كانت في بغداد، واستعملت الآن بمعنى المركبات.

خواطر عن الألوان في اللغة العربية وسواها

يبدو أن ذخيرة العرب الجاهليين من المفردات الدالة على الألوان كانت فقيرة. فهم - على ما نحسب - لم يعرفوا اللون البرتقالي، على سبيل المثال. لربما كانوا يعتبرونه أصفر (أو أحمر؟). ولعلهم لم يعرفوا اللون البنفسجي أيضاً. أو لا بد أنهم عرفوه، لكنهم لم يجترحوا له اسماً. فإذا احتكنا إلى اللغة نرى أن الألوان التي عرفوها هي ما جاء على وزن «أفعل» كالأبيض، والأسود، والأحمر، والأصفر، والأخضر، والأزرق. وكذلك: الاسحم (وهو الأسود) والأدهم (الأسود أيضاً) والأطلس، وهو (الأغبر إلى سواد)، والأبلق (ما كان في لونه سواد وبياض)، والأصحر (ما كان أغبر في حمرة، ومنه اشتقت كلمة الصحراء، على ما يبدو)، والأصهب (الذي يخالط بياضه حمرة) ... الخ. ولاندري ما هي عراقية كلمة «الأزرق»، أو هل هي عربية النجار حقاً؟ أما كلمة «الأصفر» فمشتقة من الصفر، أي البرونز. ولعلها كلمة غير سامية، وإن كانت معروفة في معظم اللغات السامية (بالأكدية SIP-PARU. وبالأوغاريتية ص ف ر). وأما كلمة «أخضر» فكنا نقول أنها مستعارة من اليونانية AGOUROS التي تفيد هذا المعنى، وقد يعزز ذلك أن اسم «الخضر» - الملاك المعروف في القصص الدينية والروايات

الشعبية - وهو الاسم المقابل للاسم GEORGE أو GREGORY. لكننا لاحظنا أن كلمة (حصر) العبرية - وهي لغة سامية - تعني «أخضر»، وأن «حصير» تعني «عشب»، والعشب أخضر، كما هو معروف. مع ذلك، فإننا نعتقد بأن كلمة «أخضر» حديثة نسبياً في العربية، لأنها ليست مشتركة في اللغات السامية. ولعل لفظة (ي ر ق) السامية أعرق منها. ومن هذا الجذر جاءت كلمة «ورق» العربية التي تقال للفضة وللورق النباتي. وبالأكدية أرقو: أصفر، أخضر. ويرق السريانية: أصفر. و (ي ر ق) الأوغاريتية: ذهب، أصفر. ويرق العبرية: أخضر، خضرة. والظاهر أن هذه الكلمة كانت تفيد معنى الخضرة، والصفرة، واللون الشاحب. ومنها جاءت كلمة «اليرقان»: داء الصفرة.

ولفظة «أسود» العربية حديثة أيضاً، على ما يبدو، لأنها ليست مشتركة في اللغات السامية. في مقابل ذلك نرى أن الجذر (ح ل ك) كان يفيد معنى السواد في اللغات السامية. أما «أحمر» فهي كلمة سامية قديمة تفيد معنى الحمرة، وتقال للطين أيضاً (من لونه الضارب الى الحمرة). وللحمار (كذلك من لونه الضارب الى الحمرة)، وللخمرة، والجذران حمر وخمر من أصل واحد).

والظاهر أن الشعوب القديمة لم تكن تميز كثيراً بين الألوان المتقاربة في درجة لونها، كالأخضر والأصفر، والأصفر البرتقالي، والأحمر وبقية الألوان القريبة منه. وحتى الأسود والأخضر كانا شيئاً واحداً في قول العرب «أرض السواد».

وقد قال ابن سينا أن أصل الألوان كلها السواد والبياض، أما الباقي فمركب منهما. وهذا صحيح إذا علمنا أن الأبيض هو جماع ألوان

الطيف الشمسي وإذا ازداد أي لون دكنة فإنه يصبح أقرب الى اللون الأسود، أو يصبح أسود بالفعل، وكلما خف اللون بات أقرب الى اللون الأبيض.

وكان الأبيض لون الأمويين، والأسود لون العباسيين، وإن كان المأمون استبدل الأسود بالأخضر. وكان اللون الأزرق غير مستحب عند العرب، كقولهم للعدو «هو أزرق العين». ومن أمثالهم «اشأم من البسوس»، ليس فقط لأنها كانت سبب الحرب بين قبيلتي بكر وتغلب، بل لأنها كانت زرقاء العينين، على ما يقال. وتشاءم العرب من اللون الأحمر أيضاً، في قولهم «اشأم من أحمر عاد»، ربما لأن الأحمر لون الدم، والنار، والغضب. لكنهم كانوا يعتبرونه لون الحسن والجمال أيضاً: «إن الحسن أحمر». وعند عرب الجاهلية كان أهل العروس يرتدون ملابس مصبوغة باللون الأصفر، لأن الصفرة كانت علامة العرس والفرح والسرور عندهم. ولعل ذلك راجع الى استعمال الزعفران في مثل هذه المناسبات.

ونحن نعتقد بأن العرب أخذوا كلمة «اللون» من لفظة «لون» العربية الجنوبية القديمة (لغة اليمن القديمة)، التي كانت تقابل كلمة «لبن» السامية، وتعني «أبيض» في اليمنية القديمة. وأخذ العرب كلمة «أبيض» من الجذر «باض»، للدلالة على اللون الأبيض. ويقابل ذلك باللغة العبرية «بوص»، وتعني «أبيض، ومن هذا الجذر جاءت كلمة بيضة»، وبالعبرية «بيصه». ويمكن ذكر الكلمة الفارسية «بوزه» وتعني «أبيض»، والانكليزية WHITE، والألمانية WEISS، والألمانية الفصحى BIESS وتعني «أبيض» أيضاً. لكن المعاجم الأوروبية تعود بهذه

الألفاظ - الهندية الأوروبية - الى الجذر الهندي الأوروبي - KWEID الذي يعني «يسطح»، يلمع، أبيض. و «البوص» هو القماش الناعم من أقمشة العصور القديمة. ومن هذه الكلمة جاءت الكلمة اليونانية BUS-SOS، ومنها الانكليزية BYSSUS، وهو قماش كان يستعمل لباساً للملوك. وهذا يذكرنا بكلمة «البز» العربية التي تقال للثياب من الكتان أو القطن، وللسلاح أيضاً. ومنها جاءت كلمة «البزاز»، أي بائع القماش.

وتذكرنا كلمة BUSSOS اليونانية بالبسوس العربية. إلا أن معاجمنا تقول أن «البسوس» تعني الناقة التي لاتدر إلا على الإبساس، أي عندما يقال لها: يس يس، وذلك تلطفاً عند الحلب. فهل سميت البسوس تشبهاً بالناقة، أم من كلمة BUSSOS التي تقال للملابس الناعمة المترفة، آخذين بعين الاعتبار أن البسوس كانت زرقاء العينين. وقد كان احتكاك العرب باليونان قوياً منذ أيام الجاهلية (عن طريق الشام)، الى حد أن الاستعارة اللغوية بين الطرفين كانت جارية على قدم وساق، وهو موضوع سنتطرق اليه في مناسبة أخرى.

وعلى ذكر «البز» وعلاقته بالبياض، لاحظنا أن كلمة «الحرير» العربية مشتقة، هي الأخرى، من كلمة تدل على البياض، ونعني بها كلمة «حار، حوراً» الثوب: بيضه. والخور: الجلود البيض الرقاق، والبقر لبياضها. والحواري: القصار. والحواري: الطحين الأبيض. وقواميسنا تشتق كلمة «حرير» من الجذر «حر». لكننا نعتقد بأنها من الجذر «حور» لأن «حور» الآرامية تعني «أبيض» ومثلها العبرية تعني: كتان أبيض، بياضات.

بعد هذا الاستطراد نعود الى مادة (ل ب ن) الساميّة، التي تعني ما يلي: أبيض، حليب، رائب، طين، لبن، آجر، لبن، بخور، الخ. وهذه المعاني كلها تلتقي في البياض. ومن هذا الجذر اشتق اسم (لبنان)، وذلك من بياض الثلج الذي يكسو جزءاً من السلسلة الشرقية من جباله، وكان لبنان يدعى بالعربية جبل الثلج.

وثمة ما يدعو للاعتقاد بأن اسم بريطانيا القديم، وهو «ألبيون» ALBION، وتعني هذه «الإلهة البيضاء»، وهي أقدم النساء «الدانيّات»، على عهدة الأسطورة، بنات دانوس (دان). وأن كلمة AL-BINA لها صلة بكلمة ALPHOS اليونانية التي تعني «برص، أبيض كامد»، وتقابلها باللاتينية ALBUS. ومن كلمة ALBINA جاء اسم نهر ألبا ELBA (وباللاتينية ALBIS). كما أن نهر ALPHEUS اليوناني يعني «الأبيض». ومن هذه المادة جاء اسم جبال الألب ALP، وهو باللاتينية ALBOS، وبالـيونانية ALPHOS. وقد سميت جبال الألب بذلك على غرار جبال لبنان، لأن القمم المرتفعة منها تكسوها ثلوج دائمة، فتكون بيضاء.

وتقول الأسطورة اليونانية إن إله النهر الفيوس ALPHEUS (أي الأبيض) ابن ثيتس (حورية الماء)، جرّو على مطارحة أرتميس الغرام، وملاحقتها من أقصى اليونان الى أقصاها - وهو كناية عن جريان النهر - الى أن وصلت لـيتـرنـي في إيليس، وهناك عمدت الى تجصيص وجهها، ووجه صويحباتها الحوريات، بالطين الأبيض، لكي تستعصي على الفيوس معرفتها من بين زميلاتهما. وبذلك اسقط في يده، وعاد يجـر أذيال الخيبة. ويقول روبرت غريفرز أن هذه الأسطورة قد يكون الغرض

منها تفسير ظاهرة تجسيص الوجوه بالخص أو الطين الأبيض التي كانت تمارسها كاهنات الإلهة ارتيمس في ليترني وأورتيغيا، إكراماً للإلهة هناك، طقساً سرياً للفتيات المقبلات على الزواج، وفيه يتوجهن الى النهر ربما قاصدات مزار ارتيمس الواقع على ضفنه، ليلطخن وجوههن لكي يكتسبن القوى الواهبة للحياة من الماء. وتذكرنا هذه الأسطورة بالطين الأبيض أو ما يدعي في العراق طين خاوة، الذي كانت النساء العراقيات - وربما لا يزال بعضهن - يغسلن به شعورهن عند الاستحمام.

وليس من الصعب إدراك العلاقة بين الكلمات «البينا» و «البون» و «الفيوس»، الخ، التي تفيد معنى البياض في اللغات الهندية - الأوروبية، وبين كلمة «لبن» السامية التي تذهب الى معنى البياض أيضاً. فهل نعتبرها من الجذور المشتركة بين المجموعتين اللغويتين السامية - الحامية، والهندية الأوروبية؟.

مفهوم «الأسرة» سوسولوجياً ولغوياً عند الساميين والصينيين واللاتين

كلمة «الأسرة» العربية، مشتقة من الفعل «أسر»، ويعني: شد (الأسير) بالأسر أو القيد. والأسير: الأخيذ أو المقبوض عليه. وكان الأسرى في القديم يستعبدون - إن لم يُقتلوا - وغالباً ما كانوا يكلفون برعي الماشية، أو العمل في الزراعة، أو الصناعات اليدوية، أو في البيوت. وتأتي كلمة (القين) السامية مصداقاً على ذلك، فهي تعني (عبد)، (صانع) في وقت معاً. وكان العرب، شأن غيرهم من الأقوام والأمم، يتزوجون النساء الأسيرات أو السبايا، أو يلحقونهن في نظامهم الأسري أو العائلي. من هنا، على ما يبدو، نشأ مفهوم «الأسرة».

و (أسيرو) الأكديّة: أخيذ، أسير حرب، وكان يكلف بالخدمة والعمل. وكلمة «أسر» العبرية تعني: أسر، قيد. ومثلها السريانية، والحبشية. وتجدر الإشارة إلى أن كلمة (أسيرتو) الأكديّة أو الآشورية يقصد بها الأسيرة أو المحظية.

فاللغة تُمدنا، هنا، بمعلومة ثمينة حول نشوء الأسرة، عندنا، من الأسر. والأسر يقترن بالاستعباد. من هنا يتضح أن الأسرة، في بادئ تكوينها، لم تكن مقتصرة على الزوج والزوجة وابنائهما، كما هي الحال

اليوم، بل على الأب - أو الشيخ - والزوجة أو الزوجات، والإماء، والعبيد الملحقين في خدمة البيت.

وجدير بالملاحظة أن اقتران مفهوم الأسرة بالأسر والعبودية لا يقتصر على العربية وحدها، بل نجده في الصينية، واللغة اللاتينية أيضاً، ما يلقي ضوءاً على تكوين الأسرة في معظم المجتمعات البشرية بصورة عامة. فكلمة «PI» الصينية، التي كانت تستعمل في القرنين الثالث والثاني ق . م.، تعني «عبدة»، و «ضيعة» على حد سواء. وكانت تطلق أيضاً على المحظية أو الزوجة إذا كانت من أصل ضيع. ثم استعملت كلمة أخرى للعبدة بعد القرن الثاني ق . م.، هي «NU»، وهي نفس العلامة لليد، وللمرأة. ويقول بوليبلانك Pullyblank: هناك كلمة أخرى مطابقة في اللفظ لكلمة «NU» (عبدة)، لكنها تكتب بصورة مختلفة، وتظهر في نصوص أسبق، بمعنى «طفل»، أو «زوجة وأطفال»، ويضيف قائلاً: ليس هناك ما يدعونا إلى أن نشك كثيراً، كما اعتقد، بأن الكلمتين متطابقتان وأن معنى «العبد» اشتقاق متأخر من المعنى الأصلي: طفل وزوجة وأطفال. ويقول مارتن ولبور Martin Wilbur «أن كلمتي (عبدة) و (محظية) تردان أحياناً بمعنى واحد».

كما يتفق المفهوم العربي لمعنى الأسرة تمام الاتفاق مع المفهوم اللاتيني لها. فالكلمة التي تفيد معنى الأسرة باللاتينية تعني بالأصل: الخدم أو العبيد، كما يقول أوغست كونت (عن كتاب الدكتور نوال السعداوي: الانثى هي الأصل، ص ٥٣). وجاء في هذا الكتاب أن علماء اللغة لاحظوا أن كلمة Family ترجع إلى مادة Famel الأوسكانية التي جاءت منها كلمة Famulus اللاتينية، أي العبد (ص ٥٣، وكذلك

(٢٣٦). وفي كتاب أصل العائلة والملكية الخاصة لفردريك انغلز: «إن كلمة Famulus تعني العبد البيتي، وكلمة Familia تعني مجموعة العبيد الذين يخصّون رجلاً واحداً». وكانت العائلة عند الرومان تشتمل على الأشخاص و الممتلكات المنقولة (أو الأشياء). وحسب تعبير أرسطو: «وهكذا، فمن هذين الشكّلين للمعايشة - الزوج والزوجة، السيد والعبد - ينشأ النوع الأول من الجماعة: العائلة. ويلهج شعر هزبود بالحقيقة القائلة أن البيت، قبل كل شيء، زوجة، ثم الثور حارث الأرض. وعند الفقير يحل العبد محل الثور» (السياسة).

وتجدر الإشارة أيضاً الى أن كلمة «عَبْداء» العبرية والسريانية تعني: عائلة، خدم. وأن الفعل «عبد» العبري يعني: يشتغل. ويعني بالسريانية: يُنفذ، يفعل، يقوم بـ، أي ما يقابل to do بالانكليزية. وتعني الكلمة أيضاً: خدم، قام بمراسيم العبادة. وتتداخل في مادة (عبد) معاني الخدمة والعبودية والعبادة (والعائلة في بعض اللغات السامية). وتؤكد اللغة على أن العبودية والعبادة شيء واحد، مثلما تعني كلمة «رب» إلهاً، وأباً أو سيّداً، في الوقت عينه. ويعزو روبرتسون سميث هذا التداخل بين الخدمة والعبودية في مادة «عبد» الى طبيعة اللغات السامية في تعابيرها المهدبة الرقيقة. فعندما يخاطب رجل إنساناً أعلى منه شأنًا يدعوّه بياسيدي، ويطلق على نفسه كلمة «عبدك». وهذا يصدق، كما يقول سميث، على العبرية والآرامية والفينيقية، وحتى العرب في قول شاعرهم القديم (حاتم الطائي):

وإني لعبد الضيف مادام ثاوياً
وما في إلا تلك من شيمة العبد

وتعتبر كلمة «تيم» مرادفة لكلمة «عبد»، بيد أن الكلمة - الأولى - مائة في العربية، عدا الأسماء المركبة (القديمة)، مثل تيم الله، وتيم ذو شرا. ولعل الجذر يعني «أسير» الذي يستعمل مجازاً للمتيم (وهو من أضناه الحب)، كما يقول روبرتسون سميث. والتيمة: الشاة تغلف وتحلب في البيت، ولا ترسل للرعي. من هنا، ربما كانت مادة (تيم) تعني: منزلي. (روبرتسون سميث).

إذا عدنا الى موضوع الأسرة نرى أن بعض اللغات السامية استعمل كلمة «أهل» للدلالة عليها، وهذه الكلمة تعني بالأصل: خيمة. هكذا تعني بالكنعانية الأوغاريتية، وبالعبرية. وتعني بالأكدية بلدة. أما في العربية فأخذت معنى العائلة أو الأسرة، لأن العائلة العربية كانت تسكن الخيمة.

وكلمة «عائلة» من الفعل «عال» ويعني افتقر، فهو عائل، وهي عائلة. والعالة: الفاقة. يقال «هو عالة عليهم»، أي أنهم مضطرون الى عياله. والعائلة: أسرة المعيل، لأنه يعيلها.

أما في بقية اللغات السامية فالفعل يرد بالواو بدل الياء، أي «ع ول» و «عاول» العبرية: يصبح شريراً، يشوه. و (عوال): شر، شرير. لكن (عول): يرضع، تُرضع (يستعمل للحيوانات). و (عول): رضيع، طفل. وبالسريانية: عولا.

ويقابل هذا الاستعمال الأخير، بالعبرية، (غال). و (الغِيل): اللبن يرضعه الرضيع عندما تكون الأم حاملاً، وهو مفسدة له. جاء في المثل: «أُم سقتك الغيل من غير حَبَل»: يضرب لمن يدينك ثم يجفئك ويقصيك من غير ذنب. ولاحظنا أن galact اليونانية تعني «حليب»، ومنها جاءت

كلمة gala وكذلك كلمة galakhtos، وتعنيان «حليب» أيضاً. وفي المعاجم أن هذه الكلمات اليونانية ترجع إلى اللاتينية lact التي تحدرت منها كلمة lait الفرنسية، وتعني (حليب). وهناك كلمة جلط (العريّة ومنها «الجلطة» وهي الجزعة الحائرة عن الرائب، كما جاء في القاموس. وهذه تذكرنا بكلمة galact أو glact اليونانية. و «اجتلط» ما في الإناء: شربه أجمع. و «الجلعطيط»: اللبن الرائب الشخين. وقارن galachtos اليونانية التي تعني «حليب». فما هو وجه الصلة بين الألفاظ اليونانية والعربية، إن كانت ثمة صلة؟*.

* أشرنا إلى ذلك في كلمة سابقة.

بحثاً عن جذور: الست، الجاوية، زنوبيا (زينب)، وغيرها

ليست هناك لغة في العالم خالصة النجار. وهذا ينسحب على العربية أيضاً، بطبيعة الحال. بل إن وجود مفردات غريبة في لغة ما يُعد إغناءً لتلك اللغة. فبفضل كثرة المفردات الفرنسية (وسواها) في الانكليزية، أصبحت هذه الأخيرة لغة غنية جداً في مفرداتها. أما العربية فقد اغتنت من لغات أخرى وأغنت سواها من اللغات. وليس يهمننا هنا تأثير العربية في سواها، فهو موضوع معروف. إن ما يهمننا الآن الإشارة الى أن العربية تأثرت حتى في الجاهلية بلغات الأقوام المتعاشية معها والمجاورة لها، كالآرامية والعبرية والحبشية والفارسية واليونانية والرومانية (بشأن هاتين اللغتين الأخيرتين، تمت الاستعارة عن طريق سورية التي خضعت للروم قروناً عدة قبل الفتح أو التحرير الإسلامي). وفي هذه الكلمة سأكتفي بذكر بعض المفردات اليونانية واللاتينية التي دخلت العربية قبل الإسلام وبعده.

الست: ابدأ بكلمة شامية، ليست عربية فصيحة، لكنها كانت ولا تزال تستعمل على نطاق واسع في ديار الشام (بالمفهوم الجغرافي الأوسع)، هي كلمة (الست)، بمعنى «سيدة»، وقد وردت في الشعر

العربي أيضاً، كما في البيت الآتي الذي ذكره أبو العلاء في رسالة الغفران:

ست إن أعياك أمري

فاحمليني زقفونة

يبدو أن الكلمة مستعارة من (أستي) اليونانية التي تعني «فتيات».

الجارية: وفي هذا الإطار، أنا أميل الى الاعتقاد بأن كلمة «جارية» العربية مستعارة وليست عربية كما جاء في القواميس. في القاموس أن الجارية: الأمة، سميت بذلك في الأصل لحفتها وكثرة جريها. ويقال «جارية بيّنة الجارية»، أي ظاهرة الفتوة. والجارية: الصبية.

وأنا أرى أن تسمية الصبية أو الأمة جارية لحفتها وكثرة جريها ليست مقنعة. وفي المقابل أرشح أصلاً آخر لهذه الكلمة هو كلمة Kore اليونانية التي تعني «فتاة». ولعل العرب استعاروا هذه الكلمة مثل كلمة «ست» من اليونانية عن طريق الشام أيضاً. و (كوره)، أيضاً، اسم لفتاة أسطورية هي ابنة ديمتر من زيوس (كبير آلهة اليونان القديمة).

زنوبيا، زينب: جاء في قاموس الدكتور أرنست كلاين عن اشتقاق المفردات الانكليزية أن Zenobia (زنوبيا) اسم علم، وهو من اللاتينية Zenobia، ويرجع الى اليونانية Zinobia، ويعني بالحرف الواحد «قوة زيوس»، حيث أن المقطع bia يعني «قوة»، ويقابله بالسنسكريتية Jya «قوة، بأس». وزنوبيا (٢٦٦ - ٢٧٢م) هي زينب أو الزباء عند العرب، وهي ملكة تدمر العربية، خلفت زوجها أذينة بالوصاية على ابنها وهب اللات، فتابعت سياسته التحررية من الرومان وفتحت مصر

وآسيا الصغرى، وأعطت ابنها لقب أوغسطس، وضربت النقود باسمها، فعرفت تدمر في عهدها أوج عزها. حمل عليها أورليانوس بجيش كبير فغلبها أمام أنطاكية وحمص في ٢٧٢م، واقتادها أسيرة الى روما حيث ماتت. وزنوبيا تسمى الزباء أيضاً عند العرب، وزينب.

وفي القاموس العربي أن «زنْب» زنبأ: سَمَن. والأزنب: القصير السمين. والزنب: الجَبَان، وشجر حسن المنظر طيب الرائحة. ونحن لانستبعد استعارة هذا الاسم من اللاتينية، مع أننا لانصر عليه. والعرب استعاروا أسماء أجنبية أخرى للإناث، كاسم «هند» و «مي»، وهذا الأخير من الصينية، على عهدة الباحث هادي العلوي.

القالب: ذكر عباس محمود العقاد في كتيبه «الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين» عدداً من الكلمات المشتركة بين العربية واليونانية أو العبرية، يرى أنها ترجع الى أصول عربية. من بين هذه المفردات كلمة «القالب» التي يعتقد بأنها انتقلت الى اليونانية وأصبحت تلفظ بهذه اللغة Kholopos. ويبدو أن العكس هو الصحيح، أي أن العربية استعارتها من اليونانية. ومما يعزز ذلك أن Khalopodion تعني باليونانية «قالب أحذية»، وهي مشتقة من Khalopodos، وتعني هذه «حذاء خشبي»، وهذه مؤلفة من قطعتين، هما Khalon (خشب) باليونانية، و Pous وهي صيغة الإضافة لكلمة Podos (قدم) باليونانية. جاء في قاموس أرنست كلاين أنها انتقلت الى العربية عن طريق الآرامية. وفي القاموس العربي أن القالب: ما يجعل في الخف ليستقيم. ويأتي هذا مطابقاً لمعنى الكلمة اليونانية.

كوشن: هذه الكلمة التي تكتب بالانكليزية Coushion، وتقابلها بالألمانية Kissen، وبالفرنسية Coussin، تلفظ بالعراقية الدارجة - على الأقل، فلا علم لي إن كانت معروفة بهذا اللفظ في عربيات دارجات أخريات - على غرار اللفظة الانكليزية Coushion، وتعني: وسادة، دثار، مهاد الصدمة. ومما تجدر الإشارة إليه أن الكلمة موجودة في اللغة الأكديّة منذ أقدم عصورها، وفي البابلية القديمة، والآشورية. بالأكديّة يقال لها gursanu وكذلك Kushanu وتعني: حقيبة جلدية أو غطاء جلدي، كما تعني وسادة، دثار. وقد استعيرت هذه الكلمة الى اللغة المصرية الفرعونية بما يعني جزء من طاقم العربية، أو دثار جلدي، أو عنان. ومصدرنا في هذه المعلومات كتاب جيمس هوخ مار الذكر. ويقول هوخ: مع أنه من المستبعد الى حد ما أن ترجع الألفاظ الأوروبية، المشار إليها أعلاه، الى مثلتها الأكديّة، فإن اشتقاق هذه الألفاظ الأوروبية من الكلمة اللاتينية Culcita (حشية) يبدو أبعد احتمالاً أيضاً.

البريد: ذكر بندلي صليباً الجوزي في كلمة نشرت في مجلة «الهلل» في ١٩٢٨ ثم أعيد نشرها في كتاب بعنوان «بندلي صليباً الجوزي: دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب» (دار الطليعة، بيروت ١٩٧٧) أن «البريد» Veredus من Veh-redo، وهي في الأصل الخيل، أو بالأحرى البغال التي كانت تنتقل عليها كتب الملوك، ثم الخلفاء وحاجاتهم، ثم كتب الوزراء وكبار الدولة وحاجاتهم. والبريد لم يكن معروفاً عند العرب قبل الإسلام (...) وأول من شعر بهذه الحاجة معاوية بن أبي سفيان، ثم تبعه صنوه في العبقريّة وحسن الإدارة عبد الملك بن مروان، ثم جاء عمر بن عبد العزيز فأقام

للبريد محطات يحط فيها طلباً للراحة وتبديل الخيل. وكانت المسافة بين المحطتين أو السكتين كما كانت تقول العرب اثني عشر ميلاً، والميل ثلث الفرسخ أو أربعة آلاف ذراع (عن الكتاب مار الذكر، ص ٣١٠). ولعل الفرزدق كان أقدم من ذكر «البريد» في شعره، في قوله حين صادف كلاباً سلّم عليها وهو سكران ولم ترد السلام:

فما رد السلام شيوخ قوم
مررت بهم على سكك البريد
ولا سيما الذي كانت عليه
قطيفة أرجوان في العقود

ونحن نتفق مع بندلي جوزي في استعارة كلمة «البريد» من اللاتينية Veredus. ويمكن ذكر «البرذون» العربية (أو المصرية)، وهي الفرس غير الأصيل، فهي الأخرى ترجع الى اللاتينية، كما يقول الأب روفائيل نخلة، وأصلها burdo، وهذه الأخيرة تلفظ في حالة الجر burdo-nis، وتعني: بغل. أما بندلي جوزي فيقول أننا أخذناها عن الفرس لا عن الرومان.

وذكر بندلي جوزي، وكان سبقه في ذلك المستشرقون، عدداً من المفردات العربية يرجع الى أصل يوناني أو لاتيني، مثل: بلاط، بلاد، السجل، القنينة، القرطاس، العسكر، الصومعة، اللجنة، المومس، السجنجل، الفرن، المسطبة، الفسطاط، المنديل، القفص، الريف، وأسماء النقود كالدينار والدرهم والفلس والنُصَيّ والدانق (لكن الرويل، والروبية مأخوذان من كلمة «ربع» العربية)، والقبان، والسلط، والميل، والأوقية، والقسط، الخ. وذكر بندلي جوزي أيضاً كلمة «المكس»، وقال: «وأظنها محرفة

عن taxus من taxo، ومعناها «سَعَر»، ثَمَن، حدد السعر» (ص ٣٠٦).
والصواب في رأينا أن الكلمة سامية وليست مستعارة، لأنها بالأكدية
Mikus، وبالعبرية «مكس».

وقال بندلي جوزي أن كلمة «تجارة» وما يشتق منها مأخوذ أيضاً
من لغة أجنبية هي السريانية أو اللاتينية، ويتساءل: «هل من ... tago
Tango؟». هذا في حين أن كلمة «تاجر» ترجع إلى أصل سامي، فهي
في الأكدية tamkarum ومنها جاءت الكلمة السومرية DAMGARA
(وهذه من الكلمات السامية المستعارة في السومرية). وهذا إنما يؤكد
قدم ممارسة التجارة عند الأقوام السامية، كالفينيقيين واليهود والعرب.

البحث عن أصل كلمتي

«فينيقيا» و «كنعان»

بادئ بدء، تجدر الإشارة الى أن الفينيقيين لم يكونوا يسمون أنفسهم بهذا الاسم: فينيقيين، بل كنعانيين. وبلادهم أرض كنعان. وورد اسمهم في ألواح تل العمارنة في مصر، وهي أرشيف مراسلات الفرعون المصري الشهير اخناتون، في القرن الرابع عشر ق . م، بهذه الصيغة «كناخي» أو «كناخي»، أي الكنعانيين. وينسب الى هيكاتيوس أن فينيقيا كانت تسمى سابقاً «خُنا» (من الجذر كنع)، وهي التسمية نفسها التي استعملها فيلو الجبيلي (نسبة الى مدينة جبيل اللبنانية) في أساطيره، إذ اعتبر «خنا الذي سمي في مابعد فينقس» جد الفينيقيين. وفي التوراة يستعمل أحياناً اسم «كنعان» و«الكنعانيين» للدلالة على فينيقيا والفينيقيين. بيد أن «الصيدانيين» هو الاسم الأعم الذي يرد ذكره في كتاب العهد القديم، وكذلك في الكتابات الآشورية: SIDUN-NU. وحتى في أيام حكومة صور يرد اسم «الصيدانيين»، وليس «أهالي صور» في العهد القديم. وعند هوميروس كانت تستعمل التسميتان: «الصيدانيون» SIDONOI، و«الفينيقيون» PHOINIKES. كما أن الفينيقيين كانوا ينعنون أنفسهم بالصيدانيين أيضاً، على نحو

ماورد في واحد من أقدم النقوش الفينيقية، حيث لقب حيرام الثاني، ملك صور في القرن الثامن ق . م ، باسم «ملك الصياديين».

لكن اليونانيين أطلقوا في مابعد اسم «فينيقيا» PHOINIKE على البلاد، و PHOINIKES على السكان. وكان معظم اللغويين - في الغرب - يرى أن هذه التسمية مشتقة من كلمة PHOINIX اليونانية، وتعني «أرجواني»، مما يذكّر بتجارة الفينيقيين بصبغة الأرجوان المعروفة. لكن هذا التفسير أو الاشتقاق لم يعد يحتفظ بقوته الآن.

كان من المسلّم به أن PHOINIX اليونانية مشتقة من PHONOS «القتل العمد»، ومنها جاءت PHOINOS «قاتل، سفّاح، متعطش للدم، أحمر دموي». لكن هذه العلاقة بين اسم فينيقيا وهذا الجذر فقدت قوتها بعد أن فك العالم البريطاني فنتريس رموز أقدم كتابة مقطعية يونانية، وأشار الى أن مادة PO- NI- KE (هكذا كانت تلفظ في نصوص هذه الكتابة) «قد تكون مستعارة» أي ليست يونانية. فكان من شأن هذه الشهادة أن توجه الأنظار الى لغة أو لغات أخرى غير اليونانية، وعلى وجه الخصوص الفينيقية نفسها. ومن بين من قام بمثل هذه المحاولة الباحث اللغوي مايكل استور الذي توصل الى أن هذه التسمية ترجع الى مادة «فوة» السامية، وهي في المعاجم العربية: نبتة صبغية. كانت معروفة في سورية وفلسطين ومصر. وكانت أحد أهم مصادر الصبغة الحمراء والقرمزية في الماضي. وهي باللغة الأوغاريتية (الكنعانية) (ف و ت)، وتعني «نسيج مصبوغ بمادة الفوة».

لكننا نقف في كتيب بعنوان «فلسطين في التأريخ القديم» تأليف يوسف سامي اليوسف (دار منارات - الأردن ١٩٨٩) على رأي آخر

لا يقل قوة عن سابقه: «ويقول فيليب حتي أن الفراعنة قد أطلقوا على الكنعانيين اسم «فنخو»، أي صانعو السفن. ولكن حتي لا يفتن إلى ما فحواه أن فنخو هذه هي أصل كلمة (فينيقيا)». وقرأت في كتاب «أثينا السوداء» لمارتن برنال ما ترجمته: «جاء في قصة سنوحي المصرية المؤلفة في القرن العشرين قبل الميلاد إن (م ن و س) كان أميراً على «فنخو» (قوم من سورية، لعلهم هم الفينيقيون) (ج ٢، ص ٤١١). فأبي من هذين الجذرين كان أصل تسمية فينيقيا؟.

أما اسم «كنعان» فقد تضاربت الآراء فيه أيضاً. في البدء كان يعتبر سامياً، ثم اكتشفت نصوص مسمارية في تل العمارنة (مصر) وفي بلدة نوزي الحورية (نسبة إلى الحوريين)، ورد فيها اسم الكنعانيين بالصيغ الآتية: كناخني، كناخنا، كناخي، كناخي، الأمر الذي شجع اللغويين على اعتبار الاسم - كنعان - مشتقاً من جذر (حوري) (والحورية لغة ليست سامية ولا هندية أوروبية)، لأن كناخي تعني بهذه اللغة «صبغة أرجوانية»، وهي الصبغة التي اقترنت باسم وتجارة الكنعانيين - الفينيقيين. وهكذا أصبحت تسمية «كناخي»، تدل على البلاد التي تنتج الصبغة الأرجوانية. لكن اكتشاف نقوش جديدة، في مصر، وأوغاريت، والالاح دعا اللغويين إلى إعادة النظر ثانية في أصل اسم «كنعان»، وارجاعه إلى الجذر السامي، بدلاً من الجذر الحوري. وفي ضوء ذلك قال ساباتينو موسكاتي، العالم الإيطالي المتخصص بالساميات «إن كنعن هي الصيغة الأصلية، وكناخي تابعة لها، أي أن الاسم كنعان ... أصلي، وإن صباغة الأنسجة باللون الأحمر التي عُرف بها الكنعانيون جاءت تسميتها من المنطقة، وذلك على غرار الموسلين من الموصل، وليست العكس».

والآن، ماهو الجذر السامي لكلمة «كنعان»؟ يذهب مازار الى أن كلمة «كنعاني» ترد في التوراة بما يفيد معنى «التاجر»، و«كنعان» للدلالة على بلد «التجار». لكن كلمة «كنع» لاتشير الى التجارة، بأي شكل من الأشكال. والأصح، كما يؤكد مايكل استور، أن استعمال أو ورود التسمية في التوراة بهذا المعنى، أي ماله علاقة بالتجارة، ناجم عن شهرة الكنعانيين بالتجارة (مثلما كانت كلمة كلداني تعني فلكياً أيضاً). ومع هذا اقترح العالم أولبرايت إما استعادة وجهة نظر مازار، أو اعتبار «كنع» كلمة سامية منقرضة تدل على «صبغة الأرجوان»، وذلك من أجل الحفاظ على تسمية «بلاد الأرجوان» لكنعان. لكن هذا المخرج يفتقر الى قوة الاقناع. وفي هذه الحالة ما الذي يمنعنا من التخلي عن هاجس «الصبغة الأرجوانية»، والبحث عن المعاني الأخرى للجذر «كنع»؟.

كان هناك رأي يذهب الى أن «كنعان» قد تعني «الأرض المنخفضة»، لكن الجذر «كنع» لايفيد مثل هذا المعنى بالضبط، بل يعني، بالعبرية مثلاً، يحني الركبة، يقع على ركبته. ويقابله جُنا GNA بالآرامية: ينحني. كما أن من معاني الكلمة العبرية: يذل. والمح غزنيوس في معجمه عن المفردات العبرية في التوراة، الى أن أرض كنعان، ربما تعني، والحالة هذه، «بلاداً من مرتبة دنيا». لكن هذا التفسير ضعيف جداً ولم يكن له مؤيدون. أما جون الليغرو - في كتابه «الفطر المقدس والصليب» - فيذهب الى أن كلمة (كنعان) ترجع الى الصيغة السومرية NA_AN_NA_KI وتعني «سرير الزواج السماوي»، وهو رأي يفتقر أيضاً الى قوة الاقناع، والاجماع.

ثم يقدم مايكل استور (في مقال له نشر في مجلة «دراسات الشرق الأوسط»، الصادرة في شيكاغو) العام ١٩٦٤ تفسيراً جديداً لأصل كلمة (كنعان) يبدو مقبولاً. هذا التفسير يستند الى أحد المعاني العربية لجذر مادة «كنع». من معاني «كنع» العربية: ضم (العُقَابُ) جناحيه للاتقضا. وكنع النجم: مال للغروب. في هذا المعنى الأخير يجد استور التفسير المناسب لاسم كنعان والكنعانيين، بما يدل على الغروب. فكنعان، والحالة هذه، تعني أرض الغروب، أو الغرب، بالنسبة الى الأقوام السامية، وذلك على غرار (آمورّو) AMURRU (العموريين) طبقاً لل لهجة الأكديّة (البابليّة)، فهذه الكلمة الأخيرة، آمورّو، مشتقة من السومرية TI- MAR وتعني بلاد الغروب. ولا بد أن كنعان مرادفة للكلمة (آمورّو) في معناها، أي بلاد الغروب أو الغرب. يعزز ذلك أن التسميتين «كنعان» و «آمورّو» كانتا مترادفتين في نصوص تل العمارنة وفي الكتاب المقدس.

القيثار، الغيتار، السيثار

نعني بالقيثار الآلة التي تسمى بالانكليزية harp، وتكون أوتارها مشدودة بصورة عمودية (وأحياناً أفقية) مفتوحة من الجهتين. أما القيثارة فنرمز بها الى الآلة الأصغر، المشابهة لها، التي يطلق عليها باليونانية « لير » lyre (ومن هذه الكلمة الأخيرة جاءت تسمية الشعر الغنائي، وبالانكليزية lyrical، أي الذي يُنشد بمصاحبة العزف على هذه الآلة).

عُثر على أقدم صورة لآلة القيثار على رقم طيني يرجع تاريخه الى أواخر الألف الرابع ق . م. وكان عدد أوتارها ثلاثة، ثم ازداد عدد الأوتار على مر الأيام. وكانت هذه الآلة التي عثر عليها في سومر تشبه القوس (قوس الرمي)، ولعلها والحالة هذه متطورة عن السلاح المذكور. وكان اسمها في الألف الثالث ق . م. يلفظ بالسومرية BALAG أو BA-LANG، وهي تسمية صوتية على ما يبدو (ينظر بهذا د. فوزي رشيد: مجلة آفاق عربية، العدد ٢، ١٩٧٨).

لكن كلمة BALAG السومرية، وعلى غرارها الأكديّة المستعارة منها balagu انقرضت، واستعملت بدلها kinnarum (وبالعربية كنارة)، منذ عصر حمورابي (١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق . م.)، كما جاء في كتاب

الدكتور صبحي أنور رشيد «الموسيقى في العراق القديم». وذكر الدكتور صبحي أنور رشيد، عن صواب، أن الدكتور محمود أحمد الحنفي أخطأ عندما قال في كتابه «علم الآلات الموسيقية» (القاهرة ١٩٧١)، إن التسمية العربية (كنارة) مشتقة من التسمية المصرية القديمة (كنر)، مؤكداً - أي الدكتور صبحي - على أن الكلمة الأكديّة هي التي انتقلت إلى المصرية القديمة، والعربية، والعبرية، والآرامية. لكنني قرأت في كتاب جيمس هوخ James E. Hoch، المؤلف باللغة الانكليزية، وعنوانه «مفردات سامية في نصوص مصرية ترقى إلى المملكة الحديثة والمرحلة الوسطى الثالثة» ما مفاده أن كلمة (كنورو) المصرية (الفرعونية) التي تطلق على القيثارة مستعارة من اللغات السامية. ففي العبرية (كنور)، وفي الفينيقية (ك ن ر)، والأوغاريتية (ك ن ر)، والآرامية القديمة (ك ن ر)، والسريانية (كنارة)، والعربية (كنار)، وكلها تعني قيثارة. أما في الأكديّة فإن كلمة (كنارو) تُقرن بكلمة gish الدالة على الخشب، ولا بد أن المقصود بها آلة القيثارة نفسها (كنور)، لكنها تظهر ككلمة مستعارة في هذه اللغة، أي الأكديّة، إذا تذكرنا أن اسمها الأقدم هو balagu. ويفهم من هذا أن أصل كلمة (الكنارة) يعود إلى جذور سامية غربية، أي كنعانية (أوغاريتية، فينيقية، الخ). والكلمة في نصوص مدينة ماري (على الفرات)، المعاصرة لعمورابي، تلفظ (كنورا)، وبالهلينية اليونانية Kinora. وجاء في كتاب جون الليغرو «الفطر المقدس والصليب» إن الجذر kinura (قيثارة)، ومرادفاته، يظهر في الميثولوجيا الإغريقية، في اسم ملك قبرص Cinyras (يلفظ كنيراس). وقيل أن هذا الملك أشاع عبادة أفروديت في تلك الجزيرة، كما قيل أنه أدخل البغاء

المقدس الى قبرص، وأنه (أي الملك كنيراس) كان موسيقياً.

والصادر التي تحت متناول أيدينا لاتسعنفا كثيراً في أصل أو جذر مادة (ك ن ر) السامية. في معجم غزنيوس لجذور مفردات التوراة (وهو قديم، صدر في أواسط القرن الماضي)، إن (كنر) من الألفاظ الصوتية القديمة، وهو غير مستعمل في العبرية كفعل أو جذر، ويعني: يصدر صوتاً مرتعشاً أو مصرصراً، كصوت الوتر حين يُضرب أو يُعزف عليه. ويذهب جون الليغرو - كعهده - الى تفسير الكلمة جنسياً، فيربط كلمة (قيناه) العبرية، ومثلها (القينة) العربية، وهي المغنية، بكلمة GI_NA السومرية بمعنى «منتصب»، وهذه تقلصت الى GIN بالمعنى نفسه. وبإضافة URA اليها، فإنها ستعني «عضو منتصب». ويبرر الليغرو هذا التفسير انطلاقاً من أن الموسيقى تثير - أحياناً - الغرائز، وأن (الكنور) العبرية كانت آلة البغايا، استناداً الى أشعيا في التوراة: «خذي الكنارة وطوفي في المدينة أيتها الزانية المنسية». لكن هذه الاستعارة من السومرية لاتبدو مقنعة، لأن اسم الآلة لم يكن كذلك، أي (كنور) بالسومرية، بل balag، كما مر بنا.

أما الكلمة اليونانية الكلاسيكية kithara فهي على نحو أكيد تقريباً مستعارة من السامية، أي من (كنارة). وإذا كان الأمر كذلك، فإن الكلمة اللاتينية cithara (تلفظ كيثاره) والكلمتين الانكليزيتين guitar و zither، وربما حتى siter (السيطار)، لها صلة أكيدة تقريباً بالكنارة. هذا مايقوله جيمس هوخ في كتابه عن المفردات المصرية القديمة المستعارة من اللغات السامية. وفي هامش يقول: على أن هذا الاشتقاق رفضه معظم الباحثين، من بينهم H. Frisk، الذي يعتبر، على أية حال،

الكلمة اليونانية kithara، مستعارة، لكن من مصدر مجهول. ويقول شانتريين في معجمه عن اشتقاق المفردات اليونانية: «لعل أصلها - أي الكلمة - شرقي». ويقول هوخ إن الاعتراض الأساسي على اشتقاقها من السامية يدور حول حرف «الثاء» الإغريقي مقابل «النون» السامي. وفي الأحوال كافة أن نطق الكلمة ليس إغريقياً. لكن من المفارقة أن الكلمة اليونانية - أي kithara - عادت فاستعيرت (من جديد؟) إلى السامية، كما جاء في النص الآرامي للكتاب المقدس تحت اسم «قيثارم».

من جهة أخرى يشير هنري جورج فارمر إلى أن كلمة kithara قد لا تكون إغريقية الأصل. ففي القديم كان الطرواديون (وهم يونانيو آسيا الصغرى) يستعملونها، أما إغريق اليونان فكانوا يستعملون مقابلها phorminx (فورمنكس). وفي بعض الأحيان كانوا يطلقون عليها اسم asias kithara (القيثارة الآسيوية)، ويختصرونها إلى asias (الآسيوية). ثم أن العزف على الكيثارا كان يُعبر عنه بكلمة kre'ko، وهذه تذكرنا، كما يقول فارمر، بكلمة (حركة) العربية والأكدية.

حتى إذا انتقلنا إلى الغيتار guitar وجدنا أن صلتها بكلمة kithara تبقى غامضة على رغم الشبه الكبير في اللفظ، كما يفيد معجم Grove الموسيقي الموسوعي. ومع ذلك فإن أرنست كلاين يرجع في قاموسه عن أصل المفردات الانكليزية إلى الإسبانية guitarra، وهذه كما يقول، من العربية (قيثارة)، والعربية من اليونانية kithara، وهذه من الفارسية -sih- tar (سيتار).

والذي دعا معجم Grove إلى التردد في قبول العلاقة بين

كلمة guitar وكلمة kithara اليونانية، أن الغيتار، كما ثبت أخيراً، منحدر عن العود، وباءت بالفشل جميع المحاولات في إرجاعه الى اللير lyre اليونانية. وأن الآلات التي سميت باسم الغيتار guitar ذكرت في النصوص الأدبية الأوروبية منذ القرن الثالث عشر، وليس قبل هذا التاريخ. وكانت أعواد القرون الوسطى وأوصافها وصورها تعكس أن الجسم والرقبة كانا يُنحتان من قطعة خشب واحدة، ثم تلتصق لوحة البطن على الصندوق المرنان. ويستثنى من ذلك «العود» المتحدر عن العرب، الذي كان يصنع من شرائح خشبية تلتصق مع بعضها البعض على شكل نصف كرة. وأخذت أوروبا هذه الصناعة عن العرب. ومن بين نقاط الاشتراك بين العود والغيتار، وجود الزهرة المثقبة في وسط كل من العود والغيتار، والجسم - في الغيتار - الذي هو على غرار جسر العود، والعتب، أي الخطوط الأفقية المتوازية على رقبة كل من العود والغيتار لتحديد مواضع أصابع اليد اليسرى عند العزف على الأوتار. لكن الفرق بين العود والغيتار هو أن هذا الأخير يعزف عليه بالأصابع وليس بالريشة أو المضارب، لأجل الحصول على أصوات هارمونية (أي أكثر من صوت في آن واحد)، عند استعمال الأصابع. وهذا يتعذر تحقيقه بالريشة.

أما السيتر، فهي آلة من صنف الأعواد ذوات الرقبة الطويلة والصندوق الصوتي الصغير (مقارنة بصندوق العود القصير الرقبة). وعليها عتب أيضاً. وهي الآلة المفضلة في الهند الآن، اسمها setar، ويعود الى اللغة الأوردية urdu. وهذه استعيرت عن الفارسية sihtar، وتعني (ثلاثة أوتار)، وكذلك setar بالمعنى نفسه. وكانت تستعمل في

إيران كعود من عائلة الطنبور، بجسم صغير، ورقبة طويلة، وأوتار أربعة معدنية (كانت ثلاثة حتى منتصف القرن التاسع عشر).
لكن السيثار، بمعناها (ثلاثة أوتار)، ذُكرتني بكلمة (وتر) العربية، إذا جزأنا الكلمة الى (سي - تار). فهل جاءت كلمة (الوتر) العربية من (تار) الفارسية، أم بالعكس، أم أنهما كلمتان مستقلتان؟ لكنني لاحظت أن كلمة (يتر) أو (يترو) باللغة العبرية، تعني (وتر). فهل اللفظة سامية قديمة؟ وبسبب من ضيق وقتي لم أبحث عن جذر هذه الكلمة في المعاجم السامية الأخرى، لاسيما الأكديّة، هذا مع العلم أن الكلمة التي تقال للوتر بالأكديّة هي pitnu، وبالسومرية (وهي غير سامية) sa.

الصابون ... لغةً وتاريخاً

أقدم ذكر أدبي للصابون جاء في لوح سومري على لسان إنانا (عشتار)، حبيبة دوموزي (تموز):

اختاه لم أغلقت الباب؟

ياصغيرتي لم أغلقت عليك الباب؟

(تجيبه إنانا)

كنت استحم، كنت اغتسل بالصابون.

اغتسل بالإبريق المقدس.

اغتسل بالصابون في الطست الأبيض.

كنت ارتدي ثياب الملكية، ملكية السماء

لهذا أغلقت على نفسي الباب.

وجاء في ابتهاج بابلي: «عسى أن تنظفني الطرفاء، حيث تنمو

أوراقها عالياً، عسى أن تحررني النخلة، التي تصد كل ريح، عسى أن

تنظفني نبتة «المستكال»، التي تملأ الأرض، عسى أن يحررني كوز

الصنوبر، المليء بحب الصنوبر».

يقول ر. كامبل تومبسون في كتابه «معجم النبات الآشوري»: «في

هذا الابتهاج نلاحظ ورود مادة القلي، والملح، والراتنج، بوضوح. فالقلي

يأتي من رماد الطرفاء، الذي كان يستعمل في العراق حتى في أيام دخول الانكليز بغداد.

ولعل أم جلجامش استعملت نبات ثُلال tulal (أي الصابونية المخزنية: عرق الحلاوة: نبات تحتوي أوراقه وجذوره على عصارة تستخدم بمشابة الصابون) عندما كانت تزين نفسها وتصعد الى سطح المنزل لتصلّي من أجل ابنها. وتعني نبتة (ثُلال) الأكديّة: «أنت ستغتسل».

أما «مُسْتكال» فلعلها تتألف من المقطعين «مستا» و«كل»، أي: غاسول الجميع.

ثم أن كلمة «أخلو» الأكديّة، التي تقابلها بالسريانية «اخلا» تعني «محلول القلي» (الذي يستعمل عند الغسل وصنع الصابون)، ويقابله بالعربية الشنان. قال الشاعر العباسي ابن حجاج:

وأغسل يديك من الزمان وأهله.

بالماء والصابون والأشنان

والنباتات الصابونية توجد أيضاً في الصحراء شرقي تدمر، وفي نجد. وكان العرب يحصلون على مادة القلي من رمادها. والشنان الذي كان يباع في أسواق العراق أشبه بالشّعيرية الجافة (فتائل من عجينة تشبه المعكرونة). وكان يؤتى بها من سوق الشيوخ (جنوب العراق). والجلو هو رماد الشنان. والجلو كتل غير منتظمة، خفيفة الوزن، رمادية فاتحة اللون. ويحدثنا كامبل تومبسون في معجم النبات الآشوري، نقلاً عن الميجور ولسون في العراق في أيام الاحتلال البريطاني، أن العرب يأخذون مقدارين من الشنان ومقداراً من الجلو، ويطحنون الأول ثم يضعونه في قماش موسلين خفيف، ويغمر الكل (أي مع الجلو) في ماء

مغلي لبضع دقائق. وبعد ذلك يضاف ماء بارد الى الرغوة، ثم تغسل بها الملابس.

وكان «الأخلو قرنو» (القلي المقرن) يستعمل في بابل لتنظيف المرء من غضب رجل آخر كان بصق عليه، وتُتلى معه تعويذة: «أبيها القلي، القلي المقرن، أن هذا الماء الذي ستصبه على هذا البصاق ... الخ».

وذكر الصابون في سومر في أيام الملك غوديا (١٢٤١ - ٢١٢٢ ق . م.) كما ذكر في مرحلة اور الثالثة في نسب المواد التي يصنع منها: (قا) واحد من الزيت وخمسة ونصف (قا) من القلي. ومن الألفاظ الآشورية الأخرى الدالة على القلي: شام قلتو، المقابلة للقلي العربية، والمقصود بذلك الشنان المحروق، وشام ساجلاتو، وتقابلها بالآرامية shal-ga، وهو نبات قلوي، وهناك «عسلج» العربية. ومن الألفاظ الآشورية الأخرى pirkalbi، ويراد به فس الكلاب، أو براز الكلاب، ومن الألفاظ الأخرى أيضاً: شام مانجو (الجيم على الطريقة المصرية)، وشام شاميطو، وشام قاقلو. والقاقلو يقابله بالعربية القاقلا في العراق، وكانت تؤكل مع الحليب، وتشبه أوراقها ورق الرشاد (الحُرْف) المنزلي. أما شام شاميطو فتذكرنا بكلمة السويدي العربية، كما جاء في معجم النبات الآشوري.

وفي موسوعة كوليرز الأميركية: إن البابليين كانوا أول من استعمل الصابون منذ حوالي ٢٨٠٠ ق . م. وعرف الفينيقيون صناعته في حدود ٦٠٠ ق . م. وربما استعمل المصريون الرواسب الطبيعية لأملاح الصودا بعد مزجها بزيوت حيوانية أو نباتية وعلطور، لإنتاج صابون معطر. ومع ذلك يعتقد معظم المؤرخين بأن طين Sapo، الذي اكتشف في منطقة تلية

قرب روما قبل حوالي ٣٠٠٠ سنة، كان أصل الصابون، وهناك إشارات نادرة الى الصابون في القرون الوسطى (بين ٥٠٠ - ١٥٠٠) في أوروبا. وفي القرن الثامن انتقلت صناعة الصابون من الشرق الى موانئ إيطاليا ثم الى فرنسا واسبانيا، وبعد ذلك بقرن الى بريطانيا. ويعود بعض القواميس بأصل كلمة soap (صابون) الى اللاتينية sapo، ولعل هذه ترجع الى sebum وتعني «الودك» باللاتينية، أو الشحم الحيواني. لكن هذه الكلمة اللاتينية تعود إما الى جذر جرمانى أو كلتي. وفي الموسوعة البريطانية أن الصابون عُرف على الأقل قبل ٢٣٠٠ سنة.

ويقول بلينيوس الأرشد، مؤلف «التاريخ الطبيعي»: أن الفينيقيين أنتجوا الصابون منذ ٦٠٠ ق. م. كما جاء أعلاه، واستعملوه للمقايسة مع الغاليين (سكان بلاد الغال). وكان الصابون معروفاً على نطاق واسع في الامبراطورية الرومانية، ولا نعلم هل تعلم الرومان استعماله وصناعته من سكان البحر المتوسط أم من الأقوام الكلتية، سكان بريطانيا؟ على أن الكلتين الذين كانوا يصنعون صابونهم من الشحوم الحيوانية ورماد النباتات أطلقوا على المنتج اسم saipo، التي يرى البعض أنها أصل كلمة soap.

وفي معجم الألفاظ الفارسية المعربة للباحث أدبي شير أن كلمة «صابون» تلفظ هكذا بالفارسية والتركية والكردية أيضاً. وتلفظ sapon باليونانية، و sapo بالرومية، و seife بالجرمانية، و sapone بالإيطالية، و savon بالفرنسية، الخ. يقول: «فذهب قوم الى أنها فارسية (راجع فرانكل: ٢٩١). وقيل أن أصلها لاتيني ... ويحتمل أن يكون

سريانياً. فإن الصابون مصنوع لتنظيف كل ما وسخ من الثياب وغيرها. فيكون إذاً مشتقاً من (شفن)، أي صفى ونقى، أو من (صفت) ومعناه ارتفع الى فوق، وذلك من رغوته. هذا فضلاً على أن صيغة الصابون آرامية. والعلم عند الله» (ص ١٠٦).

ووقفت على رأي آخر حول أصل الصابون في أطروحة للدكتوراه للسيدة Ida Babula الأميركية من أصل مجري بعنوان «صلة قريى سومرية» تحاول البرهنة فيها على وجود علاقة بين اللغتين المجرية والسومرية (ولم تكن الأولى في هذه المحاولة). تقول السيدة إيدا بابولا: «ليست هناك إشارة مباشرة (كذا!) عن استعمال السومريين للصابون. لكننا نرجح أنهم استعملوه من القرينة الآتية، وهي أن الرجال كانوا يحلقون وجوههم ورؤوسهم، وهي عملية تبدو مؤلمة جداً من دون استعمال الصابون. وهناك نقطة جديرة بالاعتبار، هي أن لفظة soap مشتقة من اللاتينية sapo، وتذكرنا بكلمة zeeb السومرية التي تعني (جميل). ولما كان الصابون منظفاً، فهو مجمل (مزين) أيضاً» ومن المعروف أيضاً أن كلمة sep المجرية تعني (جميل) ... ودعماً لرأيها أقول أننا نستعمل في العربية كلمة «مزين» للحلاق. ومع هذا خطر في ذهني المثل العربي القائل:

من حُلقت لحية جار له

فليسكب الماء على لحيته

ترى لماذا لم يذكر الشاعر الصابون، لأن حلق اللحية يمكن أن يتم بمجرد بلها بالماء؟ أم ماذا؟.

الألفاظ الدالة على المذاق الحلو

في هذه الحلقة وحلقات أخرى لاحقة، سنناقش الكلمات التي تدل على المذاق الحلو، في اللغات السامية واللغات الهندية - الأوروبية، ونبحث عن جذورها وعمقها الزمني. وسنبداً بأقدمها، على مانحسب.

إذا تصورنا أن الانسان البدائي عرف المواد الغذائية ذات المذاق الحلو من الطبيعة في سياق عملية جني القوت، فلا بد أنه أوجد مفردات تفيد معنى الحلاوة في مراحل مبكرة جداً من تأريخه. ولعل مثل هذه المفردات ما يدعى بالألفاظ الصوتية، أو ألفاظ المحاكاة الطبيعية، أي التي تُنطق على غرار أصواتها في الطبيعة (كأصوات الريح، أو الماء، أو المطر، الخ، أو أصوات الحيوانات، أو ما ينجم عن حركة اللسان كتعبير عن بعض الانطباعات الحسية). وفي اللغات السامية هناك لفظة (م ط ق) الصوتية الدالة على استطابة أي شيء ذي مذاق حلو أو سائغ. والعسل متوافر في الطبيعة، عرفه الانسان في مرحلة مبكرة جداً من تأريخه، قبل أن يهتدي الى الزراعة. وعرف الثمار الحلوة المذاق أيضاً من الطبيعة، وكذلك المنّ (الذي سنفرده له حلقة خاصة)، والسكر من قصب السكر، وإن كانت معرفة الانسان بهذا الأخير لا ترقى الى مراحل موعلة في القدم، على نحو ما سيتضح لنا عند الحديث عن السكر في

حلقة خاصة أخرى. يبدو أن صوت اللفظة (م ط ق) أو (م ت ق) هو ما استقرت عليه الكلمة الدالة على المذاق الحلو عند أجدادنا الساميين، وربما كذلك عند الهنود - الأوروبيين. وبالعربية، مطق الطعام: تذوقه، صَوّت باللسان والغار الأعلى وذلك عند استطابة الشيء. والمطقة: الحلاوة. وهناك (مذاق) أيضاً، وهي من (ذاق)، وتعني: اختبر طعم الشيء. وفي اللغة العبرية تعني كلمة (مثق): صار حلواً. و (م ط ق) الأوغاريتية (الكنعانية) تعني «حلو». و (مثقو) الأكديّة: «حلو»، و (موتقو): حلاوة. و (مقوق) الحبشية (وهي لغة سامية): حلو.

وهذه الألفاظ السامية تقابلها الكلمة الدالة على «الميد» في اللغات الهندية - الأوروبية. والميد هو شراب مخمر يعدّ من عسل وماء. فباللغة السنسكريتية يقال للعسل، والشراب الحلو، Ma'dhu، وباليونانية تعني كلمة Methu «شراباً مسكراً»، وباللغة اللتوانية Medu's «عسل»، وبالروسية Med «عسل»، وبالايرلندية Miodh «شراب معدّ من العسل». .. ويقال أن كلمة Mi الصينية التي تفيد معنى العسل مستعارة عن طريق الهند أو آسيا الغربية، فهي بالصينية القديمة Mie't. ولعل كلمة Mez (عسل) المجرية (وهي لغة غير هندية - أوروبية) مستعارة من اللغات الهندية - الأوروبية أيضاً.

و (الماذي) بالعربية: العسل الأبيض. قال عدي بن زيد العبادي:

وملاب قد تلهيت به

وقصرت اليوم في بيت عذار

في سماع يأذن الشيخ له

وحديث مثل ماذي مُشار

كما أن (المزج) بكسر الميم: العسل. قال أبو ذؤيب الهندي:
فجاء بمزج لم ير الناس مثله
هو الضحك إلا أنه عمل النحل
والمذي (بفتح فسكون، والياء مخففة) هو أرق من النطفة. ويقال:
«كل ذكر يمذي، وكل أنثى تقذي».
والمزة: الخمر اللذيذة الطعم. قال الأعشى:
نازعتهم قُضْبُ الريحان متكنأ
وقهوة مزة راووقها خضل
أما الفعل (مزّ) فيعني: مصّ. و (مزخ): تمصص. والمذخ: العسل
الذي في زهر الرمان البري.
وقد وجدنا في معجم كارل بيتسولد للمفردات الأكديّة، أن كلمة
Muzegu تعني: خمرة، شراب، عصير. وأن كلمة Mazu تعني: يمزج.
ووجدنا في قاموس موسى أرنولت للآشوريات كلمة (ماشيتو) الأكديّة،
ومثلها (ماليتو)، وتعنيان: شراب.
وفي القواميس العبريّة، ترد صيغة «مي دبش» بمعنى «الميد». و
«دبش» هو الدبس بالعربيّة، وهو عسل التمر، أو عسل النحل. وتقابلها
كلمة dishpu بالأكديّة، التي كانت تعني بالأصل عصير التمر، أي
الدبس.

ويروي المؤرخ اليوناني هيرودوتس أن البابليين كانوا «يدفنون
موتاهم في العسل». لكن هذا الخبر ذكره سترابو أيضاً، على النحو
الآتي: «كانوا يدفنون موتاهم في العسل، بعد أن يدهنوهم بالشمع».
ولا شك في أن هذا الخبر لا يشمل عامة الناس، بل ملوك البابليين فقط.

ونحن نعلم أن عسل العراق الحديث (كما جاء في «تأريخ التكنولوجيا» لسنجر - هوليارد) يحتوي على نسبة عالية من الشمع. بيد أنه لا يوجد في النصوص السومرية والأكدية ما يؤكد استعمال العسل لهذا الغرض. وكانت فلسطين في مخيال القبائل اليهودية الهائلة في الصحراء أرضاً «يجري فيها اللبن والعسل». ويفهم من التوراة أن يعقوب كان يتاجر مع مصر بالعسل مقابل الحبوب. وتطنب التوراة في ذكر العسل، وتعتبره من ضرورات الحياة. أما في بلاد ما بين النهرين فكان الدبس المستخرج من التمر ينافس العسل لكثرة توافره في هذه المنطقة، على رغم وجود العسل الطبيعي أيضاً. وورد ذكر العسل الطبيعي في النصوص الأكدية منذ الألف الثالث قبل الميلاد. وكان لشمع العسل أهمية في الطقوس الدينية الأكدية، كما أن عبارة «لينعم بأنهار من العسل والقشدة» كانت من الأقوال الشائعة في ذلك الزمن.

ويقال للشمع باللاتينية Ce'ra، وهي كلمة مستعارة من اليونانية khiros (شمع العسل، شمع). ولا يعرف أصل هذه الكلمة بصورة قاطعة. على أن بعض القواميس يشير الى وجود صلة بينها وبين كلمة korys اللتوانية، وتعني (قرص العسل). ثم ان روبرت غريفز، أشار في كتابه «الميثولوجيا الاغريقية» الى أن الكلمة اليونانية cerinthos التي تعني «خبز النحل» ترجع الى أصل كريتي. ويصدق هذا على كلمة ceraphis «السرفة». ولعل هذه الألفاظ تذكرنا بالفعل العربي (شار) أو (اشتار) العسل، أي جناه. وفي القاموس: شار العسل، يشوره شوراً وشياراً أو شيارة: استخرجه من الوقبة واجتناه من خلاياه. والكور: موضع الزنايبير. والكوارة: شيء يتخذ للنحل من القضبان أو الطين تأوي اليه، أو هي

عسلها في الشمع. و (كوارا) السريانية من أصل (كبارا): خلية النحل، كأن يقال بهذه اللغة: كبارا دباشي. وشمع العسل باللغة الأكديّة: إشكورو.

وبعد، فإن صلة القربى اللفظية بين كلمة (مطق) السامية التي تقال للشيء ذي المذاق الحلو، وكلمة mead الهندية - الأوروبية التي تطلق على الشراب المعد من العسل والماء، تدعونا للاعتقاد بأن الكلمة الأولى ربما كانت أسبق كلمة سامية، أو سامية - هندية أوروبية مشتركة لانزال حية أطلقت على كل ذي مذاق حلو. ونحن لانزال نقول «مطق» لمن يستطيب طعام شيء.

استطواد

وقد أدخل نحل العسل الى اميركا في حدود ١٦٤٠، لأن نحلها القديم لا ينتج عسلاً، وفي أوروبا يعتبر عسل فرنسا واليونان واسكتلندا أفضل أصناف العسل الأوروبي. ويجتنى عسل فرنسا في ناربون من زهور أكليل الجبل (rosemary)، وهو أبيض اللون، يشبه عسل القرنفل الأميركي. ويعتبر أقدم (؟) عسل في العالم، كما يقول باتريك كويل في كتابه «موسوعة الطعام في العالم»، فقد ذكره يوليوس قيصر في حملاته على بلاد الغال. وعسل الخلنج الاسكتلندي غامق وذو مذاق حاد، أشبه بالجلاتين، ويستعمل في بعض أنواع المسكرات المعطرة Ie-queurs. وعسل الزعتر البري الذي يُجتنى في جبل Hymmetus في اليونان له شهرة عالمية، وله نكهة راتنجية ... وقيل أن عسل وادي دوعن في حضرموت (من زهر السدر) يعتبر من أفضل وأغلى أنواع العسل.

وتتراوح ألوان العسل بين لون الماء (عسل زهور المريمية)، والكهرمان (عسل البرسيم والبرتقال)، والأحمر الغامق، والأخضر الغامق (عسل زهر الكالبتوس عند إزهاره الشتوي). وتعتبر الألوان الفاتحة من العسل أقلها حدة. فعسل المريمية، مثلاً، غير حريف، لكنه ثخين جداً.

وعسل الفصفصة كهرماني وله نكهة ظاهرة مع مضاعفات نعناعية.
وعسل الخنطة السوداء له نكهة قوية ولونه أشبه بدبس السكر.

أصول المنّ وجذوره اللغوية

المنّ مادة سكرية تتجمع على أوراق وإبر أو أشواك بعض الأشجار هي في حقيقتها أشنات (Lichens) من فصيلة ليكانورا Lecanora حسب تسميتها العلمية اللاتينية، يعتقد بأن موطنها الأصلي آسيا الصغرى بصورة أساسية. وينسب المنّ أيضاً إلى أصماغ يفرزها صنفان من نبات يدعى العاقول أو حسك الجمل، كل منهما يتألف من ساق رئيسية طولها أقل من متر، وتتشعب منها أغصان، موطنها الأصلي آسيا الصغرى أيضاً. وهناك حشرة تدعى القرمزية أو قملة النبات، تثقب ساق النبتة التي تحل عليها ضيفة، أو تفرز مستحلباً أو عصارة، تصبح منناً أيضاً. ومثل هذه الحشرة تعيش على شجيرات الطرفاء في سينا، ولا يزال البدو يجتنون المن الذي تفرزه هذه الحشرة. وفي أريزونا وجنوب كاليفورنيا في الولايات المتحدة توجد حشرة تشبه حشرة القرمزية تدعى شمع البلوط القرمزية، تنتج شمعاً أصفر براقاً تجتنيه القبائل الأميركية الأصلية، وكان يدعى «العسل الهندي (الأحمر)» أو «طل العسل»، ويستعمله الهنود الأميركيون كعلك.

ومن مصادر المنّ أيضاً شجر الدردار المزهّر، ونتاجه كان يستعمل

لأغراض طبية. ويظهر المنّ في الليل وفي الصباح. وتزداد كمياته عندما تكون هناك تقلبات في درجات الحرارة أو الرطوبة. ويوجد صنف من المن في استراليا يتجمع على أوراق أشجار الكالبتوس، تفرزه يرقه من الحشرات البرغوثية النباتية، وهو على شكل كتل مخروطية يجتنيها المواطنون الاستراليون الأصليون ويتلذذون بطعمها ذي المذاق الحلو.

والمن مادة حبيبية حلوة، كان ولا يزال مصدراً للسكر الطبيعي، الى جانب العسل. وبوسع مجتنيه أن يجني في الصباح ما يعادل أربعة أرطال (الرطل أقل من نصف كيلوغرام بقليل). وقد يتطاير المن بفعل الريح الى مسافات بعيدة.

ومعظم المعاجم - الأجنبية - تذهب الى أن كلمة من أصلها عبري: عندما عثر بنو اسرائيل على المن خلال تيههم في صحراء سيناء، تساءلوا «من هو؟» بمعنى «ما هو؟» لكنني قرأت في كتاب «الموسوعة العالمية للطعام» تأليف L. Patrick Coyle (١٩٨٢) إن كلمة «المن»، وتقابلها باللغات الأوروبية لفظة *manna*، مشتقة من الكلمة العربية «من» التي تطلق على جنس حشرة، أو على طل العسل. ووجدت في المنجد أن «المننة»: العنكبوت. ويذهب غزنيوس في معجمه عن أصل المفردات التوراتية الى أن كلمة «منّ» مشتقة من الجذر منّ بمعنى «أنعم» فالمن حسب تفسيره أعطية السماء.

والمنّ باللغة الأكديّة يقال له *Supalu*. ولعل هذه الكلمة تذكرنا بكلمة «شفلح» العربية أو العراقية الدارجة، التي يطلق عليها باللغة السريانية الدارجة «شفلحة». والشفلح نبات ينمو في البرية، ورقه بيضوي، وثمره بيضوي أخضر يتفلع عندما ينضج، وتسيل منه مادة

حلوة الطعم حمراء قانية كالدم في وسطها حبيبات سود. وقرأت في «معجم الألفاظ الفارسية المعربة» للباحث أدري شير أن (الشفلج) معرب شفلج الفارسية.

لكنني أميل الى الاعتقاد بأن الكلمات العراقية والسريانية والفارسية كلها مستعارة من كلمة Supalu، التي تقال للمن. ثم أن كلمة Supalu هذه هي المعادل لكلمة Zabalam السومرية، كما يقول كامبل تومبسون في «معجم النبات الآشوري». ويرى تومبسون أن شجرة «الزباب» العربية تنتمي اشتقاقياً الى كلمة Zabalam السومرية. والزباب شجر يوجد في بادية الشام وفي لبنان وفلسطين، كما يؤكد تومبسون. لكنه شجر كبير من أنواع العرعر، ورقه أشبه بورق الشربين، وخشبه من أجود الأخشاب، كما جاء في «المنجد».

وهناك ألفاظ أخرى تطلق على «المن» باللغة الأكديّة، مثل كلمة (قدراتو) التي استعارها الفرس (والأكراد؟) في قولهم «قدرات حلفاسي»، أي «من السما». ويذكر كامبل تومبسون أصنافاً عدة من المن، في كتابه «معجم النبات الآشوري»:

١ - هناك نوع يجتنى في صقلية بصورة رئيسية، وهو مسهل خفيف. وينتج هذا المن من الثقوب التي تحدثها حشرة تشبه الجرادة، لكنها تختلف بوجود ذنابي (كالإبرة) تحت بطنها.

٢ - يقول و. سميث إن المادة التي تدعى منا في الصحراء العربية التي تاه فيها بنو إسرائيل، تجمع في شهر حزيران في شجر الطرفاء. واستناداً الى بركهارت أن هذا المن يتساقط من الحسك على الأعواد والأوراق الساقطة على الأرض، ويجب جمعه في ساعة مبكرة من الصباح، قبل أن تذيبه الشمس.

ويقول تومبسون أن العرب ينظفونه ويغسلونه، ثم يصفونه بقماش، ويحفظونه في قنار جلدية، ويستعملونه بمثابة عسل أو زبدة مع الخبز الفطير (وضع تومبسون معجمه عن النبات الآشوري في أوائل قرننا).

٣ - النوع الثالث من المن يدعى ترنجبين، وقد تطرق أدي شير الى ذكره أيضاً في كتابه «معجم الألفاظ الفارسية المعربة»، مشيراً الى أن الكلمة من أصل فارسي، وعنده: أنه ظل أكثر ما يسقط في خراسان وما وراء النهر، ويجمع كالمن، وأجوده الأبيض. أما كامبل تومبسون فيقول أن الترنجبين مصدره العاقول (أو شوك الجمل)، ويطلق عليه باللاتينية *Alhagi maurorum*، وهو صنفان، وذكر أنه كان يستعمل في بخارى وفي البصرة أيضاً، بديلاً عن السكر.

٤ - الصنف الرابع من المن مصدره البلوط القزم، «في المنطقة التالية من لورستان ... نجده على عدة أصناف من أشجار البلوط ... حيث يجمع المن منها على قطع قماش تفرش تحتها ليلاً، فيتجمع عليها على شكل بلورات كبيرة من قطرات الندى». ولاحظ نيبور Niebuhr أن المن في ماردن، في أعالي وادي الرافدين، يتجمع مثل دقيق الذرة على أوراق شجر يدعى في الشرق بلوطاً أو عفصاً، ويعتبره صنفاً من البلوط. ويكثر تساقط هذا المن في الأوقات الرطبة. ويجنى أحياناً قبل شروق الشمس بهز الأوراق بعد أن يوضع قماش تحت الشجرة، وهو مادة بيضاء ناصعة. والمادة التي لا تهز تذوب على الأوراق وتتجمع الى أن تصبح ثخينة جداً. ثم تجمع الأوراق وتغلى بالماء، فيطفو المن كالزيت على سطح الماء. وهذا هو ما يطلق عليه «من السما».

وروى جون هون في فترة الاحتلال البريطاني للعراق بعيد الحرب

العالمية الأولى، أن المن يتساقط في جبال العراق على حدود إيران، في منطقة بنجوين فقط عندما يكون هناك برق في عواصف أواخر الخريف.. ومع أن تساقط المن شائع في المنطقة، إلا أنه يمكن جمعه من على أوراق شجر العفص، وهو دائم الخضرة، ومن على الصخور. أما على التربة فيصعب جنيه. وهو أشبه بعجينة ثخينة، ويمكن كشطه من الأوراق والصخور، وغليه بالماء، للحصول على مادة شفافة تقريباً، واستعماله في الحلويات.

ه - أما الأنواع الأخرى فهي:

أ - «شير خست»، وينتج في بلاد الأوزبك. ويقال أن مصدره شجرة تدعى Gundeleh في قندهار.

ب - غزنجين، وهو نتاج شجرة من فصيلة الطرفاء تدعى Guz، ويفترض أنها صنف آخر يشبه الطرفاء الذي في جبل سيناء، وتوجد في لورستان والعراق العجمي (عربستان؟).

ج - «شكر - العاشور» وهو مادة حلوة مفرزة من صنف شجر ذكره ابن سينا.

د - بدخست Bedkhist، يقال أنه يظهر على صنف من الصفصاف في خراسان.

ه - وعشر بركهارت في وادي الأردن على من مثل الصمغ على أوراق وأغصان شجر الغرب (من فصيلة الصفصافيات) بحجم شجر الزيتون، ورقه مثل ورق الحور، ويظهر كالطل على الأوراق بلون قهوائي أو رمادي، ويتساقط على الأرض. وعند جنيه يكون طعمه في البداية حلواً، أما إذا تأخر يوماً أو يومين فيصبح حامضاً. ويستعمله العرب

كعسل أو زبدة، ويأكلونه مع العصيدة. ويستعملونه أيضاً لتنظيف قنانيهم الجلدية وإحكام سدها. وأشار كامبل تومبسون الى أن الآشوريين كانوا يطلقون على الحشرة التي تنتج المن على بعض الأشجار «ققدانو» qaqqadanu، مؤكداً على أن هذه الكلمة هي أصل كلمة Cicada اللاتينية (الرومانية) التي تطلق على حشرة الزير.

بحثاً عن السكر لغة وتاريخاً

جاء في المعاجم العربية أن السكر: ماء القصب أو عصير الرطب ونحوهما إذا غلى واشتد، والقطعة منه «سُكْرَة» (فارسية وقيل هندية). و السكر: الخمر، كل ما يُسكر. وتذهب المعاجم الأوروبية أيضاً إلى أن أصل الكلمة - وبالإنكليزية sugar - هندي.

والظاهر أن القرابة اللفظية بين كلمتي «السُكْر» و «السُكَّر» العربيتين لم تأت بمحض المصادفة، بل أن هناك صلة حتى في المعنى. يعزز ذلك أن الكلمة التي تقال للسكر (أو الشيء ذي المذاق الحلو)، والسُّم، أو السُكَّر، في البابلية - الآشورية واحدة، هي «شاكرو» . ومن ثم فلا بد أن ترجع الكلمة العربية، ومثيلتها السريانية «شاكرونا»، إلى هذا الأصل البابلي - الآشوري. ففي معجم علم النبات الآشوري لكامل تومبسون أن كلمة «شاكرو» الآشورية مرتبطة أولاً بكلمة sham GUR السومرية التي تطلق على النبات المخدر (كالأفيون)، وثانياً أن كونها تقابل «المن» يدعونا للاعتقاد بأن لها علاقة بالكلمة الفارسية - السريانية sekar. وهذا الاستعمال المزدوج للكلمة الذي يجمع بين معنى التخدير (أو السُكَّر) والحلاوة يعني أن هناك علاقة بين التخدير والمادة الحلوة. فأيهما كان الأسبق؟ إن ذلك غير معلوم، كما يقول كامل تومبسون.

وكل الأدلة تشير الى أن قصب السكر أصله من الهند. فلا تزال أحراش هذا النبات تنمو في الهند بصورة طبيعية (برية). كما أن قصب السكر ذُكر في تعاليم مانو Manu وكتب هندية مقدسة قديمة أخرى. وكلمة sugar نفسها مشتقة من السنسكريتية sarkara، وتعني: حصة، حُبيبة رملية، سكر. ومن المعروف أن الألفاظ الأوروبية استعيرت عن طريق اللفظة العربية، فاللاتينية.

وحسب الأسطورة الهندية أن أجداد بوذا جازوا من بلاد السكر، أو Gur، وهو الاسم الذي كان يطلق على البنغال. وتحدثت ملحمة رامايانا السنسكريتية (حوالي ١٢٠٠ ق. م.) عن وليمة «بموائد وضعت عليها أشياء حلوة، وعصير، وقصب سكر للمضغ...».

ومن الهند انتقلت زراعة السكر (أي قصب السكر) الى الصين بين ١٨٠٠ - ١٧٠٠ ق. م. ويأتي مصداقاً على ذلك أن العديد من الكتاب الصينيين ذكروا أن تقنية غلي سائل القصب لإنتاج نوع من السكر الختام استعيرت من أناس يعيشون في وادي الغانج. وفي كتاب «التأريخ الطبيعي» للكاتب الصيني Su-kung من القرن السابع: «أن الأمبراطور Tai-Hung أرسل عمالاً ليتعلموا فن صناعة السكر في ليو Lyu (أي الهند)، وبالأخص في البنغال». وبعد زراعة القصب في الصين، كان باستطاعة البحارة نقله من آسيا الى الفيليبين، وجاوة، وحتى هاواي. وعندما وصل البحارة الأسبان الى المحيط الهادي، بعد ذلك بمئات السنين، كان قصب السكر موجوداً في العديد من الجزر.

وعن طريق الفتوحات والغزوات وقوافل التجارة، لاسيما الآشورية، انتشر قصب السكر في بلدان الشرق الأوسط كلها، من الهند الى البحر

الأسود، ومن الصحراء الكبرى الى الخليج العربي.
ولعل أقدم إشارة الى السكر في الأزمنة الكلاسيكية (المقصود بذلك المرحلة اليونانية - الرومانية) ترجع الى فترة احتلال جيش الاسكندر المقدوني. ففي ٣٢٧ ق . م. كتب نيارخوس، أحد ضباط الاسكندر، يقول: «يقال إن هناك قصبه في الهند تنتج عسلاً من دون وساطة النحل، كما أنها تنتج مشروباً مسكراً (rum?) مع أن النبتة لاتثمر (أي لاتحمل فاكهة)». وبعد ذلك بخمسة قرون وصف جالينوس «السكر من الهند والعربية» للمعدة والأمعاء والكلى. كما أن الفرس استعاروا السكر من الهند، وأن كان ذلك في مرحلة متأخرة جداً، وركزوا بصورة رئيسية على تكريره. وفي حدود ٧٠٠م استطاع الرهبان النساطرة في منطقة الفرات، كما تقول موسوعة كوليرز، إنتاج سكر أبيض من خلال التنقية بالرماد. ثم نشر العرب زراعة السكر في حوض البحر المتوسط. وبعد ذلك أصبحت مدينة البندقية مركزاً لتجارة السكر في أوروبا دام أكثر من خمسة قرون.

وكانت عصارة السكر تعتبر من الأدوية النادرة جداً والغالية جداً، واستعملت كدواء من قبل المصريين والفينيقيين، ثم في اليونان وروما. وقال ثيوفراستوس في ٣٧١ ق . م. «هناك ثلاثة أنواع من العسل، نوع من الأزهار، ونوع من الطل، وآخر يجري من قصبه». واعتبره بلينيوس وذيوسقوريدس وجالينوس دواء يستعمل في الطب فقط، ويعدل وزنه فضة. وحتى عند الأوروبيين في ما بعد. كان السكر أول الأمر دواءً غالي الثمن، أو مادة مرفهة لا يقتنيها سوى الأثرياء والأقوياء، وطعاماً أسطورياً يجلب مما وراء الصحارى بواسطة قوافل تنقله الى موانئ شرقي البحر المتوسط.

وأنشأ العرب أول مصنع لتكرير السكر على جزيرة كانديا أو كريت في حدود ١٠٠٠ م. واجتذبت رائحة عصارته الشهية الصليبيين كما يجتذب العسل الذباب. وكان السكر أشبه بمنجم ذهب، وأسهم في تكديس الثروة العربية. كما أن العرب اخترعوا طريقة حرق السكر، أي صنع الكراميل. فمن تحسين عملية التصفية، حصلوا على منتج جديد، غامق اللون، ولزج وقوي الرائحة، سمّوه «كرة الملح». واستعمل الكراميل لإزالة شعر النساء.

وقيل أن الشرق الأوسط كان يفوح برائحة السكر. فقد شم رائحته العذبة جوائفل Joinville الذي كان في صحبة الملك لويس التاسع في الحملة الصليبية، وهو في الطريق، وتحدث في يومياته عن «قصب السكر العذب، الذي منه يصنعون السكر». وفي مابعد أرسل سلطان مصر هدية ثمينة إلى شارل التاسع ملك فرنسا، هي قنطار من السكر (مئة كيلو).

وكان السكر المسمى Muscarrat من أفضل أصناف السكر، وإذا صيت أسطوري والكلمة بالإيطالية تدعى mucchera، ولعلها من كلمة «مكرر» العربية، كما جاء في كتاب «قاموس الغذاء». وكان القند الذي يدعى باللغات الأوروبية candy يحتوي على بلورات كبيرة جداً. وكانت هناك خمسة أصناف منه في الصيدليات: القند العادي، والقند المنكه برائحة الورد، والبنفسج، والليمون، والكشمش. وهناك القند البربري من شمال أفريقيا.

ثم طور البنادقة (أهالي البندقية) مصانع تكرير السكر التركية، لكن الإنتاج الشرقي بقي أرخص حتى من المنتج عبر الأطلسي (بعد أن عُني

المستوطنون الأوروبيون الجدد بزراعة قصب السكر في جزر الهند الغربية). ثم دخل السكر في طعام الناس في القرن السادس عشر بعد أن كان يوصف كدواء. وكان لاستعمال القهوة والشوكولاته دور في زيادة استهلاك السكر. لكن سكر البنجر أحدث إرباكاً في سوق السكر في القرن التاسع عشر، لأنه أدى إلى هبوط أسعار السكر المستخرج من القصب الحلو، في جزر الهند الغربية والموانئ الفرنسية على الساحل الأطلسي. ومنذ ١٥٧٥ أكد أوليفيه دي سير على أن البنجر يحتوي على نسبة عالية من السكر. لكن أحداً لم يُصغ إلى كلامه. وفي ١٧٤٥ قدم الكيماوي الألماني ماغراف تقريراً إلى أكاديمية برلين العالية عن «تجارب كيماوية للحصول على سكر حقيقي من مختلف النباتات التي تنمو في خط عرضنا». وكان أول من استخرج وصفى سكر البنجر. فتدهورت زراعة قصب السكر، ولم «ينقذها» سوى الحصول على يد عاملة رخيصة جداً لتواصل انتاجها. ولم تتوافر مثل هذه اليد الرخيصة إلا باستخدام العبيد. وهكذا جيء بالملايين من الناس من شواطئ إفريقيا الغربية ليجبروا على العمل في زراعة قصب السكر، والقهوة، والكاكاو، والبازلاء، الخ، كالحوانات. وبهذا الصدد قال برناردين دي سان بيير في روايته المعروفة «بول وفرجينى» التي ترجمها مصطفى لطفي المنفلوطي: «لا أدري إن كان السكر والقهوة ضروريين لسعادة أوروبا، لكنني أعلم جيداً أن هاتين النباتين جلبتا النحس على طرفي العالم».

قراءة فيما معجم نبات آشوريا

الكلمة الأكديّة (والآشورية - البابليّة) التي تطلق على النباتات هي «شامو» أو «شامو»؛ وتقابلها باللغة الأوغاريتيّة الكنعانيّة (س م م). وتعني شامو أيضاً؛ عشب، خضرة، دواء. والكلمة الآشورية الدالة على الشجرة هي (إيص)، من الجذر (ع ص) في اللغات الساميّة. وتقابلها بالعربيّة (العضة)، وهي كل شجر عظيم. ومن مادة (ع ص) جاءت كلمة «العصا». وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن كلمة «خشب» العربيّة مستعارة من كلمة GISH السومريّة التي تطلق على الخشب، أو الشجرة.

وتصنف النباتات في اللغة الآشورية حسب أماكنها: نباتات حدائق، أو نباتات جبليّة، أو نهريّة، أو بحريّة. وهذا يعني أن علماء النبات الآشوريين صنفوا النباتات استناداً إلى خلفيّة بيئيّة أو جغرافيّة، إلى جانب معايير أخرى، تتعلق بالطابع الفيزيقي للنبات: حجم وطبيعة الساق، والأوراق، والجذور، والزهور، والشمار، الخ.

ولعل هناك صلة بين لفظة «شامو» الآشورية، الدالة على النبات، وبين «الشم»، لأن معظم المشمومات نباتيّة. قال الشاعر الجاهلي:

تمتّع من شميم عرار نجد

فما بعد العشية من عرار

ونحن لانستبعد الصلة أيضاً مع كلمة «السّم». وفي اللغة العبرية تقال كلمة «سم» للأفاويه أو التوابل.

وقد صنف العالم الآشوري معجمه النباتي المدون على ألواح طينية، وفق نسق علمي، في مجموعات وفصائل تتسم كل منها بخواص مشتركة، بدأها بفصائل الحشائش، ونباتات الأسل، والقصب، واللبلايات، وهي النباتات المائية أو التي تنمو في المستنقعات وقرب الأنهار في وادي الرافدين؛ وأنهاها بفصيلة الصمغيات ومنتجات الصمغ الراتنجي.

وضم المعجم جميع الفصائل النباتية، من حشائش، وأعشاب، وأحراج، وأشجار، مما ينمو في وادي الرافدين والمناطق المجاورة. وهو مكرس للأغراض الطبية في الجوهر. لكن قارىء هذا المعجم يجد متعة وفائدة كبيرتين عند قراءته، بفضل تحقيق العلامة البريطاني الراحل ر. كامبل تومبسون R. Campbell Thompsan، الذي أشفع تحقيق المعجم بدراسة ميدانية لنباتات وادي الرافدين وشرقي البحر المتوسط في بداية القرن العشرين.

وقد رأينا أن نستعرض هذا المعجم النفيس، مع شيء من الاستطراء، متى دعت الحاجة الى ذلك. ولن نلتزم بتسلسل المواضيع الواردة في الكتاب، بل سننتقل بين صفحاته كما يحلو لنا، وبطريقة توخينا فيها أن نخفف من صرامة البحث الأكاديمي.

لعل البقوليات من أقدم الأطعمة التي عرفها الإنسان. من الأدلة على قدم معرفة الإنسان بها، أن كلمة Legumen التي كان الرومان يطلقونها على البذور السائغة التي يعثر عليها في قرنات، مشتقة من

كلمة Lego، التي تعني «يلتقط، يجني» (ولعلها تذكرنا بالفعل السامي «لقي»). وأن كلمة (بقول) العربية مشتقة من «البقل»، وهو جميع النباتات العشبية التي يتغذى بها الإنسان. والفعل بقل يعني: ظهر، طلع. فالبقل كل ما ينبت من أعشاب. أما الباقلاء والباقلي، فجاء في لسان العرب: الفول، اسم سوادي (أي من أرض السواد، أي العراق).

ولابد من الإشارة الى أن جميع أصناف البقوليات: (اللوبياء، الفول والباقلاء، البازلاء، العدس، الهرطمان، الحمص، الماش) كانت معروفة في العالم القديم، عدا الفاصولياء، التي انتقلت الى العالم القديم من أميركا الجنوبية بعد اكتشاف قارتي أميركا في أواخر القرن الخامس عشر.

ويقال للوبياء في اللغة السومرية LU_UB، وفي الأكديّة lubbu، أو luppu. أما كلمة البازلاء، أو البسلة، أو البزلة، أو البشلة، فأصلها بابلي من كلمة «لابيشة». والفول بالفينيقية (ف ل)؛ وبالعبرية القديمة (فول)؛ وبالآرامية (فولا)؛ وبالحبشية (فول). والظاهر أن pula باللغة المصرية القديمة (الفرعونية) مستعارة من اللغات السامية، كما جاء في كتاب (هوخ) عن الألفاظ المصرية القديمة المستعارة من اللغات السامية. وقد اشتهرت بابل (الحلة، اليوم) بزراعة الباقلاء. وكانت الباقلاء، أي حبة الفول العريضة، معروفة في اليونان وفي الأناضول، حتى أن الملك پريام Priam، ملك طروادة، كان يخزن منها أكياساً، من بين ذخائره. وقد عُثر على حبات منها لدى اكتشاف آثار طروادة. وكان اليونانيون يستعملون حبات الباقلاء بمثابة أوراق للفرز في انتخاباتهم.

وعبارة «استنكف عن الباقلاء» تعني ابتعد عن السياسة. وكان اليونانيون يفضلون تناول الباقلاء وهي لاتزال طرية خضراء. وفي العراق ثمة تنوعات كثيرة على طهي الباقلاء، لعل ألدّها «ثمن الباقلاء» (أي الرز المطبوخ بالباقلاء). لكن للبعض حساسية قوية تجاه الباقلاء. ويُزعم أنها كانت السبب وراء وفاة فيشاغورس، ليس عن طريق تناولها، بل لأنه كان يمقت الباقلاء الى درجة أنه فضل أن يؤسر ويموت على يد أعدائه، كما تزعم الروايات، على أن يهرب عن طريق حقل مزروع باقلاء. ومن المعروف أن فيشاغورس وأتباعه كانوا يتمتعون عن تناول الباقلاء ويحرمونها، لأنهم كانوا يعتبرونها حلقة وصل مع العالم الأسفل، عالم الموت والجحيم. وكان شكل الباقلاء يذكرهم بالأعضاء الجنسية. أما الرومان فلم تكن لديهم تلك الحساسية من الباقلاء واللوبياء. كانوا يصنعون منها كعكاً في أوقات شح الحبوب. لكنها، مع ذلك، كانت تقترب بسوء الطالع عندهم. فقد قُربوها بالموت، مثل اليونانيين. وامتنع كهنة جوبيتر عن لمسها أو النطق باسمها.

وتدعى الباقلاء في إيطاليا Fava. وكانت لها هالة أرستقراطية في أوروبا في القرون الوسطى، منذ أن اشتق Fabius الروماني اسمه منها. وكانت تفضّل خضراء في بداية موسمها. وفي فرنسا كانت تطبخ مع البصل والزعفران وقطعة صغيرة من سمك الهيرنغ.

والحمص بالأكدية (والبابليّة - الآشورية) كان يدعى upuntu. ويدعى بالمشناية التلمودية appon. أما كلمة «حمص» العربية، فتقابلها بالسريانية «خيمصه». ويستبعد كاميل تومپسون أن يكون أصل ذلك من «أمشو» الأكدية، للاختلاف البين بين الشين والصاد.

ويرجح أن أمشو ربما كانت أصل كلمة «الماش». ويشير كامبل تومپسون الى البرفسور شايل Scheil الذي رجح في ١٨٩٣ أن أصل كلمة «حمص» العربية من «حُم - حُم» السومرية، وتقابلها بالأكدية «خو - مو - شو».

وربما كان الحمص الطعام الذي حمله جلعامش في مغامراته، هو وأنكيديو، كزاد سفر. فقد جاء في الملحمة:
واحتفرا حفرة في ضوء الشمس ...
ثم ذهب جلعامش [صُعد الجبل]
وذراً طحين الحمص في [الحفرة]
«أيها الجبل، هبني حليماً ...»

وموطن الحمص الأصلي جنوب شرق الأناضول (أي منطقة كردستان)، وشمال سوريا. ويرقى تدجينه، أي زراعته على يد الإنسان، الى حدود سنة ٨٠٠٠ ق. م. وبعد ذلك بنحو خمسة آلاف سنة ظهر الحمص في شبه القارة الهندية، التي تزرع اليوم ٨٠٪ من منتج الحمص العالمي.

ولهذا البقل مكانة اليوم في طعام العرب وسكان شرقي البحر المتوسط. وكان الحمص عزيزاً على قلب شارلمان. فقد أمر بزراعته في جميع الحدائق التابعة لأراضيه. ويقال إن الفينيقيين أدخلوه الى اسبانيا، وأصبح طعام الفقراء هناك. ومع ذلك أظهرت الحفريات أن الحمص كان معروفاً في جنوب فرنسا منذ الألف السابع قبل الميلاد. وكان الباعة الرومان يبيعون حبه المحمص في المسارح. ولعل كلمة «المحمص» ومثلها «التحميص» مشتقة من «الحمص».

ويمكن الإشارة الى (كتاب الحمص) لمؤلفيه روبر بيستوفي وفاروق مردم بك الصادر في العام ١٩٩٨ في باريس عن دار سندباد - اکت سود، الذي قرأت عرضاً له في مجلة الكرمل، جاء فيه أن المؤلفين قدما أطروحة شاملة ما أمکن - تأريخية وثقافية وفولكلورية زراعية وبيئية وطبخية، أدبية وعلمية تعليمية بقدر ما هي عملية وطريفة .. هذه الحبوب التي سار ذكرها على الألسنة، من أفلاطون الى سارتر، مروراً بهارون الرشيد وشارلمان وابن سینا ورابلیه وبوکاتشيو ... وذكره یاقوت الحموي، وورد ذكره في كتب الطبخ العربية. ونعرف الى جانب مزاياه الغذائية، أنه استخدم أيضاً في إعداد وصفات إعادة الشيخ الى صباه، قبل النغزاي بزمن طويل!

وكانت البازلاء موضع الاعتماد (في الملمات) عند المصريين القدماء، واليونانيين، والرومان. ومنذ القديم كانت البازلاء تنمو في مناطق البحر المتوسط، وحوض النيل، والمناطق الجبلية في آسيا. وكانت معروفة في فرنسا منذ الألف السابع قبل الميلاد، مثل الحمص، والبقلاء، والعدس. وكان الجنود الرومان يلتقطون حب البازلاء من الأراضي الرملية حول مخیماتهم في نوميديا وفلسطين ليضيفوه الى جعلتهم من الطعام المؤلفة من الطحين والزيت واللحم المقدد، وذلك في أوقات فراغهم. وكان الكاتب والطبيب الفرنسي رابليه (١٤٩٥ - ١٥٥٣) يفضل تناول البازلاء المجففة المطبوخة مع قطعة من لحم الخنزير. أما العدس فكان معروفاً أيضاً منذ العصر الحجري الحديث على الأقل، في الهند، ومصر، والشرق الأوسط، وأوروبا. وكان ينمو في براري الشرق الأوسط وآسيا الوسطى. وكان طعاماً شائعاً عند اليونانيين

والرومان (فقد كان طعام الفقراء). وكان المصريون المصدرين الرئيسيين للعدس في الأزمنة القديمة. ويقال إن المسلة المقامة الآن في ساحة القديس بطرس في الفاتيكان جلبت من مصر على عهد الإمبراطور الروماني كاليغولا وسط مئة وعشرين ألف مكيال من العدس. وكان الأثينيون يصنعون عصيدة مقوية من العدس تدعى Pitsane، وكان الرومان يُعدّون لجنودهم شوربة عدس لتقوية معنوياتهم القتالية، ذلك أن العدس المجفف غني بالحديد والفوسفور. لكن العدس أصبح بعد ذلك في أوروبا منذ القرن السابع عشر علفاً للخيول. ولم يستعد مكانته عند البشر إلا في أيام الثورة الفرنسية عندما تعرضت فرنسا للحصار.

والعدس كلمة مشتركة في جميع اللغات السامية. وكان طعام الفقراء لتوافر زراعته. ولا تزال شوربة العدس من الوجبات المفضلة في المطابخ العربية، لا سيما في موسم الشتاء. وكان العدس شائع الاستعمال في فلسطين، حتى أنه ذكر في التوراة عندما عاد عيسو شقيق يعقوب من البرية ووجد هذا الأخير يطهو عدساً خارج كوخه، فالتمس عيسو من يعقوب، شقيقه الأصغر منه، أن يطعمه من العدس لأنه هالك جوعاً. إلا أن يعقوب لم يطعمه إلا بعد أن اشترط عليه أن يبيعه مقابل ذلك حق بكوريته (أي حق الولد البكر).

في العام ١٥٢٨ قدم البابا كليمنت السابع بضع حبات من الفاصوليا التي جيء بها من أميركا الجنوبية، موطنها الأصلي، إلى القس بييرو فاليريانو، فزرعها هذا في أصص. وبعد أن طبخ محصول ما زرعه اكتشف أن مذاقه لذيق. هذه الحبات كانت تدعى فاجيولي Fagioli بالمقارنة مع الباقلاء التي تدعى Fava. وعندما أعلنت خطبة كاترين دي

مديتشي الى ولي عهد فرنسا، زَيْن القس فاليريانو لأسرة مديتشي أن تضيف كمية من هذه الفاجيولا (الفاصوليا) الى مهر الأميرة. ومنذ ذلك اليوم دخلت الفاصوليا الى فرنسا، بعد أن استمتع سكان فرنسا الجنوبية بطعمها وأحبوها كثيراً، وجعلوها جزءاً مهماً من غذائهم. ثم عرفت الفاصوليا الفرنسية هذه في بلدان البحر المتوسط بأسماء مثل فاجيولو، وفابون، وفازبولوز مشتقة كلها من كلمة Fava، التي تطلق على الباقلاء. لكن هذه النبتة كانت تعرف في مهدها الأصلي باسم ayocotl، في أميركا الوسطى، وجنوب المكسيك، يوكاتان. والفاصوليا من النباتات الوافرة الإثمار، لهذا أطلق عليها الاسم العلمي الآتي: *Phaseolus multiflorus*. ولهذا السبب تأتي البقوليات في المرتبة الثانية، بعد الذرة، في الأهمية في طعام أميركا اللاتينية، من نيومكسيكو الى مضايق ماجلان. والفاصوليا الخضراء تدعى في بريطانيا «اللوبياء الفرنسية».

ويتحدث امبرتو ايكو عن أهم الاختراعات في قرننا (قرأت ذلك في العدد ٦٠ من مجلة الكرمل)، فيشير بصفة خاصة الى البنسلين، ومعه تلك العقاقير التي تجعل البشر يبلغون اليوم سن الثمانين، بعد أن يدع جانباً الطاقة الذرية والسفن الفضائية والكومبيوتر. وكنت أنا أيضاً رشحت البنسلين في الحديث عن أهم مخترعات القرن الماضي، لكنني لم أفطن الى أهمية الفاصوليا في الألفية الثانية المنصرمة، إلا بعد أن نبهني إليها امبرتو ايكو، في إجابته عن سؤال توجهت به مجلة (نيويورك تايمز ماغازين) حول حصيلة المعرفة الإنسانية في الألفية المنصرمة. فبعد أن استعرض منجزات مهمة كثيرة على مدى الألفية

الماضية، قال تحت عنوان (حين كانت الفاصوليا هي المنقذ): «لكن ما أود الحديث عنه حقاً هو الفاصوليا، وليس هذا فحسب بل البازلاء والعدس أيضاً». وأوضح كيف أن هذه البقوليات الغنية بالبروتينات، عوضت عن اللحوم التي كان يتعذر على الفقراء تناولها، وبذلك لعبت زراعتها على نطاق واسع في أوروبا منذ القرن العاشر، في زيادة سكانها. ثم يقول: «نحن نؤمن أن الاختراعات والاكتشافات التي غيرت حياتنا تعتمد على الآلات المعقدة. لكن الحقيقة هي أننا مانزال على قيد الحياة بسبب الفاصوليا ... بدون الفاصوليا ماكان عدد سكان أوروبا سيتضاعف خلال قرون قليلة، وماكانا اليوم سنعد بمئات الملايين، وماكان بعضنا بمن فيهم قراء هذه المقالة - سيولدون ذات يوم ...».

أما فول الصويا Soya beans فهو نبتة بقولية كالبازلاء، والفاصوليا، والفلول. ازهارها مفرشة (تشبه الفراشة)، وقد يكون لونها أحمر، أو أبيض، أو أرجوانياً. وتزرع للاستفادة من حبها، وصلصتها، وزيتها. ولعل فول الصويا أكثر أصناف البقوليات استهلاكاً في العالم.

* * *

الريحان: يدعى الريحان بالعربية الحبق، أيضاً؛ وبالأشورية والبابلية قُرنو؛ وبالسريانية قُرنشا. واسمه بالانكليزية basil، وهي من اليونانية basilikos، أي «الملكي». وهو الآن يفضّل عند أهالي البروفنس في فرنسا، والإيطاليين، الى جانب العراقيين.

الكراث: ويدعى بالسومرية ga-rash-shar، وبالأشورية karshu، وبالسريانية kartha، وكذلك keréshah. وهو باللاتينية Allium Porrum،

وبالإنكليزية leek. وكان الكراث يُزرع في حدائق وادي الرافدين منذ عهد سين - مُبَلَّط (حوالي ١٩٥٠ ق . م.) على الأقل.

الرَّشَاد: يدعي الرشاد بالآشورية البابلية «ساخله»، وبالإنكليزية cress. يقول العالم الروماني Pliny: «خير الرشاد البابلي». وقالت العرب قديماً: «أجود مالقينا من الحُرْف في أرض بابل». والحُرْف هو الرشاد بالعربية، ولعل التسمية جاءت من حرافة طعمه. وقال جالينوس: «يمكن أكل الرشاد مع الخبز، كما كان الأسبارطيون يفعلون». وكذلك كان ولازال سكان وادي الرافدين يفعلون.

الكرفس: من المعروف أن الكرفس ينمو في كل أنحاء العالم منذ آلاف السنين، مع أن ساردينيا تدّعي أنها موطنه الأصلي (مثلما تدعي أنها موطن الريحان). وكان الكرفس علامة العملة الساردينية عندما كانت مستقلة. وكان مشهوراً عند اليونانيين القدماء، الذين يضعون أكاليل منه على رؤوسهم في الولائم. ويقال أن الكرفس يطرد الكآبة، مع أنه كان يعتبر عند اليونانيين القدماء عشبة النسيان. وكان يقترب عندهم بالموت. وفي القرون الوسطى كان يعتقد أنه يمتد إلى الشيطان بصلة. وكان يقال الشرير وحده يزرع الكرفس!

لم أجد إشارة واضحة للكرفس في معجم النبات الآشوري، سوى كلمة «خي - إيص - شار»، التي تطلق على الخس أيضاً. ويميل كاميل تومپسون إلى أن هذه الكلمة كانت تطلق في وادي الرافدين على الكرفس، ربما بما يقابل الكلمة السريانية الغامضة «حَيصا».

البصل: وينسحب هذا على البصل أيضاً، فكلمة «بَصْرُو» يُفترض أنها تقال للبصل بالآشورية، وجاءت في معجم النبات الآشوري

باعتبارها المقابل أيضاً لكلمة GA_RASH_SHAR السومرية التي تطلق على الكراث karshu بالآشورية. ويعتقد تومپسون بأن SE_SIKIL_SHAR السومرية التي ربما تعني «الثوم اللماع»، قد تعني أيضاً «بصل». أما كلمة «بَصْرُو» الآشورية، فتقابلها ببصل بالعبرية، وببصل بالعربية. وأذكر أن كلمة tsibula (إن لم أخطئ في نطقها) هي البصل في التشيكية، ولعلها كذلك في اللغات السلافية.

والبصل ينمو بصورة طبيعية في الساحل الفلسطيني حتى خليج البنغال. ورائحته القوية دليل على مزاياه المقوية. والمهم أنه كان معروفاً في بابل منذ سنة ٢٠٠٠ ق. م. على الأقل، وفي مصر حيث كان يقدم طعاماً إلى بُناة الأهرام، مع الثوم والكرفس. والبصل غني جداً بفيتامين C، والأملاح المعدنية، والمواد الأخرى. وكان طعاماً مهماً للبحارة حتى القرن الماضي. كان طعاماً أساسياً عند الفينيقيين واليونانيين، بصفتهم بحارة من الطراز الأول.

البابونج: يدعى بالسومرية SHIT_GAN، وبالآشورية «قربان أقلي»، أي قربان الحقل، بمعنى هبة أو هدية الحقل. ويدعى باللاتينية Anthemis nobilis وبالإنكليزية Chamomile. وكان يوصف في آشور للرأس، وربما للشعر أيضاً (مع الشب، وزيت الأرز). ووصف لحكة الرجل، وللكتفين إذا آلم المريض. ووصف للنساء أيضاً. كما وصف لتقطر البول، والبرقان، واستعمل في علاجات عديدة (في وسواس المرض، والهستيريا، والحيض، والحمى المتقطعة، وعسر الهضم، والنبته كلها ككمادة، ولاسيما عند النزف).

وأشار كاميل تومپسون إلى التشابه الواضح في اللفظ بين قربان

أقلي (أو حقلي في واقع الحال) وقُرببان، العربية، التي تقال للبايونج. لكن هذه الكلمة العربية منقرضة على ما يبدو، بعد أن حلت محلها الكلمة الفارسية «بانونج».

الفرخ أو البرين: البقلة الحمقاء. جاء في كتاب (معجم الألفاظ الفارسية المعربة) للسيد أدي شير، أن الفرخ معرب فرقه (الفارسية). وفيها لغات بالفارسية: پَرپریم، وفرفين، وفرفينه، وبرپهن، وفرقهن. وبالعربية الفرّحين، والفرفين، والفرفير. والفارسي مأخوذ من الآرامي فرفحينه، وهو مشتق من فرّخ، أي تفتت (راجع فرنكل ص: ١٤٣). ومنه الكردي پارپار، وهو pourpier بالفرنسية.

ولم أجد له ذكراً في معجم النبات الآشوري، مع أنه ينمو بكثرة في كل مكان، وحديقة، في وادي الرافدين.

الكزبرة: بالآشورية البابلية kusibirru، وبالآرامية kusbartha، وبالانكليزية coriander. ويقول كاميل تومپسون إنه اشترى (في فترة احتلال الجيش البريطاني العراق) من سوق الموصل كزبرة باسم «فزبوعة». وكانت توصف مع الشاي لعلاج أوجاع المعدة.

الحلبة: أما الحلبة فتدعى بالآشورية - البابلية «شَمبيلتو»، وبالآرامية «شبهلِتا»، وبالانكليزية fenugreek. وللحلبة تسمية أخرى بالآشورية - البابلية، هي tuldu أو tltu، وبالآرامية tiltan، وربما بالفينيقية titlo.

السماق: كان السماق يدعى بالآشورية kamantu، وكذلك «صاپرو» أو «صاپراتو»، بمعنى «أصفر» على أغلب الاحتمال، كما يرى كاميل تومپسون؛ حيث كان السماق يستعمل لصبغ الجلود. والسماق من

منتجات الشمال في العراق، حيث الاتجار بالجلود وصناعتها. وهكذا يستعمل في إيطاليا، لاسيما خشبه أو لحاؤه، وكذلك في تركيا. وثمر السماق حامض وقابض. وتستعمل حبوبه لاستنهاض الشهية. هكذا يستعمل في حلب. وكان عند الآشوريين يوصف بأنه شام شامو آشة، أي «دواء للشهية». ويستعمل عندنا الآن وفي العالم العربي كتابل مع المشويات.

الكمّون: يدعى بالآشورية kamunu، وبالعبرية kammon، وبالسرانية kammuna. أما الكمون الأسود فيدعى بالآشورية zibu، وبالعربية شُونِيز، أو كمون أسود، أو حبة السودا، أو حب البركة. وفي الموصل، وغيرها، كما لاحظ كاميل تومپسون، كانوا يخلطون الكمون في الخبز؛ وهكذا كان يفعل الآشوريون.

الزعفران: يدعى الزعفران بالآشورية azupiru أو azupiranu. وكان في آشور يستعمل كثيراً كدواء. وفي اليونان كان ذبوسقير يدوس ينصح باستعماله لعلاج العين والأذن، ومضاداً للتشنج ومدراً للطمث. وفي الهند يستعمل ضد الحمى، والمالنخوليا (الكآبة) وتضخم الكبد.

وكان الزعفران من بين المساحيق التي تستعمل في آشور في خضاب الكف، حيث يقوم مقام الحنّة، لأنهم لم يعرفوها، على ما يبدو. ومن بين الصبغيات الأخرى لهذا الغرض، الكركم kurkanu، والخردل الذي يدعى بالآشورية «خلد بانو».

ويعتقد كاميل تامپسون أن كلمة azupiranu (الزعفران) مشتقة من كلمة «صُوبرو» الآشورية، التي تطلق على الظفر، لأسباب تائمية (انثروبولوجية).

ويبدو أن هناك مفهوماً تبادلياً بين الكركم والزعفران. فالكلمة السنسكريتية للزعفران هي kumakuma أو kunkuma، ولعل هاتين اللفظتين هما أصل كلمة kurkanu الآشورية. أما كلمة «أزوپيرانو» فيبدو أنها آشورية - أكديّة أصيلة، لاشتقاقها من كلمة «ظفر».

الملوخية والسبانخ: نحن لانأكل أو لانكاد نعرف الملوخية في العراق. لكنني عثرت على أثر لها في معجم النبات الآشوري. فاسمها بالسومرية «زید - ما - لآخ»، وبالآشورية «ملاختو»، وتقابلها بالعبرية «مالواخ» وبالسريانية «ملوخوا». وهي ضرب من السبانخ البري، يقال له باللاتينية *Atriplex halimus*. ولعل لفظة «ملاختو» الآشورية كانت تطلق على السبانخ.

وفي الآشورية مسميات أخرى للسبانخ البري، مثل «ضفة النهر»، و «شطأ الفيضان»، و «KU_SA البحر». وهو من النباتات القلوية، فقد ورد ضمن قائمة بالأعشاب والنباتات القلوية.

ويُعتقد أن الموطن الأصلي للسبانخ إيران، حيث لا يزال البري فيها يؤكل. ولم يكن السبانخ معروفاً عند اليونانيين القدماء ولا الرومان. وأول زراعة أوروبية له كانت في اسبانيا، كما يُعتقد، في القرن الحادي عشر الميلادي، أي بعد أن أدخله العرب.

الفجل والجرجير: يدعى الفجل puglu بالآشورية، و pughla بالآرامية. أما الجرجير، الذي يشبه طعم ورقه ورق الفجل، فهو بالسومرية GAR_GAN_GAN، وبالآشورية gingiru. ولا بد أن هذه أصل لفظة «الجرجير» العربية. ويدعى الجرجير بالانكليزية rocket، وباللاتينية *Eruca sativa*. وقد أطمعني منه الصديق الراحل الدكتور خالد المجادر، عندما زرته في مدينة الرباط.

الشوندر: يدعى الشوندر، أو الشمندر بالسومرية SUMUN_DAR، وبالآشورية «شوموتو»، وبالسريانية «سيمطرايا». ويدعى باللاتينية Beta vulgaris. لكن هناك لفظة آشورية أخرى له، هي «شو - اون - دار». والظاهر أن العربية استعارت الاسم من السومرية SU-MUN_DAR. وتجدر الإشارة إلى أن المقطع الأول SUMUN يعني «دم» بالسومرية. فهو النبات الذي بلون الدم. أما لفظة «شوموتو» الآشورية، فتعني كذلك «نباتاً أحمر». لكن هذه اللفظة مستعارة أيضاً من السومرية. والشوندر ينمو برياً في وادي الرافدين.

أما اللفت، ففي الآشورية laptu، وبالآرامية laphta ولا بد أنه كان ينمو برياً في وادي الرافدين. ولا أدري إذا كانت طريقة إعداده «المائع شلغم»، أي اللفت المسلوق والمحلى بالدبس، تعود إلى أصول سومرية - بابلية؛ فهي لا تتطلب فناً كبيراً.

الخيار: يدعى الخيار بالسومرية «اوكوش - شار»، وبالآشورية قِشُو. ولا بد أن كلمة «قِشَاء» العربية، ترجع إلى الأصل الآشوري، وهذا بدوره، يرجع إلى السومرية «اوكوش». وحتى الكلمة اليونانية xuxos (وتلفظ خوخوس)، ومثلها اللاتينية cucumis ترجع إلى الأصل الرافديني.

ولعل القِشَاء، هذا، أو «قِشُو»، يطلق على الخيار الطويل الأبيض، أو الفاقع اللون، المحرز، أو ما يدعى «تعروزي» بالعراقية الدارجة. أما الخيار الصغير، الذي ندعوه في العراق بخيار الماء فهو UKUSH_DU13 بالسومرية، أي القِشَاء الصغير. أما بالآشورية فيسمى ubanu، بمعنى الأصبع، أو البنان.

وفي القرآن لاترد كلمة «خيار»، بل «قثاء». ويؤكد السيد أدبي شير في كتابه (معجم الألفاظ الفارسية المعربة) على أن «الخيار: فارسي محض، وهو معروف. خيار شنبر، وخيار جنبر. فارسيته خيار جنبر. وهو شجر له ثمر كالخرنوب يُتداوى به. عربيته القثاء الهندي» (عن كتاب البرهان القاطع).

ويتطرق معجم النبات الآشوري الى ذكر ضرب من الخيار قصير، بيضوي الشكل يدعى بالآشورية ashki - alpi أي (خصية الثور).

وحسب الفحص الكربوني ترجع زراعة الخيار (أو معرفة الإنسان به) الى ٩٧٥٠ ق . م. على الأقل. وبات متفقاً عليه الآن أن أصله من تايلاند، وليس الهند كما كان يُعتقد سابقاً. وكان الخيار يزرع في الجنائن المعلقة في بابل. وقد أغرم به العبريون والرومان. ومن بين الملوك المعجبين به: أوغسطس، وتيبريوس، وشارلمان، ولويس الرابع عشر.

وأذكر أن «خيار الماء» في العراق كان صنفين، أخضر وأبيض. وكان الناس يفضلون الأخضر على الأبيض، مع أن الطعم واحد، بعد التقشير. وقد انقرض الصنف الأبيض في العراق. وآخر مرة عثرت على أثر له كان في بلدة عنة في عام ١٩٥٧، عندما نُقلت اليها.

والغريب أن معجم النبات الآشوري لا يكاد يأتي على ذكر البطيخ (بصنفيه الأحمر والأصفر) مع وجودهما بكثرة في وادي الرافدين. ربما لعدم أهميته في الطب. وقد أشار شاييل Seheil الى رقم طيني في أور ترد فيه كلمات ناقصة، لعلها تشير الى أصناف البطيخ، من بينها كلمة UKUSH_A DUG. ولما كانت لفظة DUG تعني «حلو»، أو «طابو»، أي «طيب»، بالآشورية، فلعل البطيخ كان يدعى «الخيار الحلو»، وهي

تسمية ليست في غير محلها، لأن الخيار والبطيخ والكوسه من فصيلة واحدة.

الباذنجان: ويقال له بالسومرية GESHTIN_KA ، وبالأشورية (I)Pilu. وهذه اللفظة الأخيرة تقال لنبات الفلاح أيضاً. وكلمة «فلاح» العربية هي نفس كلمة pillu مع الإبدال (بالحروف). ومع ذلك فإن كلمة فلاح العربية تقال لأحد أصناف الباذنجان.

كلمة GESHTIN السومرية تقال للعنب أيضاً، لأنها تعني شيئاً أشبه بالبيض. وهكذا هو العنب، وكذلك الورد الجوري (المقصود بذلك ثمرة الورد، بعد أن تسقط عنها البتلات). لذلك استعملت للباذنجان أيضاً لأنه يشبه البيض. وبالإنكليزية egg plant (أي نبات البيض)، الى جـاـنبـ aubergine.

ويعتقد أن موطن الباذنجان الأصلي هو الهند رغم عدم وجود أصناف برية منه هناك. ولم يكن الباذنجان معروفاً عند اليونانيين القدماء ولا الرومان، على أنه بات من الأطعمة المعروفة في حوض البحر المتوسط، بما في ذلك بلدان البلقان. وقد أدخله العرب الى اسبانيا في القرن الثاني عشر. ثم دخل بريطانيا وإيطاليا في القرن السادس عشر كنبات للزينة أول الأمر، لأن الناس كانوا يعتقدون أن ثمره يورث الجنون، ولهذا سمي «تفاح المجانين». لكن الاسبانيين، ربما كالعرب، كانوا يفضلونه كثيراً، ظناً منهم بأنه ينشط الرغبة الجنسية. وعندنا لا يزال يُعتقد أن أكل الباذنجان يورث الجنون أو التهيج العصبي.

أما الباميا: فلم تكن معروفة عند سكان وادي الرافدين القدامى، ولا عند العرب، ولا حتى في أيام العباسيين. وأصلها من الهند. وربما

انتقلت إلينا في أواخر العهد العثماني، أو مع دخول الإنكليز. الرز: لدينا في العراق ثلاثة أسماء للرز، هي: الرز، التمن، والشلب. وهذه الأخيرة تطلق على الرز غير المقشور. ويقول كامبل تومپسون إن كلمة pirinj كانت إحدى الألفاظ التي تطلق في العربية (لاسيما في العراق) على الرز. فهي التسمية الرابعة (طبعاً كان ذلك في أيامه، أي في بداية القرن العشرين). ولنبدأ بالكلمة الأخيرة، التي استعيرت من الفارسية gurinj. ومن الفارسية استعار الآشوريون كلمة kurangu، التي تقال للرز عندهم. أما التمن، فيقول الصديق الراحل هادي العلوي: إنها من اللغة الصينية. فالرز بالصينية «تامي». ويقول: «وأبلغني الدارس الصيني المسلم رضوان ليو أن الكلمة منطوقة في جزيرة هاينان، في البحر الجنوبي بنفس لفظها العراقي، أي تمن. وجزيرة هاينان تقع على طريق الحرير البحري، وفيها اليوم أقلية إسلامية من قومية هوي ذات الأصول العربية».

أما كلمة «رز» فأصبحت عالمية، وباللاتينية oryza، وبال يونانية oruza، وبالسنسكريتية vrihis. ويعتقد أن أصلها من إحدى لغات آسيا الجنوبية، ربما من اللغة التاميلية. علماً بأن الرز زرع في الهند منذ حوالي ٣٠٠٠ ق. م.

أما «الشلب»، فأنا أميل إلى الاعتقاد بأن الكلمة ترجع إلى أصل سومري، هو SHE_LI_A، التي تطلق باللغة السومرية على الرز، وتعني بالحرف الواحد عشبة الحبوب، من SHE (حبوب)، و LI_A «عشب»، كلاً، نجيل».

السّمسم: يدعى بالسومرية SHE_GISH_NI، أي (حب شجرة

الزيت)؛ وبالأشورية «شاما شَامُو»، ومعناها بالحرف الواحد: نبتة السمن. واستعيرت الكلمة الى اللغة اليونانية منذ القرن الخامس عشر ق . م. ولعلها انتقلت الى الانكليزية في القرن الثامن عشر عن طريق الفرنسية، التي كانت أول لغة ترجمت إليها ألف ليلة وليلة، التي ورد فيها ذكر السمسم، كما سنرى يعد قليل.

في حديث المؤرخ اليوناني هيرودوتس عن الحبوب في بابل، يقول: «أن نصل الحنطة والشعير اللذين يزرعان هناك يبلغ أربعة أصابع عرضاً؛ ومع أنني أعلم الى أي ارتفاع يبلغ طول نبتة الدخن ونبتة السمسم، فلن أذكره. ذلك أنني على يقين تام، بأن أولئك الذين لم يقيض لهم زيارة بلاد بابل لن يصدقوا مايقال عن زراعتها».

جرى ذكر السمسم منذ سلالة أور الثالثة. وكان يزرع في الصين والهند منذ أزمنة قديمة. ولعل أصله من آسيا أو شرق أفريقيا، كما جاء في الموسوعة البريطانية. وكان حب السمسم يستعمل بمثابة عملة نقدية في القرن السادس ق . م. وعرفت حلاوة السمسم ربما منذ أيام سومر وبابل (السمسمية)، وكذلك في اليونان القديمة. واستعمله الصينيون قبل خمسة آلاف سنة. وكانوا يحرقون زيتهم للحصول على أفضل أصناف الحبر الصيني من سناجه (رواسب دخانه). واستعمله الرومان مع الكمون كمطيب مع الخبز. وكان يعتقد بأن له مزايا سحرية؛ من هنا «أفتح ياسمسم» في حكايات ألف ليلة وليلة.

القصب: تطلق لفظة GI على القصب بالسومرية، وتقابلها qanu (قانو) بالأشورية. أما القصب الحلو، أي قصب السكر فيسمى بالسومرية GI_DUG؛ وبالأشورية «قانو طابو». ويقابل ذلك باللغة

اللاتينية *Acorus calamus* ، وبالإنكليزية *sweet reed* . والقصب الذي يستعمل في النسيج (عند ضفره) يدعى بالسومرية *GI_SHUL_SHAR* ؛ وبالأشورية «قانو شَلالي» ، أي قصب السلال. ولا أدري إذا كانت *GI_SHUL* السومرية أصل كلمة «قصب» العربية. فالقصب باللغات السامية يدعى «قان» ، أو «قانو» ، ومنها «القناة» العربية.

الكتان: يدعى بالسومرية *KAT* ، وبالأشورية *kitu* ، وباللاتينية *flax* . وكان دهنه يوصف في بلاد آشور علاجاً للرئتين؛ ومن قماشه تصنع الكمادات. أما استعمال خيوطه في النسيج فقد تحدث عنها بإسهاب أوتو (إله الشمس) لشقيقته إنانّا (عشتار) ، وكيف أنه كان يستطيع أن يصنع لها ملاءً منه بعد قصره ، وحلجه ، وغزله ، ونسجه ، الخ.

وكان الشاي المعدّ من جوب الكتان يستعمل علاجاً لالتهاب القناة التنفسية ، وعسر الإدراز . ومن المعروف أن كلمة (خيتون) اليونانية التي تقال للكتان مستعارة من السومرية - الآشورية ، حيث يُعتقد أن موطن الكتان الأصلي آسيا الغربية؛ فقد كان يزرع في وادي الرافدين منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.

القطن: يدعى القطن بالأشورية «ناش شپاتي» ، أي «الأشجار التي تحمل صوفاً» . وقد أدخله سنحاريب الى بلاد آشور في حدود ٦٩٤ ق . م. ويقال أن الاسكندر المقدوني كان أول من أدخله الى اليونان ، وكان يسميه «الصوف النباتي» أيضاً ، على غرار الآشوريين.

ولعل أصل القطن من شبه القارة الهندية ، فقد عثر في ١٩٢٩ في باكستان على خيوط قطنية ترقى الى ثلاثة آلاف سنة ق . م. وأنا أميل الى الاعتقاد بأن كلمة «صوف» العربية ربما كان أصلها

لفظة «شباتي» الآشورية، التي تطلق على الصوف.

أما كلمة cotton الأوروبية فقد استعيرت من العربية. وهي بالاسبانية algodón، وبالبرتغالية algodoa. وقد دخلت بريطانيا في ١٢٨٦م.

السوس: يبدو أن السوس الذي صادفه كامبل تومپسون في كركميس (أواسط الفرات، في سوريا)، وفي جنوب العراق، وذكره انزورث في جبل مكلوب شرقي الموصل، أنه دخيل على عالمنا، وربما جاءنا من السكيثيين منذ أيام الآشوريين أو قبل ذلك. وذلك بالاستناد الى الدليل اللغوي. فالكلمة بالآشورية «شوشو»، وبالعربية سوس. لكن كلمة SUSS الألمانية تعني «حلو». وعرق السوس حلو الطعم، فلا بد أن الكلمتين، العربية والآشورية، مستعارتان من اللفظة الدالة على الحلاوة في اللغات الهندية الأوروبية، كما يقول تومپسون. فالشيء الحلو بالانكليزية يقال له sweet؛ وتعني كلمة svad السنسكريتية: يذوق، يأكل. وهي بالآرية suadeo. الشفلح:

من بين النباتات البرية التي تذكرني بطفولتي يوم كانت أطراف بغداد كلها براري وبساتين. ويكاد يوجد الشفلح في كل برية في العراق. ولعله من فصيلة الصببر؛ أوراقه بيضوية الشكل، ثخينة نوعاً ما، وثمره أكبر من الزيتون، أخضر القشرة، وعند النضج يتفلع عن عصير ثخين أحمر قان كالديس تتوسطه حبيبات سود بحجم النمنم. كنا نستمرى ديسه هذا. وحين وقفت على كلمة supalu الآشورية - البابلية، التي تقال لشجيرة المن، في معجم النبات الآشوري، تذكرت الشفلح، ورجحت أن كلمتنا العراقية ربما كانت منحرفة من هذه اللفظة الآشورية. هناك «من»

يستخرج من نبات العاقول. وفي قاموس شيكاغو للآشوريات أن supalu ربما كانت ضرباً من العرعر (من الصنوبريات). أما السيد أدّي شير فيرجع بالكلمة الى أصل فارسي. وفي هذه الحالة قد تكون الفارسية مستعارة من الآشورية.

أما كلمة «العوسج» فيرى كامبل تومپسون أنها ترجع الى ashagu الآشورية - البابلية.

الورد: يدعى الورد بالآشورية - البابلية amaridu، أو awaridu. وتذكرنا بكلمة «ورد» العربية، كما يقول تومپسون، أي الورد بشوكه. أما العُليق فيقال له amurdinnu، أو awurdinnu. لكن الورد المنفردة يطلق عليها بالآشورية KASI-SHAR، وبالسومرية SILA_SHAR.

وكثيراً ما يرد ذكر كلمة «ماء الورد» في الوصفات الطبية الآشورية، كمحلول تذاب فيه أو تخلط ببقية الأدوية، ربما لتلطيف مذاقها. وكان يستعمل لعلاج الصداع مع بقية الأدوية. ووحده للعين: كان ينقع الورد في حليب البقرة أو حليب المرأة وتعصب العين به. ويستعمل للأذن، وللقدم، والركبة، بسحق بتلاته مع الحُلبة. وللصدر، والفم، وكضمادة بعد غليه بالبيرة... الخ. هذا في العلاج الخارجي، أما الداخلي فله استعمالات كثيرة: للسعال، حيث يسحن الورق ويؤكل، أو يشرب، أو يخلط مع الزيت والعسل. وللصدر حين يبصق المرء دماً، يشرب مع البيرة. وللمعدة، ربما يشرب أيضاً. ولتقطر البول، مع ماء التمر، والحليب.

ويستعمل الورد في التجميل، عندما تحرق بتلاته إحراقاً طفيفاً وتستعمل للأجفان، والأنف، والخ.

ويصنع ماء الورد من نبات الورد الذي يدعى باللاتينية -Rosa centifolia، عندما تكون تامة النضج. ويقول كامبل تومپسون أن موطن الورد الأصلي هو القفقاس وبلاد آشور.

أما اشتقاق كلمة kasi (الوردة، بالآشورية) فمن الفعل «كسى»، أو «كاسو» الأكدي، وذلك من كثرة البتلات التي تغطي البذور. وعلى غرار ذلك سميت Rosa centifolia من كثرة بتلاتها.

من جهة أخرى تطلق كلمة (GESHTIN_GIR (_RA) السومرية على الورد، وتقابلها (a) murdi(n) nu بالآشورية. وأظن أن GIR (_RA) هي أصل كلمة (جوري) العربية. بيد أنني قرأت في كتاب لشوقي ضيف أن «جور الفارسية اشتهرت بماء الورد وأدهنة الزعفران». ولعلها، هي الأخرى، تمت إلى أصل سومري.

الفصيلة التخديرية

وتشتمل على اللقاح، والبنج، والقنب، والخشخاش.

اللفاح: يطلق على اللقاح بالسومرية (NAM_TAR (_GIR)، وبالآشورية pi(I)lu، وهي المقابل لكلمة «لفاح» العبرية، مع الإبدال. ومن اسمائه العربية الأخرى: اليبروح. وهو نبات من فصيلة الشفويات، له أوراق كثيرة تتجمع على سطح الأرض ويظهر منها، في أواخر فصل الشتاء، زهر متفرق تحمل محله عنبيات ضاربة إلى الصفرة طيبة الرائحة، سائغة الطعم. وجذوره متشعبة على غرار شوكة الطعام. ويوجد له جذر جانبي قصير، أحياناً، يكاد يشبه الأعضاء التناسلية، مما يلقي ضوءاً على تسميته العبرية كما سنرى. ويرى كامبل تومپسون أن الكلمة السومرية (NAM_TAR (_GIR) هي أصل الكلمة اليونانية mandragoras

التي تقال للفلاح، مع بعض التحريف؛ ومنها جاءت الكلمة الإنكليزية mandrake. وهذا ما يذهب اليه جون الليغرو أيضاً في كتابه (الفطر المقدس والصليب). أما الكلمة السومرية فتعني بالحرف الواحد «نبات إله الطاعون الذكر». ويشير كامبل تومپسون أيضاً الى تسميات عربية تذكر بما يذهب اليه معنى الكلمة السومرية، مثل «خصيتي الشيطان»، وهي على غرار التعبير الآشوري «نبات نام - تار الذكر»؛ و «تفاح الجن». ويدعى اللفاح باللغة العبرية دودايم، والكلمة تعني «خصيتين». وكان الآشوريون يستعملون اللفاح كعلاج خارجي لألم الأسنان، وداخلي للأمراض البولية.

واللفاح شائع في سوريا وفلسطين. وكان يدعى باللغة الأوغاريتية (الكنعانية) «د د ي م»، وبالأرامية «بيروحييم»، لأنه كان يطرد العفاريت، حسب اعتقادهم. وهذه الكلمة من الجذر «برح». وفي الفولكلور القديم أن اللفاح يطلق صرخة عند اقتلاع جذره من التربة. وكانوا يعتقدون قديماً أن اللفاح يزيد الرجال وجداً بزوجاتهم من جهة، وهو علاج لعقم النساء من جهة أخرى. وكانوا يعتقدون أيضاً أن نبتة اللفاح تنافح بقوة ضد اليد التي تحاول اقتلاعها. فكان لاقطو اللفاح يحفرون حفرة حول جذره، ثم يشدون بحبل تطوّق نهايته الأخرى رقبة كلب، وحين يبتعدون عن النبتة، ويتبعهم الكلب، يشد عليها، ويصرع في الحال. وبذلك يشبع روح الانتقام عند اللفاح. (ينظر بهذا كتاب الأساطير العبرية لروبرت غريفز وروفايل باتاي). وربما لهذا السبب نجد عبارة مثل «بمخلب كلب أسود» في لوح طيني آشوري عن اللفاح. وجاء في الرسالة البغدادية لأبي حيان التوحيدي: «واللفاح الحولي،

الذي كأنه أكر من ذهب، أقماعها الزمرد، مثل ربح المسك والزعفران، يسكن الصداق، ويشفي من الأوجاع» (ص ١٧٢ - ١٧٣، تحقيق عبود الشالجي، مطبعة دار الكتب، بيروت ١٩٨٠).

واللفاح نبات يكتنفه الغموض والسحر أينما وجد، وقد كان هكذا منذ أزمنة قديمة. وحكايته في التوراة (تكوين ٣٠: ١٤ - ١٧) تضرب على وتر مايوثر عنه - في إطار الفوكلور الشعبي طبعاً - من أنه يقوى على العنة عند البشر والحیوانات، ويقضي على عقم النساء. وهي مواصفات لا أساس لها من الصحة. ومع ذلك جاء في التوراة أن رأوبين بن يعقوب وجد لفاحاً في حقل أبيه وجلبه الى أمه، ليئة، لكن ضررتها راحيل، العقيم، التمس منها أن تعطيها نبتة اللفاح، وقايضتها على أن تقضي ليلة مع زوجها المشترك (يعقوب).

ومن مزاياه الأخرى المزعومة أنه يورث الاستبصار، أي يحرك الرؤيا لدى مستعمليه، ويمكنهم من مشاهدة أشياء غريبة وعجيبة. ويزعم بعضهم أن بالوسع العشور عليه دائماً في الليل لأنه يشع في الظلام كمصباح. وفي العصور الوسطى كان اللفاح يستعمل في الأشربة والمستحضرات الأخرى لعلاج الأرق، ولوقف الألم. فإذا أمسك الأرق بحبته أو تفاحته عندما يأوي الى النوم، فإنه سيساعده على النوم. لكن مزاياه التخديرية لم تكن كافية لأن توفر لعطيل المسكين «نومة هائلة» على حد قول شيكسبير، نقلاً عن جون الليغرو.

البنج: الاسم السومري له هو (شام) خار - حُم - با - شير. ولم يرد له مقابل في اللغة الآشورية. واسمه العلمي باللاتينية *Withania somnifera*، وبالانكليزية *Henbane*.

هذا الاسم السومري لنبات البنج (الذي ذكرنا بنبات المرجان بالعربية، كما سنرى بعد قليل) يطلق أيضاً على صنف من الحجر، تسبقه كلمة «أبن» الدالة على الحجر، بدلاً من كلمة «شام» الدالة على النبات. ويقال له بالأكدية «بخرة»، أي «البحري»، الذي يرمز للمرجان الكروي الأحمر. وفي هذه الحال لابد أن النبات الذي يحمل الاسم نفسه (خار - خُم - با - شير) يشبه المرجان الأحمر الكروي، وكذلك ثمر العليق الأحمر لنبات البنج، والنبات الذي يدعى اليوم بالعربية «مرجان». ويطلق عليه بالعربية أيضاً «سكران»، وكذلك «سم الفار»، وينمو في يافا، وانطاكيا، والأردن. وهو كثير الانتشار، على طول سواحل البحر المتوسط؛ ويعرف عنه بأنه ذو مفعول منوم. ويعتبر جذره مقوياً ومغيراً (من حالة مرضية الى حالة صحية)، ومثيراً للشهوة الجنسية. ويستعمل أيضاً لحالات الإمساك، وهزال الأطفال، ووهن الشيخوخة، والروماتزم، الخ. وله مفعول تخديري ومدرر (ثمره بصفة خاصة). ويقول كامبل تومپسون أنه عندما كان في مدينة الموصل العراقية في ١٩٠٣ جلب له صديق بعضاً من ثماره من التلال الكردية، وقيل له أن اسمه أمبوبي ambubi، وأنهم يستعملونه لتدخين (تبخير) السن الملتهب.

ونبتة البنج تحتوي على مادة سامة قوية جداً، تسبب أحياناً تشنجات أو عتهاً مؤقتاً، وبالتالي فليس من المستغرب أن نجد لها ضمن قائمة الأعشاب التي تستعملها الساحرات في رُقاهن الضارة. وكان يُعتقد أنها تجترح القدرة على الاستبصار، وعند حرقها على النار، فإن أبخرتها تساعد السحرة على استحضار الأرواح، وفي غالب الأحيان من

الأصناف الشريرة. وتستعمل أيضاً في رُقَى الحب، وفي العلاجات السحرية للقضاء على النذب الغربية التي تسببها أعمال السحر. وأنه لن المجازفة أن يأكل المرء أي جزء منها، لاسيما الجذر. فقد كان يُعتقد أنها تورث العنة أو العقم، والجنون، أو غشية عميقة لا يمكن الاستيقاظ منها إلا بصعوبة.

وفي العلاج الشعبي، كانت نبتة البنج تستعمل لدفع الألم، لاسيما في حالات وجع الاسنان. وفي بعض البلدان، تدخن بذورها وأكياسها كالتبغ لهذا الغرض، وهي عادة قد تترتب عليها نتائج ضارة (عن كتاب Superstitions).

القنب: القنب بالسومرية A_ZAL_LA، وبالأشورية azallu. ولما كانت الكلمة الأخيرة تذكرنا بكلمة «عزل» السريانية، كما يقول كامبل تومپسون، وكذلك بكلمة «غَزْل» العربية، فهل يعني هذا أن الكلمة الدالة على «الغَزْل» في اللغات السامية ترجع الى أرومة سومرية؟ ومن مرادفات الكلمة السومرية - الآشورية الدالة على القنب أيضاً، gurgur- rum، من الجذر garanu «يتدحرج، يطوي»، وهي أصل الكلمة الفارسية gargarinj التي تطلق على القنب. وبما أنهم

كانوا يصنعون الحبال أيضاً من القنب، فإن gargurru قد تعني «حبل» أيضاً. من هنا جاء معنى الغَزْل، أي الفتل، في كلمة A_ZAL_LA السومرية. وبالتالي فإن من خواص القنب (أو الحشيشة، أو البنج، أو Cannabis Indica باللاتينية)، أولاً أنها مادة لصنع الحبال، وثانياً أنها عقار مخدر أو منعش. وذكر هيرودوتس أن التراقيين كانوا يصنعون الملابس من القنب ويسخنون البذور على أحجار مسخنة حتى الاحمرار

للتخدير (وهو ما يقابل عملية التدخين في الوصفات الآشورية، كما يقول كامبل تومپسون). ويقول هيرودوتس أيضاً «أن السكيثيين، حين يستخفهم الطرب، يضحّون ويصخبون». وذكر سُسُروتا في حديثه عن الطب الهندي، البنج (b'hanga) كعلاج، ويرد ذكر صنفين منه في كتاب صيني عن الأعشاب، يرقى الى القرن الخامس الميلادي.

ومن مرادفات «شام أزالو» أيضاً، GAN_ZI_GUN_NU وهي لفظة تشير الاهتمام، كما يقول كامبل تومپسون، لأنها تشتمل على المقطع GAN_ZI الذي ذكرنا بالكلمة الآشورية «كاناشو» (أفيون). وبالتالي فإن GAN_ZI_GUN_NU هي المعادل للحشيشة. وهذا يدعو للاعتقاد بأن المقطع السومري GAN، الذي يقابله بالآشورية «حَبِيلو» يعني «سارق»، وأن المقطع ZI يقابله بالآشورية «نابشتو» (نفس، روح)، أي أنه ذلك النبات (أو العقار) الذي يسلب اللب (الروح). أما المقطع GUN_NU، أي الجزء الأخير من الكلمة السومرية، فلا بد أن يكون صيغة مقابلة للكلمة الآشورية burrumu، وتعني «يبرم، يحوك». وكما قال السير David Prain أن هناك شبهة كبيرة، في الظاهر على الأقل، بين GAN_ZI السومرية و ganjha الهندستانية، التي تعني «قنب».

والمترادف الآخر، خارموم، قد يكون أصله سامياً، من الكلمة الأكديّة «خار - مو»، التي تذكرنا بكلمة «خرم» العربية، وبالعبرية kherem (شبكة).

وكان الأزالو (القنب) يوصف ضد الأورام. ويعطي لعلاج الكآبة: كل وأشرب منه بلا طعام آخر. وعلاج لكآبة الروح، تطحن حبوب الأزالو (القنب)، وتخلط مع

حبوب «شام دلبات» (أي نبات نجمة الصبح)، وضد عين الحسود.

يتضح أن استعمال الأزالو (القنب) في النصوص الطبية المدونة بالمسمارية لا يختلف عن استعماله في الطب المتأخر. وموطن القنب هو الأماكن المعتدلة في فارس، وغيرها. وقبل أنه دخل إيطاليا في أيام الرومان. أما القنب الهندي فلا يكاد يختلف عن النبات الاعتيادي، إلا في كونه أطول قليلاً وأوراقه أكثر انتظاماً في تناوب موضعها على الساق، ويوصف للأمراض العصبية، والسعال، ومرض الكزاز، ورهاب الماء (أو داء الكلب). ويقول پوست Post إن القنب، الحشيش، كان يزرع في كل مكان في الشرق الأوسط لألياف لحائه التي تصنع منها الحبال. أما نهايات النبتة المزهرة ذات المدقات، التي لا يزال منها المستحلب الراتنجي، فهي عند تجفيفها تدعى Cannabis Indica، أما البنج bhang، فهو الأوراق الأكبر، المجففة، والمتكسرة، المخلوطة مع قليل من الثمر. ويستعمل البنج في الهند لسوء الهضم، والسيلان، ويوصف للجروح أيضاً. ويقول Ritch إن القنب لا يزرع في كردستان، لكن Hoefer في كتابه (الكلدان) يذكره تحت اسم kimbis في وادي الرافدين.

ووشك نهاية القرن الثامن أو النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد، استعملت كلمة «قنبو»، أو «قُنَابو». وذكرت في رسالة الملك سارغون إلى أمه، مع المِـر myrrh، الخ، بشأن طقس أو عمل معين. ووردت كلمة «قُنْبو» في القرن السادس ق . م. (من السنة ٣١ من حكم نبوخذ نصر).

والآن لندخل في تفاصيل الاشتقاق اللغوي: يبدو أن كلمة «القنب» كانت منذ القديم كوزموبوليتية، واسعة الانتشار، على الأقل في لغات

غربي آسيا، واللغات الهندية - الأوروبية. فالكلمة الانكليزية الحديثة hemp التي تقال للقنب، ونظيراتها في اللغات الأوروبية الأخرى، ترجع الى kannabis اليونانية، مثلها cannabis اللاتينية؛ وبالأرمنية kanap؛ وبالألبانية kanep؛ وبالسلافية الكنسية conoplja (يلفظ حرف ز ياءً). وهذه كلها، كما جاء في معجم أرنست كلاين لاشتقاق المفردات الانكليزية، مستعارة من لغة أجنبية، ولعلها السكيثية. لكن قاموس Origin لمؤلفه Eric Partridge يفيد بأن الكلمات الجرمانية، واليونانية، والسلافية القديمة، الدالة على القنب، ترجع على ما يبدو، الى «لغة أوروبية شرقية قديمة». ويشير الى أن Walshe يرى أن أصلها ربما يعود الى لغتين قديمتين، هما لغة Cheremiss ولغة Zyrjan، وهما من اللغات الفنلندية - المجرية. ومما قد يعزز هذا الرأي أن الموطن الأصلي للقنب هو آسيا الوسطى.

والغريب أن هذه المعاجم لاتكاد تخرج عن النطاق أو الحزام الأوروبي؛ فهي لاتذكر وادي الرافدين، ولا حتى اللغات الآرية: الهندية (السنسكريتية)، والفارسية، والكردية، الخ، مع أن اللفظة نفسها التي تطلق على القنب، ترد في هذه اللغات، الى جانب ورودها في السومرية. ويعيداً عن المعاجم، يرى جون الليغرو أن كلمة kannabis (اليونانية) يمكن اقتفاء أثرها في المقطع السومري GAN، ويعني (رأس الفطر) أو الظلّة. لكن GAN السومرية تعني أيضاً، كما يقول الليغرو «قطعة أرض مسورة»، «حقل»، «حديقة»، أو «جنة». ومنها جاءت «جنات النعيم» أو «جنات النعمان»، أي «جنات أدونيس». ويستطرد الليغرو، أو يتنوع لغوياً (إذا استعرنا لغة الموسيقى)، فيتطرق الى كلمة

GAN_NU السومرية، التي تعني صبغة حمراء، ويرى أنها أصل الكلمة العبرية خنون (حنون)، التي تطلق على القُبْع الأحمر الذي يوضع فوق رأس النعجة حين ترعى، حماية لها من حرارة الشمس. وهناك معنى آخر لكلمة (حنون)، من الحنان. ويذكر الليغرو «قناً» العربية، وربما فاته أيضاً أن يشير الى كلمة «هناً» العربية، وتعني «طلى».

الخشخاش: يقال للخشخاش بالسومرية UKUSH_RIM، وبالأشورية irru. أن المقطع السومري UKUSH يعني «قشاً» كما مر بنا. ووجود هذا المقطع في الكلمة الدالة على نبتة الخشخاش مردّه الى أن ثمرة الخشخاش تشبه خيارة صغيرة. أما كلمة erru الآشورية، فهي من الجذر araru. ويعتقد كامبل تومپسون أن «شام أراو» يرمز للزهرة، زهرة الخشخاش الحمراء. كما أن UKUSH_RIM تساوي «شام شامو مارو» (العقار المر). وقد تذكرنا كلمة «أراو» الآشورية بالعرار العربية؛ لكن هذه الأخيرة تطلق على بهار ناعم أصفر طيب الرائحة. ومرة أخرى نستشهد بقول الشاعر العربي:

تمتع من شميم عرار نجد

فما بعد العشية من عرار

ويبدو أن شام إرو، وشام أراو يعنيان «خشخاش»، و «أفيون». ومن مرادفاتهما:

(أ) - شام شامو در بالسومرية، وهو «النبات الأحمر»، أو «العقار»، ولعله لا يرمز للخشخاش الأحمر إياه، بل الى الأفيون القهوائي المائل الى الحمرة.

(ب) - شام بلالو، ويعني: الدواء الذي يبلبل.

(ج) - «عقار لإطلاق اللعنة»، ويدعى بالسومرية ASH_DUG_GA، وبالأشورية shammi arrati tami. ولعل هذه التسمية جاءت من التلاعب اللفظي بكلمة araru «يلعن»، ويذكرنا بـ «الشجرة الملعونة» في القرآن (سورة الإسراء، آية ٦٠).

والخشخاش باللغة السريانية «ماميثا». وتجدر الإشارة الى أن كلمة mamit الآشورية تعني «محظور، محرم».

(د) - شام پا - پا - پا Sham PA_PA_PA، ويقابله بالأشورية شام أرات أزارو «رؤوس الخشخاش»، ولا بد أن المقصود بها الكبسولات (أكياس أو عليبات البذور). ويتساءل كامبل تومپسون: أيمكن أن تكون PA_PA (PA) أصل كلمة papaver (أو poppy) الإنكليزية، التي تطلق على الخشخاش؟.

(هـ) - شام آ - آ - با سا (Sham a-a-ba SA) ويعني «عدو العضلات»، وقد يرمز للتأثير التخديري للأفيون.

(و) - شام خنزيباتو، وهو على ما يبدو مركب من مقطعين، هما: خان + زيباتو، ويعنيان «قاتل الذئب»، أو ربما «خائق الذئب». ولعل كلمة «خان» الآشورية من «خانو» وتعني «يضغط على». أما «زيباتو» فمن «زيبو» (ذئب).

«وهناك أربعة أصناف من الخشخاش الأفيوني. اثنان منها ازهارهما بيض، وبذورهما بيض أو صفر، والصنف الثالث ازهاره وبذوره حمر، أما الرابع فأزهاره وبذوره بنفسجية ... والصنف المزروع في إيران أبيض» (عن كتاب «قضية الأفيون» ص ١٢، تأليف Neligan). أما الصنف الذي كان يوجد في سوريا فهو ذو بتلات بيض أو وردية. وأما الخشخاش الأحمر فينتشر في وادي الرافدين.

ولابد أن شام أدوماتو يُقصد به «العقار الأحمر»، الذي يذكرنا بحمرة عيسو (شقيق يعقوب في التوراة)، وبالعبرية «أدموني»، كما يقول كامبل تومپسون. أما أفيون آسيا الصغرى فهو أميل الى الحمرة، أو بلون الكستناء.

ويقترن الخشخاش بإلهة القمح ديمتر، اليونانية، التي فقدت مرحها المعهود، بعد أن انتزعت منها ابنتها كورة. كان هاديس - إله الموتى، أو العالم السفلي - وقع في حب كورة، وقصد شقيقه زيوس ليطلب يدها منه (زيوس هو أبو كورة). ولم يشأ زيوس أن يجرح شعور أخيه إذا رفض طلبه مباشرة، وكان يعلم أيضاً أن ديمتر لن تغفر له إذا أرسلت كورة الى تارتاروس (العالم السفلي). فأجابه جواباً دبلوماسياً بأنه لايمك قولاً بهذا الشأن. فشجع هذا هاديس على اختطاف كورة، عندما كانت تقطف زهور (الخشخاش) في أحد الحقول. وهامت أمها ديمتر على وجهها تبحث عنها. وأخبرتها هيكاتة أنها سمعت كورة تصرخ ذات صباح «اغتصاب! اغتصاب!» وعندما كان تريبتوليموس يرعى قطع أبيه، شاهد ديمتر، وأخبرها بالأخبار التي تهمها: عندما كان أخواه يرعيان القطعان، انشقت الأرض أمامهما وشاهدا عربة مسرعة تجرها خيول سود ثم غابت في الصدع. كان وجه سائق العربة غير مرئي، غير أن ذراعه اليمنى كانت تطوق بقوة خصر فتاة تصرخ.

فاستبد الغضب بديمتر ولم تعد الى جبل الأولمب (حيث مجمع الآلهة)، وواصلت هيامها على الأرض، مانعة الأشجار من أن تثمر، والأعشاب من أن تنمو، الى أن أوشك الجنس البشري على الفناء. فأرسل زيوس ابنه هيرمس الى هاديس يحمل إليه رسالة: «مالم تُعدّ

كورة، سنفنى جميعاً!» وأخرى لديميتير: «بوسعك استرجاع ابنتك، إذ لم تذق طعام الموتى».

ولحسن الحظ أن كورة لم تتورط بتناول كسرة خبز من طعام الموتى. فاضطر هاديس الى اخفاء استيائه، وقال لكورة: «ياصغيرتي، يبدو أنك لست سعيدة هنا، وأملك تبكي من أجلك. لذا أرى أن أرسلك الى البيت».

ويقترن الخشخاش بالعديد من الحكايات التي اجترحتها المخيلة الفوكلورية، منذ قديم الزمان. فهو زهرة النوم والنسيان، لخواص بعض أصنافه التخديرية. وأكثر من ذلك، هو النبات الذي ينمو في حقول القمح. وتقول الأسطورة اليونانية، أنه كان صنعة سومنوس Somnus، إله النوم، أهذه الى كيريس Ceres، إلهة الحبوب عندما كانت تبحث قلقة عن ابنتها المفقودة، وقضت بأن لاتدع الحنطة تنمو، ولانقاذ البشرية من المجاعة، أعطاهها سومنوس الخشخاش لتنام. وبعد نومتها، عادت إليها قواها، وعاد القمح لينمو من جديد. من ثم ساد الاعتقاد في القديم أن وجود الخشخاش في حقل القمح كان ضرورياً لإنتاج قمح وفير.

وكان الخشخاش يقترن بالخصوبة أيضاً، لأنه يحمل بذوراً كثيرة، وكانت هذه البذور تستعمل في تطيبب الطعام، وتعطى مع الخمرة والعسل للرياضيين المتدربين على الألعاب الأولمبية. ومع ذلك، كان الخشخاش يقترن بسوء الطالع في المعتقدات الشعبية. فيزعم أن قطفه يورث سوء الحظ، ولايفضل جلبه الى المنزل. وكانت زهرة الخشخاش تقترن بالشر لأنها تسبب أمراضاً، كما يزعم. لكنه، مثل زنبق الماء، كان يعتبر علاجاً ناجعاً في حالات الانجذاب العاطفي، وكان يستعمل لهذا الغرض في السحر، وكدواء.

ومنذ الحرب العالمية الأولى، اتخذ الخشخاش بُعْداً جديداً، كزهرة للذكرى، بسبب وجوده في حقول الفلاندر التي خيضت فيها معارك حامية.

شقائى النعمان: إن كثرة مرادفات هذه النبتة في النصوص الآشورية تعني أنها واسعة الانتشار في وادي الرافدين. ومن بين هذه الأسماء ما معناه «الكأس الحمراء»، و «الكأس البيضاء»، و «اللمعان الذهبي»، و «بريق الفضة»، و «بريق الذهب». وقد شاهد كامبل تومپسون، في أوائل القرن العشرين، شقائى نعمان قرمزية تنمو في الربيع على طول مئة ميل في الطريق بين الموصل ونصيبين. ومن المعروف أن شقائى النعمان تقترب بادونيس.

وقد جاء في الكتاب العاشر من مجموعة أوفيد عن الأساطير، أن أدونيس تحول الى زهرة بعد مقتله. وكان دمه هو الذي تحول الى نبتة شقائى النعمان. ومن كلمة (نعمان)، اسم أدونيس الآخر، اشتقت كلمة anemone اليونانية، التي تقال لشقائى النعمان في هذه اللغة، وبقية اللغات الأوروبية.

التوت: يدعى التوت بالسومرية MISH_MA_KAN_NA، وبالآشورية - البابلية musu(k)kanu، وباللاتينية Morus alba (التوت الأبيض)، أو Morus nigra (التوت الأسود)، وبالانكليزية mulberry. وذكر لايارد الذي قام بالتنقيبات في شمال العراق في القرن التاسع عشر أنه عثر في فمرد على خشبة لعلها من شجر التوت. وذكر تغلات بلاسر الثالث (ملك آشور) أنه قطع أشجار التوت في Sapi، ونظم مزارع التوت وزرع الأشجار أمام الجدار (أو السور). وأجريت تجارب على أشجار زرعت في آشور، وكانت الحصىلة تحسناً كبيراً في ثمارها. وجلب

سنحاريب شجرة من مدينة خارات في بلاد بابل كجزية، كما جلب داريوس الفارسي توتاً من بلاد غانداري.

ومنذ عهد آشور بانيبال فناًزلاً كان خشب التوت يستعمل في البناء. وكان يستعمل في صناعة الكراسي، والمغازل، وحتى قوائم للطبول.

ويقول كامبل تومپسون لابد أن كلمة Masukanu الآشورية هي أصل الكلمة اليونانية sukaminos التي تطلق على التوت.

الأترج والليمون: يقال للأترج في السومرية A-AM، ويقابله بالآشورية ildaquq وكذلك adaru. ويسمى الأترج باللاتينية Citrus medica (أي السترون الميدي)، وبالإنكليزية يدعى Citron. لكن الليمون يدعى بالسومرية A-AM-DU13 (يعني الأترج الصغير)، وبالآشورية - lam. وكان الأترج يزرع في نُفَر، العاصمة الدينية للسومريين، كفاكهة مقدسة مكرسة للإله انليل. وذكره المصريون القدماء، وامتدحه الاسكندر المقدوني، وذكره بلينيوس وفرجيل كعلاج ضد السموم.

يلاحظ أن الاسم السومري A-AM مؤلف من مقطعين يدلان على «الماء + الشور الوحشي»، بمعنى «العصير القوي». وهناك من يرى أن آشور هي الموطن الأصلي للأترج. فقد قرأت في كتاب (تأريخ الطعام) للكاتبة الفرنسية ماغلون تومسان ساما أن الموطن الأصلي للأترج يُعتقد في فارس أو ميديا (أي بلاد آشور). من هنا اسمه اللاتيني medica، أي الميدي، كما أشرنا أعلاه. وقد أعطى ثيوفراستوس اليوناني، بعد موت الاسكندر، وصفاً دقيقاً جداً للفتح الفارسي أو الميدي، الذي ينطبق على الأترج. ولم تكن الشمرة تؤكل، لكنها كانت تستعمل

لأغراض أخرى مختلفة. وكان الأترج شائعاً في إيران وميديا. وقال يلبنيوس الروماني أن شجرة الأترج كانت تدعى الشجرة الآشورية، ولدى البعض التفاح الميدي، وكانت توصف ضد السموم. ولها رائحة قوية جداً. وقد تعلم الرومان زراعة الأترج من الاتروسكيين، وأدخله العرب الى اسبانيا، بعد أن انقرض هناك.

ويعتقد كامبل تومپسون أن كلمة «أترج» هي المقابل لكلمة -itdaq qu الآشورية، بعد الإبدال.

وقد عثر على بذرة ليمون في نُفَر، كما عثر على آثار الليمون في مدينتي كيش وأور السومريتين. وجاء في كتاب (تأريخ الطعام) للكاتبة الفرنسية المشار إليها سابقاً أن زراعة الليمون ترجع الى ٢٥٠٠ قبل الوقت الحاضر، ويُعتقد أن موطنه الأصلي شمال الهند (كشمير). ومن الهند انتقل الى فارس وفلسطين وربما اليونان وإيطاليا، مع أنه كان ترفاً في العهود الكلاسيكية. واختفى من أوروبا بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب، ثم دخلها من جديد على يد العرب في اسبانيا. والكلمة السنسكريتية للليمون هي Nimbuka والهندستانية limbu، أو limu، أو ninhu. وجاء في (الرسالة البغدادية) لأبي حيان التوحيدي: «ومركب الليمو، والليمو الصيني، والرامشني...». وكان موجوداً في بغداد العباسية بأنواع شتى. واللايم أو الليمون المجفف هو «النومي بصرة»، الذي يُستورد من عُمان عن طريق البصرة.

أما البرتقال فأصله من الهند، ووصل الصين في حدود ٢٢٠٠ ق م. وأحبه الصينيون كثيراً حتى عندما كان في حالته البدائية، حيث كان شديد المرارة. أما الـgrapefruit فروت الليمون الجنة citrus

paradisi، أو الليمون الهندي، فلم يعرف في عالمنا لا في العهود القديمة ولا في القرون الوسطى. ويقال أنه قُدم هدية الى الامبراطور الصيني تايُون الذي حكم بين ٢٢٠٥ - ٢١٩٧ ق . م. كما يُزعم. وفي الواقع أن pomelo هو جد الكريب فروت. كان ينمو برياً في شبه جزيرة الهند الصينية وأندونيسيا.

أما الماندرين (لالنكي بالعراقية الدارجة) فقد جاء من إحدى مناطق الصين، وتوطن في الصين. ولعله أخذ اسمه mandarin من الرداء الأصفر الذي يرتديه الموظف المدني الصيني.

لكن البرتقال ظهر في ولائم اشراف روما في القرن الثاني الميلادي. كان يستورد من فلسطين. وزرعه الرومان في شمال افريقيا، حيث لا تزال توجد أنابيب الري المصنوعة من الطين المفخور على طريق قرطاج في تونس، وتدعى سُكرا من (سُكْر)، وذلك لحلاوة الهواء المعطر بأزهار البرتقال.

وفي كتابنا (جولة في أقاليم اللغة والاسطورة) تحدثنا عن بقية الأشجار الواردة ذكرها في هذا المعجم، معجم النبات الآشوري، بما في ذلك النخلة، والرمان، والخوخ، والتفاح، والكمثرى، والسفرجل، والإجاص، الخ.

جولة تاريخية فيما مرابط تطور اللغة المصرية القديمة

في كتابه الجديد Ancient Egyptian ، يقدم أنطونيو لوبرينيو من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، دراسة مستفيضة وجديدة في منطلقاتها عن تاريخ اللغة المصرية منذ أقدم صورها حتى انقراضها كلغة حية، أخذاً في الاعتبار أنه يخاطب في بحثه القيم هذا علماء اللسانيات وعلماء المصريات في وقت معاً. فهو يهدف من جهة أن يقدم الى جمهور المعنيين باللسانيات مقدمة لقواعد اللغة المصرية القديمة، إحدى أقدم اللغات البشرية، ومن جهة أخرى ينشد أن يجتذب اهتمام علماء المصريات من ذوي الخلفية بعلم اللسانيات، على الصعيدين البنيوي والتأريخي.

منذ أقدم صورها (المصرية القديمة) حتى أحدثها (القبطية)، بقيت اللغة المصرية القديمة تستعمل في التدوين (الكتابة) على مدى أكثر من أربعة آلاف سنة، من ٣٠٠ ق . م. حتى القرون الوسطى.

منذ أن صدر كتاب «قواعد اللغة المصرية» لغاردنر في العام ١٩٥٧ ظهر العديد من المؤلفات حول قواعد اللغة المصرية. وكان نتيجة ذلك أن بعض الأسس النظرية لوجهة نظر غاردنر في اللغة المصرية اهتز

أن لم يكن أبطل. هذا مع أن اللغة المصرية القديمة لاتزال الى هذا الحد أو ذاك تفتقر الى نظام متفق عليه بشأن نطقها الصوتي، مما يعقد مهمة الترجمة أيضاً. ولم يحصل اهتمام بالمسائل النظرية إلا حديثاً، وذلك بفضل الجيل الجديد من علماء المصريات المتمرسين في علم اللسانيات. تعتبر اللغة المصرية القديمة فرعاً مستقلاً بذاته من الأسرة اللغوية التي تدعى بالأفرو - آسيوية في الولايات المتحدة، أو السامية - الحامية حسب المصطلح اللغوي الحديث في أوروبا الغربية، أو الحامية - السامية في أوروبا الشرقية. وحسب هذا الكتاب تنقسم اللغات الأفرو - آسيوية (أي السامية - الحامية) الى الفروع اللغوية الآتية:

أولاً: اللغة المصرية القديمة.

ثانياً: اللغات السامية، وتشتمل على:

أ - السامية الشرقية في وادي الرافدين (الأكدية التي انقسمت الى لهجتين: البابلية والآشورية).

ب - السامية الشمالية الغربية في سورية وفلسطين، وتنتمي اليها:

١ - السامية الشمالية الغربية للألف الثاني ق . م. وتشتمل هذه على نقوش من جبيل في فينيقيا ومن شبه جزيرة سيناء، والآمورية، والكنعانية المبكرة، والأوغاريتية.

٢ - الكنعانية في فلسطين وفينيقيا في الألف الأول ق . م. وتشتمل على العبرية.

٣ - الآرامية بفروعها في سورية وبعد ذلك أيضاً في وادي الرافدين.

ج - السامية الجنوبية الغربية في شبه الجزيرة العربية. وتشتمل على:

١ - العربية، التي غالباً ما تصنف مع السامية الشمالية الغربية في مجموعة يطلق عليها اسم «السامية المركزية».

٢ - العربية الجنوبية المتبقية في كتابات النقوش.

٣ - الحبشية، وهي نتيجة لهجرة أقوام عربية جنوبية الى أفريقيا الشرقية.

ثالثاً: البربرية، وينطق بها أبناء البربر في شمال أفريقيا.

رابعاً: الكوشيتية، وينطق بها زهاء ١٥ مليوناً في أفريقيا الشرقية، من الحدود المصرية في شمال شرق السودان، الى أثيوبيا، وجيبوتي، والصومال، وكينيا، وشمال تنزانيا.

خامساً: التشادية، وتضم زهاء مئة وأربعين لغة ولهجة، يتكلم بها أكثر من ثلاثين مليون نسمة في شبه الصحراء الأفريقية حول بحيرة تشاد (نيجيريا، والكاميرون، والتشاد، والنيجر).

أما المصرية القديمة فكانت أقرب الى لغة البيجا (الكوشيتية)، والسامية، والبربرية، وأبعد صلة ببقية اللغات الكوشيتية والتشادية. وينقسم تاريخ اللغة المصرية القديمة الى مرحلتين أساسيتين في إطار بناء الجمل الإسمية ونظام الأفعال. وكل من هاتين المرحلتين تنقسم الى ثلاث مراحل:

أولاً: المصرية الأبكر، وهي لغة النصوص المدونة بين ٣٠٠٠ - ١٣٠٠ ق . م. وتشتمل على:

أ - المصرية القديمة، وهي لغة المملكة القديمة والمرحلة الوسيطة

الأولى (٣٠٠٠ - ٢٠٠٠ ق . م)، ومعظم وثائق هذه المرحلة جاء من الكتابات الدينية لنصوص الأهرام، ونسبة كبيرة مما يدعى بالسير الذاتية، وهي روايات عن انجازات أشخاص منقوشة على الجدران الخارجية للقبور الصخرية للنخبة الإدارية.

ب - المصرية الوسيطة، وتدعى أيضاً الكلاسيكية المصرية، منذ المملكة الوسطى الى نهاية السلالة الثامنة عشرة (٢٠٠٠ - ١٣٠٠ ق . م) وهذه اللغة المصرية الوسيطة تعتبر اللغة الكلاسيكية للأدب المصري القديم، تحدت في نصوص مختلفة يمكن تصنيفها في أبواب أربعة رئيسية، هي:

١ - نصوص جنائزية، لاسيما «نصوص التوابيت» منقوشة على أضرحة النخبة الإدارية.

٢ - «توصيات» أي النصوص الحكيمة، وغالباً ماتكون موجهة من أب الى ابنه، من أبرز نماذجها «توصيات الوزير بتاح حوتيب» و «توصيات لميركاره».

٣ - «حكايات»، وهي قصص تروي مغامرات بطل معين.

٤ - «ترانيم»، وهي نصوص شعرية بمحتوى ديني، كتبت في مدح إله أو ملك، من بين أشهر نماذجها «ترنيمة للنيل»، و «ترانيم للملك سيسوستريس الثالث».

ج - اللغة المصرية الوسيطة المتأخرة، وهي لغة نصوص دينية (طقوس، ميثولوجيا، ترانيم) من المملكة الحديثة الى نهاية الحضارة المصرية. وتدعى الوسيطة المتأخرة أيضاً بمصرية التقاليد، وقد تزامنت أيضاً مع المصرية المتأخرة لأكثر من ألف عام.

ثانياً: المصرية المتأخرة، وتؤرخ من السلالة التاسعة عشرة حتى العصور الوسطى (١٣٠٠ ق . م . - ١٣٠٠ م) وتنقسم الى:

أ - المصرية الأخيرة (١٣٠٠ - ٧٠٠ ق . م) وهي لغة السجلات المدونة من الجزء الثاني من المملكة الحديثة. وكتب بها أدب التسليية الغني للسلالة التاسعة عشرة، الذي يشتمل على نصوص حكيمية وقصصية، على سبيل المثال: «قصة الأخوين»، و «قصة وين آمون»، و «توصيات آني»، و «توصيات أمينيمويه»، وبعض الأنواع الأدبية الجديدة كالحكايات الميثولوجية أو شعر الحب. والمصرية الأخيرة كانت أيضاً لغة البيروقراطية الرمسيسية، مثل الوثائق الأرشيفية من مقابر طيبة أو النصوص المدرسية التي تدعى «متنوعات».

ب - الديموطية (القرن السابع ق . م. الى القرن الخامس الميلادي)، وهي لغة الإدارة والأدب في أثناء المرحلة الأخيرة. وتتميز في كونها تختلف في نظامها الكتابي. من بين أبرز النصوص الديموطية قصص Khaemwase-Setne وبيتوباستس وتوصيات أونخ شيشونقي. ج - القبطية (من القرن الرابع - القرن ١٤م)، وهي لغة المسيحيين في مصر، دُوِّنت بحروف مشتقة من الأبجدية الإغريقية مع إضافة ست أو سبع علامات ديموطية لترمز للحروف المصرية التي لا وجود لها في الإغريقية. وكلغة محكية، وبالتدريج أيضاً كلغة للكتابة، حلت العربية محل القبطية منذ القرن التاسع الميلادي، لكنها لاتزال حيّة حتى يومنا كلغة طقوسية للكنيسة المسيحية في مصر، التي تدعى أيضاً بالكنيسة «القبطية».

على مدى ثلاثة أرباع عمر اللغة المصرية القديمة، أي منذ حوالي

٣٠٠٠ ق . م . حتى القرون الأولى من العهد الميلادي، عرفت هذه اللغة ودونت بالكتابة الهيروغليفية hieroglyphic. وهي كلمة يونانية استعملت منذ المرحلة البطلمية (٣٢٣ - ٣٠ ق . م.)، وتعني «الحروف المنقوشة المقدسة»، وذلك في مقابل المصطلح المصري القديم «م د و . و-ن ت ر» الذي يعني «كلمات الإله». وفي الكتابة تطورت الهيروغليفية الى صنفين من الخط، أولهما يدعى «هيراتي» Hieratic، ويعني «كتابة الكهنة»، وهي الكتابة التي دوت بها اللغة المصرية منذ عهد المملكة القديمة الى القرن الثالث الميلادي. والثاني يدعى ديموطي Demotic، ويعني «الكتابة الشعبية»، من القرن السابع ق . م. حتى القرن الخامس الميلادي. ومع أن الهيروغليفية، على خلاف الكتابات الأخرى في الشرق الأوسط كالمسمارية في وادي الرافدين، لم تُستعمل إلا لكتابة اللغة المصرية (القديمة)، إلا أن ثمة ما يدعو للاعتقاد بأن النقوش السينائية القديمة من الألف الثاني ق . م. التي ربما تركت أثرها في صيغة الكتابة الأبجدية السامية الشمالية الغربية تعكس تأثيراً هيروغليفياً في بعض علاماتها. وتجدر الإشارة الى أن الرموز الهيروغليفية لاتشير الى المعاني التي تحملها هذه الرموز فقط، بل ترمز أيضاً الى حروف أبجدية. فصورة النسرترمز الى حرف «الألف» أيضاً، وصورة ذراع الإنسان ترمز أيضاً الى حرف «العين»، وصورة القدم ترمز أيضاً الى حرف «الباء»، وهكذا.

وفي الفصل الثالث يتحدث المؤلف بإسهاب عن النظام الصوتي في المصرية القديمة من مرحلة ما قبل التأريخ الى آخر مراحلها. وفي الفصل الرابع يدخل في التفاصيل الصرفية للغة المصرية القديمة. ويعالج الفصل

الخامس تراكيب الجمل الإسمية، وصيغ المسند، ويتضمن هذا الفصل حالات النفي أيضاً، حيث نعلم أن اللغة المصرية تتسم بدرجة عالية من التعقيد بالمقارنة مع اللغات الأفروآسيوية (أي السامية - الحامية). وكانت أقدم صيغة للنفي في هذه اللغة صورة ذراعين بشريتين في وضع يدل على النفي، والمقابل الصوتي لها إما: (ن) أو (ن ي). وهناك علامة أخرى مقابلها الصوتي (ن ن). كما أن هناك حالة أخرى تقترن فيها (ن ي) بأداة تابعة هي (ي س)، فتصبح (ن ي ... ي س) أو (ن ن ... ي س). وفي الفصل السادس المكرس للحال والظرف يتحدث المؤلف عن حالات الظرف والحال في الجمل الاسمية والفعلية بإسهاب مؤكداً على أن اللغة المصرية القديمة كانت مرنة جداً في موضوع الجمل التي تشتمل على الحال والظرف، وفي الحالات الموجبة والسالبة. أما في الفصل السابع (الجمل الفعلية) فيشير المؤلف إلى أن تعامل الباحثين اللسانيين المختصين بالمصرية القديمة انطوى على شيء من المفارقة. فمن جهة، نوقشت الصيغ الصرفية والوظائف الدلالية بمزيد من التفصيل في حالاتها كافة، ومن جهة أخرى قلل التركيز المستمر على تراكيب الجمل أو ما يدعى «بالنظرية القياسية» من دور «الجمل الفعلية»، كمقولة تركيبية.

ويعكس الكتاب على العموم - كما يقول المؤلف في خاتمته - الحيوية الفائقة للغة ميتة. فمع أنها إحدى أواخر اللغات التي فككت رموزها وتمت دراستها من منظور الدراسة اللسانية المقارنة، إلا أن اللغة المصرية القديمة برهنت على أنها لغة مثالية على صعيد الدراسات اللسانية. وعلى الصعيد الصرفي تشترك المصرية القديمة في نقاط كثيرة

مع بقية اللغات السامية - الحامية، لاسيما اللغات السامية، وعلى وجه الخصوص في الحالات الصرفية التي لها علاقة بالاسم: حالات التأنيث والجمع، والضمائر، وبعض الأعداد. لكنها في الوقت نفسه تتمتع بدرجة من الاستقلالية الذاتية لا يستهان بها في الصيغ الفعلية. وتبدو تراكييب الجمل في اللغة المصرية القديمة لعلماء اللسانيات المعاصرين أكثر معالمها تحدياً. فمن جهة تعكس هذه اللغة نظاماً صارماً في بناء الجملة، ومن جهة أخرى تسمح على نطاق كبير بتغيير التراكييب الجملية.

Ancient Egyptian, By: Antonio Loprieno

Cambridge University Press 1995

2 44849 521-ISBN: O

قراءة في كتاب تأريخ اللغة العبرية

صدر هذا الكتاب، (تأريخ اللغة العبرية)، باللغة الإسبانية مؤلفه انخل ساينز باديلوس، الأستاذ المتخصص باللغتين العبرية والآرامية في جامعة مدريد؛ وترجمه الى الانكليزية جون ايلولد في قسم الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس في جامعة شفيلد (بريطانيا)؛ وطبع في مطبعة جامعة كيمبرج في العام ١٩٩٣ (غلاف ثخين)، وفي العام ١٩٩٦ (غلاف ورقي). الكتاب دراسة شاملة ومفصلة لتأريخ اللغة العبرية منذ جذورها السامية حتى الوقت الحاضر.

في الفصل الأول (العبرية في إطار اللغات السامية) جاء أن اللغة العبرية لهجة أو لغة سامية نشأت في المنطقة الشمالية الغربية من الشرق الأدنى بين نهر الأردن والبحر المتوسط في النصف الأخير من الألف الثاني ق. م. (أي بين ١٥٠٠ - ١٠٠٠ ق. م.). ويرى المؤلف أنها باعتبارها لغة التوراة، لعبت دوراً مهماً جداً ليس فقط في تأريخ الشعب الذي يتكلم بها، بل وفي الحضارة الغربية أيضاً بصورة عامة. لكننا نعتقد أن هذا الكلام يصدق على تعاليم التوراة أكثر منه على اللغة العبرية، لأن الكتاب المقدس لم يُقرأ في العالم الغربي المسيحي

باللغة العبرية، بل باللغات الأوروبية المتعددة، وإنْ حاول عدد من المثقفين المسيحيين تعلم العبرية لكونها اللغة الأصلية للكتاب المقدس. ولأن العبرية هي اللغة الأصلية للكتاب المقدس (التوراة بالذات)، اكتسبت أهمية خاصة، وأصبحت بالنسبة لليهود - بصورة خاصة - لغة مقدسة «ليشون هاقوديش». واعتبروها، وكذلك الكثير من المسيحيين، لغة الخليفة، ومنها تفرعت بقية اللغات. وزعم البعض أن مما يعزز هذه «الحقيقة» أن العبرية وحدها جاء فيها التقارب اللفظي بين كلمتي «ايش» (الرجل) و «إشه» (المرأة). ومن هذه «الحقيقة» استنتج المدراس (تفسير التوراة) أن العالم إنما خلق من خلال العبرية. على أن المؤلف يشير أيضاً إلى شيوع تقليد آخر بين اليهود، والعرب، والسريان، والمسيحيين، وآباء الكنيسة، يرى أن الآرامية أو السريانية (فرع من الآرامية) هي لغة الخليفة.

ويتحدث المؤلف في هذا الفصل بإسهاب عن اللغات السامية متطرقاً إلى أحدث الدراسات الصادرة بهذا الصدد. فنكتشف مثلاً أن العالم والفيلسوف الألماني لايبنتز كان أول من وجد مصطلح «اللغات السامية»، وليس شلوتسر، كما هو متعارف عليه. ويرى المؤلف أن الزعم القائل إن الحروف الصامتة وحدها في اللغات السامية تعبر عن معنى، ليس صحيحاً بصورة مطلقة، لأن حروف العلة من شأنها أيضاً أن تقوم بدور أكثر من كونها مقيدات نحوية. كما أن الزعم حول الطبيعة الثلاثية للكلمات السامية (أي أنها تتألف في معظمها من ثلاثة أصوات، مثل: كتب، ذهب، الخ) يبقى موضوع نقاش، ولم يثبت على أنه يرجع إلى تاريخ أقدم من الجذور الثنائية التي تحدت في العديد من الأسماء وحتى الأفعال السامية.

ولا يزال تصنيف اللغات السامية موضوع نقاش. ويرى المؤلف أن التصنيف التقليدي للغات السامية الى خمسة فروع هي الأكديّة، والكنعانية، والآرامية، والعربية، والحبشية، لم يعد ملائماً اليوم. ويشير على نحو خاص الى أن الدراسات الحديثة زادت اللوحة غموضاً بطروحاتها التي ترى أن لغات متباعدة كاللهجتين البياؤودية (في سوريا قديماً، ولا علاقة لها باليهودية)، والآرامية، واللغات العبرية، والفينيقية، والعربية الشمالية، يمكن اعتبارها لهجات من اللغة الآمورية. وفي حين يرى البعض أن اللهجتين التدمرية والنبطية، اللتين كتبتا بالخط الآرامي وتعتبران تقليدياً من فروع الآرامية، إلا أن خبراء آخرين يرونهما لهجتين عربيتين. ويتحدث البعض عن مجموعة سامية وسطية تشتمل على العربية، والكنعانية، والآرامية، في مقابل المجموعة السامية الجنوبية التي تشتمل على العربية الجنوبية والحبشية.

وعلى الصعيد الغراماطيقي، لا تشتمل الأكديّة، إلا في حالات معينة، على صيغة الفعل «قَتَلَ»، المعروف في المنطقة الغربية، أو الفعل المبني للمجهول «قُتِلَ». وليس من المؤكد أن تصريف الفعل بصيغة «يَقْتُلُ» جاء كمنظور جديد خاص أم أنه، كما يعتقد العديد من الباحثين، يرجع الى جذور سامية عريقة أو حتى سامية - حامية عريقة. ثم أن انتشار الأكديّة كلغة إدارية في الشرق الأدنى آل الى الاحتكاك باللغات الهندية - الأوروبية وسهّل أيضاً استعارة المئات من مفرداتها من قبل لغات كالعبرية.

وبصدد الصيغة الصرفية «قَتَلَ، يقتلُ» يرى بعض الباحثين أنها إما كانت تجديدًا ساميًا غريبًا، بمعزل عن اللغات السامية الشمالية

الشرقية، أو لعلها تعود الى جذور سامية عريقة أو سامية - حامية عريقة، كما تعتقد نسبة كبيرة من المختصين بالساميات. وتشترك العربية بخواص غرامايطقية مع الساميات الشمالية الغربية، كصيغة الفعل «يقتل»، واللاحقة الصرفية «-ت» (في مقابل -ك في السامية الجنوبية)، والتطور من التاء الى الهاء في حالة الوقف (كما في لفظنا «قناه» بدلاً من «قناة»)، وهي ليست كذلك مثلاً في الأوغاريتية أو الفينيقية. ومع ذلك لا يبدو - كما يرى المؤلف - أن العربية ينبغي إدراجها في المجموعة «الوسطى» التي تنتمي اليها الكنعانية والآرامية، بينما يرى أنها - أي العربية - تشترك مع المجموعة الجنوبية في نقاط كثيرة، لاسيما جموع التكسير، والتطور الخاص بصيغة الفعل «قَتَلَ» الذي يعتبر تجديداً في الصرف يميز هذه المجموعة عن فروع السامية الأخرى. وبات معترفاً به اليوم على نطاق عام أن صيغ الفعل «قَتَلَ، قَتُلَ، قَتِلَ» كانت موجودة في السامية الأم، على رغم الاعتقاد السائد بأن هذه كانت صيغة اسمية بالأكدية مع لواحقها؛ في حين تطورت في السامية الغربية الى صيغة فعل حقيقية.

واستناداً الى جَيّ ناڤيه Naveh، نشأت الكتابة الأبجدية السامية مع الكنعانية القديمة (في الفترة بين القرنين ١٨ - ١٧ ق . م.)، ومنها اشتقت الكتابة العربية القديمة في حدود ١٣٠٠ ق . م. التي تعتبر أصل الكتابة العربية الجنوبية والحبشية. أما الكتابة الفينيقية فهي امتداد للنظام الكنعاني القديم، ومن هذه نشأت الكتابة العبرية القديمة (في حدود ٨٠٠ ق . م.) والكتابة الآرامية (في حدود ٧٠٠ ق . م.) التي تبنتها العبرية بعد السبي البابلي. وفي حدود ٢٠٠ ق . م. ظهر فرع من

الكتابة الآرامية عرف بالنبطية ومن هذه أخذت الكتابة العربية.

وفي حين يرى عدد من الباحثين أن الخمسة والأربعين نقشاً كتابياً المكتشفة في مناجم سراييت الخدم في غرب شبه جزيرة سيناء في أوائل قرننا، والتي تدعى بالنقوش السينائية الأم. وربما ترقى الى منتصف الألف الثاني ق . م. كتابة عربية قديمة، إلا أن المؤلف لايعتبرها عربية، بل يتفق مع أولبرايت الذي يعتبرها لهجة سامية غربية كان عمال المناجم يتكلمون بها. وعلى ساحل البحر المتوسط الشرقي كانت لغة سكان جبيل خاصة من الفينيقية، أما لغة أسدود، لغة الفلسطينيين، فيبدو أنها أقرب صلة بالفينيقية منها الى اللغات الكنعانية الأخرى، كما جاء في الكتاب استناداً الى غينسبرغ. وهناك قواسم مشتركة صرفية عديدة بين العبرية والفينيقية. على سبيل المثال أن الفينيقية تستعمل الأداة «هـ - « أيضاً، واستعادت استعمال «أُنْكَ» بمعنى «أنا».

لكن هناك اختلافات معينة في المفردات العبرية والفينيقية، كاستعمال الفعل «ك و ن» بدلاً من «هـ ي هـ» العبري، بمعنى «يكون»؛ و «ف ع ل» بدلاً من «أ س هـ»؛ «ح ر ص» بدلاً من «ز هـ ب» التي تقال للذهب في العبرية. والمهم أن الفينيقية تشترك مع الأوغاريتية في العديد من السمات.

وقد حصلت في اللغات السامية الغربية تغيرات قبل النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد تشتمل على ادغام حرفي العلة، واختفاء التمييز في الاسم المفرد، ونشوء الحرف مابين الثنيتين (رأس اللسان مُخرَج بين الثنيتين: بين الأسنان)، وتحديد بعض الحروف الصافرة، وامتصاص النون، أي تحوله الى الحرف الصامت التالي له. وقبل العام

١٣٦٥ ق . م . (زمن رسائل تل العمارنة) حدثت التغيرات الآتية:
اختفاء حروف العلة في النهايات، وتغير الألف الى واو، وظهور صيغة
الفعل «قَتَلَ»، والتخلي عن صيغة «يقتل» التي تفيد معنى الماضي.
وبخصوص الحروف الصامتة عانت الأصوات «الحروف» المملوطة
بكلتا الشفتين، في اللغات الشمالية الغربية، لاسيما الكنعانية، التي
كانت لاتزال قائمة في النصف الأول من الألف الثاني ق . م . (أي بين
١٥٠٠ - ١٠٠٠ ق . م .) من كارثتين مضاعفتين بسبب الميل الى
الاحتكاكية (تسمع حركة الهواء عند اللفظ) في نطق حرفي b, p
وبسبب عدم الاستقرار الذي يؤدي أحياناً الى استبدال الفونيمات اللاتينية
صوتية بمقابلاتها الصوتية. كما أن تغير لفظ الواو الى ياء في بداية
الكلمات يعتبر من سمات اللغات السامية الشمالية الغربية. وفي
الصرف تظهر ضمائر مستقلة (لاترتبط بالكلمة) في عدة لهجات من
اللغات السامية الشمالية الغربية في صيغ متشابهة جداً، لكن بدون
«الشين» كما هو الحال في الأكديّة والعربية الجنوبيّة. وبقيت صيغ قديمة
في الأوغاريتية، والفينيقيّة، والعبريّة، مثل «نحن». أما اللواحق
الضمائريّة فتشتمل على «الياء» في حالة التكلم المفرد، وفيما بعد
«يا». وفي هذه الحالة ترد «النون» قبل اللاحقة (كما في يضربني) ...
وفي الاسم، حذفت تاء التانيث في العبريّة والآرامية في معظم الحالات.
واختفى التمييز في المفرد [مقابل التنوين في العربيّة]، لكنه استعيد
في بعض الحالات في الجمع. وفي الألف الثاني ق . م . لم تكن هناك
إشارات واضحة فيما يخص التحديد، لكن أداة التعريف السابقة للكلمة
ظهرت في معظم اللهجات الكنعانية في الألف التالي. وأظهر الفعل

غنى في الصيغ في الألف الثاني ق . م . لكنه فيما بعد اتخذ صيغاً أبسط . ولعل أكثر المسائل تعقيداً «زمنية» الفعل . فلقد تطور تصريف اللاحقة في «قتل» بسرعة ، في إطار الفعل الماضي ، وبذلك اختلفت الساميات الغربية عن السامية الشرقية (الأكدية) .

عبرية ما قبل السبي

إن أقدم نصوص عبرية مدونة يرجع تأريخها الى حدود ٨٠٠ ق . م . ومنذ هذا التاريخ وعلى مر الزمن حافظت العبرية على وضعها بصورة أساسية كما جاء في الكتاب . أما التغيرات التي تعرضت لها في أثناء ذلك كله فكانت في إطار المفردات على وجه الخصوص ، وليس في تركيبها الصرفي ، أو المورفولوجي (التشكلي) ، أو الفونولوجي (الصوتي) ، أو حتى فيما يتعلق بتركيب الجمل syntax ، في الإطار العام . ويقول المؤلف أن هذا ينسحب حتى على العبرية المحكية والمكتوبة اليوم ، بعد أن جرت عليها عملية إحياء مذهلة . إن الوحدة الأساسية للعبرية ، في إطار اللغة والأدب ، لم تعد موضوع نقاش ، كما يؤكد المؤلف (آنخل ساينز باديلوس) .

مع ذلك لا يمكن إغفال الفوارق العميقة التي تتسم بها كل مرحلة من مراحل اللغة ، والعوامل العديدة التي أدت الى حصول هذه الفوارق تأريخياً . وقد مرت اللغة العبرية بأربع مراحل هي : عبرية التوراة ، والعبرية الحاخامية ، وعبرية القرون الوسطى ، والعبرية الحديثة أو الاسرائيلية .

إن عبرية التوراة هي بالأساس لغة أدبية ، بقيت حتى السبي البابلي

(في ٥٨٧ ق . م.) تحتفظ بكيانها جنباً الى جنب مع اللهجات المحلية القائمة. وفي المنفى اختفت هذه اللغة من الحياة اليومية واستعمالاتها للأغراض الأدبية وفي الطقوس الدينية باستثناء مرحلة المعبد الثاني. وترجع أحدث نصوص توراتية الى القرن الثاني قبل الميلاد، إذا صرفنا النظر عن استمرار عبرية التوراة بصورة شكلية الى حد ما في أوراق البحر الميت على سبيل المثال وفي بعض الأنواع الأدبية في القرون الوسطى.

وتطلق تسمية العبرية القديمة على المقاطع الشعرية في التوراة، رغم إعادة صياغتها في مرحلة مابعد السبي، وكذلك المادة المدونة في النقوش الكتابية التي ترقى الى ما بين القرنين العاشر والسادس قبل الميلاد، مع أن آراء الباحثين لا تتفق بالإجماع حول هذا الاصطلاح. أما اللغة المستعملة في المقاطع النثرية من أسفار موسى الخمسة وفي كتابات الأنبياء والكتابات السابقة للسبي فيطلق عليها اسم عبرية التوراة الكلاسيكية، أو مجرد عبرية التوراة. أما عبرية التوراة المتأخرة فتطلق على لغة التوراة المكتوبة بعد السبي.

ولقد تواضع الجميع على أن عبرية التوراة ليست لغةً بكل معنى الكلمة بل عبارة عن «جزء من لغة»، أو بالأحرى جزء فقط من اللغة المستعملة من قبل الاسرائيليين قبل السبي. أن ما يقارب من ثمانية آلاف مفردة تشتمل عليها أسفار التوراة لا يمكن أن يسد حاجات لغة حية.

أصل العبرية

يؤكد المؤلف أن الطبيعة التاريخية لأصول اللغة العبرية التي تطرح

أحياناً كسؤال من قبيل «ماذا كانت لغة الآباء (الاسباط) العبريين؟» أو «ماذا كانت لغة محتلي كنعان؟» خارج نطاق هذه الدراسة، التي تقتصر فقط على المسائل اللغوية بالمعنى الضيق للكلمة. ومهما كان الأمر، علينا أن نقرّ بأن البدايات الدقيقة للغة العبرية لاتزال يكتنفها الغموض. لكننا لاحظنا أن العبرية، منذ ظهورها في صيغة مدونة، تقدم دليلاً على أنها تنتمي الى مجموعة اللغات الكنعانية، مع سمات خاصة بها. وفي رأي المؤلف أن هذا ربما يعني أن القبائل الاسرائيلية عندما أقامت في أرض كنعان تبنت لغة تلك البلاد، على الأقل في نصوصها المدونة. ذلك أن التقاليد القديمة والمنطوية على مفارقة تاريخية ولاشك، حول هذه القبائل شبه البدوية تشير الى أجداد آراميين (انظر سفر تثنية الاشتراع في التوراة ٢٦: ٥)، بيد أن استدلالات ذات طبيعة لغوية لايمكن، في الجوهر، استنتاجها من هذه «الحقيقة». ففي المقطع الذي يرد فيه أن يعقوب وخلفه قطعوا صلتهم بلابان (سفر التكوين ٣١: ٤٧)، لاحظ العديد من الباحثين إشارة الى الزمن الذي ترك فيه الاسرائيليون اللغة الآرامية وتبنوا الكنعانية، وهي لغة البلاد التي كانوا يعيشون فيها. وعلى أية حال، هناك استمرارية واضحة بين العبرية المتعارف عليها تاريخياً ولغة رسائل تل العمارنة، التي يرجع تأريخها الى ما قبل إقامة الاسرائيليين في كنعان.

وقد لوحظ منذ العقود الأولى من قرننا الحالي أن العبرية ليست لغة متجانسة بل لغة «خليطة»، يمكن تمييز طبقة كنعانية مبكرة فيها، قريبة جداً من الأكديّة، وطبقة أخرى أحدث منها، قريبة من الآرامية والسامية الجنوبية. لكن على رغم ذلك يمكن العثور على آثار آرامية واضحة في

أصول العبرية. وبالتالي لم تعد مقولة «اللفظة الخليفة» مقبولة على نطاق واسع اليوم، ويفضل المختصون مقترباً آخر لهذه المسألة. ولقد أكدت الدراسات الحديثة على أن الآرامية ربما كان لها تأثير قوي جداً على العبرية، ليس عندما ظهرت العبرية أول الأمر بل بعد ذلك بعدة قرون، في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد الى بداية عهد الميلاد.

وكما هو الحال في الآداب السامية الشمالية الغربية، تختلف لغة الشعر في التوراة عن لغة النثر في جوانب كثيرة، تعكس بصورة عامة مرحلة أسبق من العبرية وأقرب صلة في اللغة، والأسلوب، والمحتوى، باللهجات المجاورة، لاسيما الشمالية.

ومن بين المقاطع التوراتية التي تشتمل على عبرية قديمة: أغنية موسى (خروج ١٥)، وأغنية دبورة (قضاة ٥)، ومباركة يعقوب (تكوين ٤٩) ومباركة موسى (سفر تثنية الاشتراع ٣٣) ونبوءة بلعام (نحميا ٢٣ - ٢٤)، وقصيدة موسى (سفر تثنية الاشتراع ٣٢)، وكذلك المزمور ٦٨ ومزامير مبكرة أخرى.

وعلى رغم وجود عدد قليل من النقوش الكتابية باللغة العبرية، إلا أنها تنطوي على مصدر مهم جداً من المعلومات عن العبرية القديمة. ومن الصعب اعتبار الأبجدية الغامضة المكتشفة في عزية صرطة التي يرجع تأريخها الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد كتابة عبرية. أما ما يسمى بتقويم جازر Gezer فيعود الى القرن العاشر ق. م. وأما الكتابة على الإناء المكتشف في شمال سيناء، فترجع الى القرن التاسع ق. م.

عبرية ما بعد السبي

يعتبر المنفى البابلي بداية مرحلة جديدة في تطور العبرية. فإذا كانت اللغة المحكية ابتعدت عن اللغة المكتوبة قبل السبي، فإن الاضطراب الاجتماعي والسياسي الذي تسبب عن سقوط أورشليم ودمار المعبد الأول، أحدث تغييراً كبيراً في الوضع اللغوي أضر بعبرية التوراة. وكان العائدون من المنفى ممن هم من عليّة القوم ومثقفينهم، الذين تأثروا على مدى عدة عقود من الزمن في المنفى باللغة والثقافة الآراميتين، يفضلون الآرامية، التي كانت منتشرة في أرجاء الإمبراطورية الآشورية بصفتها لغة الإدارة، والتجارة، والدبلوماسية. وفي أثناء السيطرة الفارسية منذ مرسوم كورش في ٥٣٨ ق . م. القاضي بإعادة المسبيين اليهود الى فلسطين وحتى فتوحات الاسكندر في ٣٣٢ ق . م. مارست الجالية اليهودية درجة من التعدد اللغوي بحكم الظروف التاريخية والسياسية. وأصبحت الآرامية لغة التفاهم مع العالم الخارجي، واستعملت في بعض أنماط الأدب، مع أن صيغة متأخرة من عبرية التوراة كانت في الوقت نفسه تستعمل غالباً في المؤلفات الأدبية، اتسمت بأسلوب مماثل للنصوص التوراتية المبكرة. إضافة الى ذلك، ثمة ما يدعو للاعتقاد بأن الجماهير اليهودية، في الجنوب على الأقل، واصلت التكلم بلهجة عامية من العبرية، وهي اللهجة التي ستحمل بعد بضعة قرون اسم العبرية الحاخامية. وتحذر الإشارة الى أن عبرية التوراة المتأخرة هي لغة معظم أسفار التوراة المكتوبة بعد السبي. ومن المرجح أيضاً أن الحروف الآرامية المربعة أخذت في هذه المرحلة تحل محل الكتابة العبرية القديمة، مع أن هذه العملية لم تكتمل إلا في المرحلة الهيلينية. وعلى

مدى ٥٠٠ عام كانت عبرية التوراة المتأخرة تستعمل لتدوين أواخر الأسفار المعترف بأنها تؤلف الكتاب المقدس (canon) وكتابات أخرى بما فيها وثائق قمران (أوراق البحر الميت). أما الفريسيون فقد تجنبوا عن عمد عبرية التوراة المتأخرة، وطرحوا تعاليمهم باللغة العامية المحكية. وفيما بعد تطورت هذه اللهجة الى لغة أدبية، هي العبرية الحاخامية. وإنه ليتمكن القول أن جميع أسفار التوراة في صيغتها الحالية تحتوي على آثار من الآرامية، في المفردات، والمورفولوجيا، وتركيب الجمل syntax. وإلى جانب النصوص الشعرية القديمة، فإن الأعمال التي يظهر فيها التأثير الآرامي كبيراً هي سفر أستير، وكوهيليث، ونشيد الإنشاد، وعزرا، وأيوب، ودانيال، ونحميا، والأيام الأول والثاني. وتجدر الإشارة الى أن مرحلة ما بعد السبي اتسمت باستعارة مفردات من الفارسية واليونانية، دخلت العبرية بصورة غير مباشرة عن طريق الآرامية، وقد لاحظ العديد من الباحثين أن اللغة الأصلية لعدد من الأسفار المدونة في المرحلتين الفارسية والهيلينية كانت الآرامية، ثم ترجمت فيما بعد الى العبرية. ولقد تم التثبت من صحة هذه الحقيقة، وإن لم تكن مقنعة بصورة تامة فيما يتعلق بأسفار أيوب، وكوهيليث، ودانيال، وأستير، والأيام الأول والثاني، والأمثال، وحتى حزقيال.

عبرية القرون الوسطى

ليس من اليسير وضع حدود دقيقة لهذه المرحلة من اللغة العبرية التي تعرف بعبرية القرون الوسطى. فمن المعلوم أن العبرية الحاخامية كُتبت عن الاستعمال كلهجة دارجة حية في أواخر القرن الثاني الميلادي،

واستمرت لبضعة قرون الى جانب الآرامية، كلغة أدبية. ومع أن تأريخ الانتقال الى عبرية القرون الوسطى لا يمكن تحديده بدقة، بين القرنين السادس والسابع الميلاديين، أي مع بداية النفوذ العربي، إلا أن أول حركة تجاه إحياء العبرية يمكن اعتبارها بداية لعبرية القرون الوسطى، مع أن اللغة بقيت مرتبطة الى حد كبير بماضيها. وبدأت مرحلة جديدة من إحياء العبرية كلغة أدبية في القرن العاشر. كانت البداية في الشرق (الإسلامي) ثم سرعان ما وصلت المغرب، وبالذات الأندلس. وقد اسهمت في هذه النهضة اللغوية الانجازات الجديدة في النحو العربي التي حفزت اليهود على الدراسات الفقهية للغة العبرية، الى جانب تركيز طائفة القرائين اليهود (في بغداد) على عبرية التوراة وجهود رجال الدين في أن لا يتجاوزهم الزمن. كما لم تكن العبرية اللغة الوحيدة التي استعملت في هذه الحقول، فقد استخدم الكتاب اليهود العربية في الشعر أحياناً، وأكثر من ذلك في النشر.

مع ذلك لم تعتبر عبرية القرون الوسطى «لغة» بالمقارنة مع عبرية التوراة أو العبرية الحاخامية. فلم تمتلك حيوية كافية في الحياة اليومية أو حتى في الأدب. والنصوص المدونة بعبرية القرون الوسطى تنطوي على اختلافات عديدة، لكن ليس الى حد اعتبارها لهجات متعددة. لعل ذلك يعود الى أن هذه اللغة لم تكن لغة بكل معنى الكلمة، بل أحياء لاستعمالات وتقاليد لغوية، تطورت وفق أذواق الكتاب وخلفياتهم الاجتماعية والثقافية.

وقد لوحظ عن صواب أن اليهود في القرون الوسطى كانت لديهم مواقف مختلفة تجاه العبرية. فالذين عاشوا في ظل الإسلام كانوا

يختلفون عن نظرائهم في الديار المسيحية. فمع أن الأخيرين كانوا يستعملون أحياناً اللغات الرومانسية (المتحدرة من اللاتينية)، إلا أنهم كانوا يفضلون العبرية في مؤلفاتهم الأدبية، حتى لو كانت لغتهم ضعيفة. أما اليهود الذين عاشوا في البلاد الإسلامية، فكانوا يميلون منذ القرن العاشر الى استعمال العربية في النثر والعبرية في الشعر في محاولة منهم لاتخاذ موقف مستقل عن الشعر العربي. ولاشك أن هذا ينطوي على نزعة أيديولوجية، دافعها الرغبة في تطوير عبرية التوراة، باعتبارها ليست أقل جمالية من لغة القرآن كما يزعمون. وكان هناك عامل ديني أيضاً، ذلك أن اليهودي الأرثوذكسي المثقف يجد من الصعوبة أن يعبر عن مشاعره وأفكاره بلغة تعود الى دين آخر. يضاف الى ذلك عامل آخر، هو مستوى التنافس في العربية نفسها التي لم يكن المؤلفون والقراء (اليهود) يجدون صعوبة في كتابة وفهم نصوصها النثرية والشعرية. ومع ذلك نجد ابن ميمون يأسف لأنه كتب معظم مؤلفاته بالعربية، ربما إدراكاً منه بأن العديد من القراء الأوروبيين لم يتمكنوا من قراءة مؤلفاته، كما يقول المؤلف. ومع ذلك، فعند التعامل مع المواضيع الفلسفية والعلمية، لجأ معظم اليهود الذين كانوا يعيشون في البلدان الإسلامية الى العربية (التي كانت تدون في أغلب الأحيان بالكتابة العبرية)، ذلك أن العربية كانت طوال تلك المرحلة لغة البحث لدى المسلمين واليهود. أما في المناطق المسيحية فقد كان بعض المترجمين، من أمثال عائلة ابن تيّون، الذين كانوا يستعملون اللغتين، يعربون عن شكاواهم من أن العبرية كانت تشتمل على عدد محدود من المفردات بالقياس الى العربية.

ومنذ منتصف القرن العاشر شهد يهود اسبانيا المسلمة مرحلة تنويرية لامثيل لها اسهمت في خلق نهضة عبرية، على الأقل في إطارها الأدبي. فقد تأثرت اللغة والآداب كثيراً بالتطورات التاريخية والاجتماعية الكبيرة التي شملت يهود الاندلس. وكان شاعر البلاط الأندلسي الذي يكسب من شعره، شخصاً جديداً في المجتمع اليهودي. ومثل هذا الشخص كان واسع المعرفة. وغالباً ما كان على إطلاع بتقنية ومواضيع الشعر العربي، ومتفهماً لذوق العصر، الى جانب مؤهلاته في تقاليد الشعر اليهودي. كان نتاجه والحالة هذه يختلف كثيراً عن «الحزّان» اليهودي في فلسطين في العهد البيزنطي. وظهرت في هذه المرحلة تيارات مختلفة كان لها تأثير مباشر على الشعر الطقوسي العبري في الأندلس. وقد تخلى الشعراء عن التراكيب التقليدية، مستعاضين عنها بمواضيع وأساليب، وقيم جمالية جديدة، وفي بعض الحالات استعمال العروض العربي، والنظم بطريقة الموشح، والزجل. ومع ذلك كانت هناك مقاومة ضد المؤثرات العربية خوفاً من أبعادها الدينية. أما الشعر العلماني، الذي كان متحرراً من التأثير بالموروثات اليهودية، فقد نما في أجواء البلاطات الإسلامية وتبنى العروض العربي التقليدي، ومواضيعه، وصوره، وتقاليده.

وغالباً ما كان شعراء اسبانيا اليهود يطعمون أشعارهم بعبارات كاملة من التوراة، إما كلمة بكلمة أو بشيء من التصرف، مغيرين بذلك المعاني الأصلية لكي تتماشى مع محتوى المواضيع، وفي بعض الحالات كانوا يحولون القصيدة الى مجموعة اقتباسات وإلماعات. ومع أن هذا النمط من الكتابة الذي يستند الى طريقة «الاقتباس» كان من خصائص

الشعر العبري الإسباني كله، إلا أنه كان أكثر شيوعاً في المرحلة ما بعد الكلاسيكية من منتصف القرن الثاني عشر، لاسيما في «المقامات».

لغة النشر العبري في اسبانيا الأندلسية

إن معظم النشر العبري في القرون الوسطى، لاسيما من اسبانيا والبروفانس، تأثر كثيراً باللغة والأدب العربيين. لكن أهمية هذه الظاهرة لاتنفي وجود فوارق لغوية بين مختلف الكتابات. فبالوسع تمييز المؤلفات العبرية الأصلية عن الترجمات، لاسيما المنقولة عن الكتب العربية واللاتينية. في إطار المجموعة الأولى (الكتابات العبرية)، يمكن التمييز بين المؤلفات المكتوبة في مناطق النفوذ الإسلامي، التي تعكس درجات مختلفة من التأثير العربي، أما الأخرى، المؤلفة في المناطق المسيحية، فكانت أقل عرضة لمثل هذا التأثير. وفي الحالة الثانية (الترجمات)، مع أن تراجم عائلة بن تبون من غرناطة كانت خير نموذج لتلك المرحلة، إلا أنها لم تكن الفعالية الوحيدة في هذا الحقل، وتختلف كثيراً عن التراجم التي كانت تصدر عن اللاتينية في شمال شرق اسبانيا ومنطقة البروفانس.

وفي المقامات ومجموعات القصص والحرفات من أصل عربي، كان التأثير العربي واضحاً، مع أن كتاباً معروفين مثل الحريزي حاولوا أيضاً استخدام لغة قريبة من عبرية التوراة، مستشهدين بالكثير من الاقتباسات التوراتية. كما أن الكتابات التاريخية وكتب الرحلات استعملت صيغة قريبة من عبرية التوراة مع بعض الحروف والتعابير من العبرية الحاخامية والعربية، مثل «قاروب من» أي «قريب من». وفي

اللغة العلمية نرى بعض المصطلحات الشبيهة بالعربية في كتابات بارحياً مثل كلمة «جدر» أي «الجذر التريعي»، و «حدوش» أي «خلق» من «حديث»، و «هيولي»، المأخوذة أصلاً عن اليونانية، و «يصيرا» أي «الصيرورة» بما يفيد معنى «الجوهر، أو الطبيعة»، و «كوكاب هاز - زناب» أي «المذنب»، و «مركز»، و «قطب»، الخ. وفي قواعد بارحياً يبدو التأثير العربي واضحاً في صور مختلفة.

وفي العديد من الحالات كان النشر العبري أكثر نموذجية في تلك الفترة من الترجمات المنقولة عن العربية؛ وقد تم تقليد هذا النشر من قبل كتاب متأخرين، بمن فيهم سكان المناطق غير الإسلامية. وفي القرن الحادي عشر، ولاسيما الثاني عشر، سُمح لليهود من بقية مناطق أوروبا بالإطلاع على المؤلفات اليهودية باللغة العربية، الى جانب الأبحاث البارزة في العلوم والفلسفة في العالم الإسلامي. وفي غضون ستمئة عام تمت ترجمة زهاء ألف كتاب الى العبرية، والأكثر أهمية كان يترجم عدة مرات. وجباً في الأمانة العلمية، كان المترجمون غالباً ما يهملون الأسلوب ويرتكبون أخطاء نحوية، ويخلطون بين المذكر والمؤنث، ويغيرون الحروف. وعندما تستعصي عليهم المفردة العبرية المباشرة كانوا غالباً ما يلجؤون الى المفردات والتراكيب العربية. وكان تأثرهم بالكلاسيكية العربية أقل من العربية الوسيطة التي تطورت في اسبانيا.

ويقول يهودا بن تبون ان «الغويم» استعملوا العربية في البلدان الخاضعة للنفوذ الإسلامي «لأن جميع الناس كانوا يفهمون هذه اللغة. هذا الى أن هذه اللغة غنية ومطوعة تلبي متطلبات الكتاب والناطقين بها. إن عباراتها دقيقة، وشفافة، وتعبر عن جوهر كل موضوع أكثر

نفاذاً بكثير من العبرية. فكل ماملكه من اللغة العبرية هو مانجده في التوراة، وهو غير ملائم لحاجات المتكلم. وهم [الكتاب الشرقيون] يرومون أيضاً أن تستفيد من مؤلفاتهم الجماهير غير المثقفة التي لا معرفة لها بلغة القرآن». وتشتمل مفردات بن تَبُون التي استعملها في ترجماته على العديد من المصطلحات العبرية، مثل «تاريك» أي «تأريخ»، و«هندسة»، و«مركز»، و«أفق»، و«أقليم»، مع أن هذه الأخيرة تعود الى أصل يوناني، كما يقول المؤلف (ولعلها ترجع الى أصل سومري من «كلاماً = بلاد»). لكن بعض الكتاب، مثل صاموئيل بن تَبُون ويهودا الحريزي حاولوا جهدهم استعمال المفردات العبرية القائمة. ومع ذلك نرى أن مناحيم بن سروق، الذي حاول تجنب استعمال العبرية، من منطلقات أيديولوجية، استعملها في خلق مصطلحات تقنية عديدة.

ولعل أكثر وسيلة لاجتراح كلمات جديدة هي الترجمة - المستعارة، حيث يتم التعبير عن محتوى أو مضمون المصطلح التقني أو العلمي العربي بكلمة عبرية متيسرة أو من خلال نحت جذر عبري معروف بما يأتي مرادفاً للمصطلح العربي. وبهذه الوساطة اكتسبت العبرية مئات الكلمات الجديدة في كل موضوع من المواضيع المترجمة. على سبيل المثال، استعملت «مليم نردافوت» مقابل «المترادفات» العبرية؛ و«بنيان»؛ و«مشقال» مقابل «وزن»؛ و«شورش» مقابل «أصل»؛ و«ماقور» مقابل «مصدر»؛ و«بيكواه» مقابل «قوة»، أو مايفيد معنى «الطاقة»؛ و«بفعل»؛ و«دين»؛ الخ.

واستعملت العبرية بعض الكلمات العربية بمعناها الثاني مثل

«راه» من «رأى» العربية بمعنى «ظن»، واستعمال كلمة «شعر» العبرية المقابلة لكلمة «ثغر» العربية للدلالة على «الباب» بمعانيه المختلفة (فصل في كتاب مثلاً، أو شرح).

فترة الانتقال

كان الانتقال من عبرية القرون الوسطى الى العبرية الحديثة أو العبرية الإسرائيلية بطيئاً نسبياً، تم على مدى عدة عقود من الزمن. واستناداً الى بعض الخبراء، كان طابع جديد من اللغة قد بدأ بالفعل منذ القرن السادس عشر. من بين مظاهره المبكرة، أول مسرحية عبرية بقلم سومو (١٥٢٧ - ١٥٩٢)، وأول معجم باللغة العبرية اليدوية تأليف إيليا ليثيتا (١٤٦٨ - ١٥٤٩). واستمرت العبرية تستعمل في الكتابات، وبذلت محاولات لتكييفها للحاجات العصرية. ثم شهد القرن الثامن عشر أول محاولات لصدور الصحف.

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر تركت الهاسكالا تأثيراً قوياً على اللغة العبرية. وتحدث «الماسكليم» (التنويريون الجدد) عن العبرية المحاخامية بازدراء، انطلاقاً من كونها مليئة بالآرامية وحافلة بالأغاليط النحوية، وأعربوا عن أسفهم بشأن اللغة العبرية في الشتات. وأشاروا بغير ارتياح الى تأثير العربية في فلسفة القرون الوسطى، واستعمال اليدوية «المحرفة»، وعدم كفاءة العبرية نفسها بالقياس الى اللغات الأخرى. وحاول أبرز نشطاء هذه الحركة الثقافية استعادة أو تجديد العبرية كلغة حية. ولم يعمدوا الى تنقية العبرية وتطوير استعمالاتها الصحيحة فحسب، بل ضاعفوا أيضاً قدراتها على التعبير،

وأبدوا بعض الصدود في استعارة المصطلحات الحديثة من الألمانية وبقية اللغات الأوروبية الغربية. ومع أن بعض المثقفين، مثل ساطانوف، اعتبر العبرية الحاخامية كممثل شرعي للغة الحديثة، إلا أن الأكثرية استقرت على صيغة نقية من عبرية التوراة للشعر، والأسلوب الأندلسي في النثر، على غرار نثر ابن تَبَّون.

إحياء العبرية

مع نشر مقالة في العام ١٨٧٩ بقلم لعازر بن يهودا تحت عنوان «سؤال ملتهب» بدأ عهد جديد. كان استعمال اللغة العبرية كلغة محكية عند بن يهودا أحد أهم معالم الخطة الجديدة للاستيطان في فلسطين. ومنذ العام ١٨٨١ عاش بن يهودا في القدس، وشرع مع عائلته بتنفيذ مشروعه بشأن تحويل العبرية الى لغة تصلح للاستعمال اليومي. ومع الدعم القوي الذي لقيه من مناصرين للقضية القومية اليهودية من أمثال Y.M. Pines و D. Yelli، ناضل من أجل منح اللغة حياة جديدة. وكان من بين مساعيه الكبيرة إيجاد مفردات ملائمة استقهاها بن يهودا من الأدب القديم وآداب القرون الوسطى، وخلق كلمات جديدة أدخلها في كتابه Thesaurus (الذي اتمه بعد موته م. هـ. سيفال، بالاشتراك مع ن. هـ. طورسيناي)

ومع أن اليهود الذين ثبتوا أقدامهم في فلسطين كانوا يستعملون العبرية سابقاً كلغة تفاهم مشتركة، إلا أنها لم تكن تستعمل على نطاق واسع. وواصل مختلف الجاليات المهاجرة الكلام بلغات البلدان التي جاءوا منها. ومن بين العوامل التي قلبت حلم بن يهودا الى حقيقة كان

الافتقار الى لغة «قومية» في المنطقة (بين اليهود). وقد لعب العديد من الشخصيات اليهودية دوراً في هذه المهمة، التي بدت في بادئ الأمر شبه متعذرة. ومن بينهم كان عدد من الأساتذة البارزين الذين رفعوا شعار تعليم العبرية عن طريق العبرية.

لكن المهمة الأكثر إلحاحاً كانت خلق مفردات جديدة، وهي المهمة التي دعا لها بن يهودا منذ أواخر القرن الماضي. وفي المقدمة للكتاب Thesaurus لبن يهودا، تم شرح المسائل المستخدمة لتكييف اللغة للحاجات اليومية. وتشتمل هذه على العودة الى المفردات العلمية والتقنية العبرية في ترجمات تبّون وإدخال المفردات العبرية المستعارة على أساس من مقاربتها الدلالية للعبرية، بصيغتها المكيّفة للاستعمالات العبرية، كما في كلمة «محسن» المستعارة من «مخزن» العبرية. فقد استعاد بن يهودا من المشناه، والتلمود، والمدراشيم (كتب تفاسير التوراة) كل ماهو نافع للعبرية، وكذلك تعابير آرامية، وحتى مفردات مستعارة من اليونانية واللاتينية.

مع ذلك سقطت عدة آلاف من الكلمات المصطنعة بهذه الطريقة، واختفت في آخر المطاف. ثم أن موجات المهاجرين التي وصلت في ١٩٠٥ لم تهضم بسهولة هذه التجديدات، مفضلة عليها الكلمات الأجنبية، لاسيما تلك التي تستعمل على نطاق عالمي، وقاومت استعمال اللغات التي تم أحيائها حديثاً.

وحلت مرحلة جديدة مع الانتداب البريطاني في فلسطين (١٩١٨ - ١٩٤٨)، الذي اعتبرت فيه اللغة العبرية إحدى اللغات الرسمية في البلاد منذ ١٩٢٢. وسرعان ما ازداد عدد الناطقين بالعبرية، وفي الوقت

نفسه اسهمت مؤسسات ثقافية (بما في ذلك الجامعة العبرية في القدس) في إغناء المفردات التقنية لهذه اللغة الجديدة.

وبعد خلق دولة إسرائيل في ١٩٤٨، كرست العبرية بصورة كاملة لغة رئيسية للبلاد، بعد أن اكتسبت دفعاً جديداً باتجاه إحيائها. وسرعان ما تعلم المهاجرون الجدد من الشرق والغرب اللغة العبرية الجديدة في مراكز خاصة، فيما طور جيل جديد من المولودين في فلسطين ومن ذوي الميول القومية المتطرفة استعمالات لغوية جديدة وشعروا بالاعتداد والفخر بالنأي بأنفسهم عن أولئك الذين اعتبروا العبرية لغة سامية.

العبرية الإسرائيلية

إن عمر هذه اللغة الجديدة القصير نسبياً، التي صار يطلق عليها في أيامنا هذه «اللغة الإسرائيلية»، لا يزال موضوع نقاش. فلا تزال هذه اللغة موضوع جدل حول علاقتها بالمراحل السابقة من العبرية، وكذلك حول هويتها كلغة مستقلة تتسم بخواص متميزة، والفوارق بين الطابع الأكاديمي والاستعمال الشعبي.

وبعد مرحلة من النقاش، قبلت عبرية التوراة كأساس لهذه اللغة الجديدة، بعد حذف عدد من التراكيب القديمة والتي بطل استعمالها. كما أن بعض العناصر اللغوية، كصيغ الأفعال (في إطارها الزمني) استقيت من العبرية الحاخامية، بعد أن كيفت لتنسجم مع بناء عبرية التوراة في بعض الحالات. وعلى العموم، تم تبني قواعد لغة القرون الوسطى. أما المستوى العام للكتابة والإملاء فقد استند إلى النظام الصوتي التايبيري Tiberian (منذ عهد تيبيريوس الإمبراطور الروماني؟) وعلى صعيد

المفردات أشرعت الأبواب على مصاريحها لجميع مراحل العبرية السابقة، وكذلك قُبِلت مفردات من الآرامية، والعربية، واللغات اليهودية غير السامية. وفي الاستعمال اليومي، تمّ تجنب الصيغ المتجانسة في اللفظ والمختلفة كتابةً، وكذلك المفردات ذات الإملاء الواحد والمعاني المختلفة، لأجل التقليل من الغموض.

لكن التطور الداخلي للغة خضع أيضاً لنظام لغوي غير عبري. وبالمقارنة مع المرحلة الكلاسيكية، ليس ثمة في العبرية المعاصرة تماس كبير مع عبرية الكتاب المقدس والطقوس الدينية. وتخلّى المتكلمون العاديون عن التزاماتهم النحوية، على رغم التعليم الرسمي. وما يعتبر في قواعد النحو التقليدية «خطأ» أو «هفوات»، بات ينظر إليه كتجديد لغوي في الاستعمال اللغوي اليومي.

في ضوء ما سلف ذكره أصبح من الطبيعي التساؤل فيما إذا كانت العبرية الإسرائيلية تعتبر لغة سامية. فبعض اللغويين أكد على نسبة كبيرة من الهندية - الأوروبية في اللغة، على رغم الحقيقة التي تفيد أن معظم عناصرها تمتّ إلى جذور عبرية توراتية وعبرية حاخامية، فلدى هؤلاء الباحثين، مع أن العبرية الإسرائيلية لاتزال في إطارها الظاهر (الخارجي) تبدو لغة سامية، إلا أن علاقاتها الدلالية هندية - أوروبية، وطابعها الذهني غربي. فاستناداً إلى P. Wexler (١٩٩٠) أن العبرية الإسرائيلية لغة سلافيّة: «كلتا اليدوية والعبرية الحديثة لهجتان من اليهودية السورية، وهي لغة سلافية غربية». وعنده إن إحياء اللغة، بما في ذلك ابتعاث لغة سامية شمالية غربية، إنما هو محال، وليست العبرية الحديثة سوى صيغة جديدة من النطق باللغة السلافية - اليدوية

مع تحريف لغوي طفيف. وإذا أخذنا بعين الاعتبار مراحل إحياء العبرية، نجد أنها تأثرت أولاً على نحو كبير باللغات السلافية، ثم فيما بعد بالألمانية، وأخيراً، وعلى نحو حاسم، بالإنكليزية، مع عدم إغفال الفرنسية والإسبانية، اللغتين المحليتين للعديد من اليهود الذين يعيشون الآن في إسرائيل. إن جوانب تأثر العبرية الإسرائيلية بهذه المؤثرات هي تركيب الجمل والمفردات، وهذه بالذات هي التي تعرضت الى التغيير بالمقارنة مع اللغة الكلاسيكية. ومع ذلك، لا بد من القول أن وسائل التعبير التي ورثتها العبرية الإسرائيلية، وكذلك النواة الأساسية لمورفولوجيتها وتراكيب جملها، سامية بالأصل على نحو واضح.

وفي النظام الصوتي للسابرا (الذين ولدوا في إسرائيل)، يوجد تسعة عشر حرفاً صائتاً وخمسة حروف علة، وهذه مشتركة جميعها بين التقليديين الاشكنازي والسفاردي (أي يهود الخارج والداخل). وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن ستة حروف سفاردية رفضت (لعل المقصود بذلك العين، والحاء، والطاء، والصاد، والقاف، و ؟) فإن بوسعنا القول أن التقليد الاشكنازي هو السائد الآن. من هذا كله يتضح أن اللغة العبرية الإسرائيلية ليست حصيلة تطور طبيعي بل نتاج عملية إرادوية لامثيل لها في تطور أية لغة أخرى.

قراءة في كتاب الاشتقاق لابن دريد

المؤلف هو محمد بن الحسن بن دريد، من الأزد الذين كان مسكنهم في مأرب - اليمن. ولد بالبصرة سنة ٢٢٣هـ في خلافة المعتصم. وكان أبوه من الرؤساء وذوي اليسار، كما ذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء. وفي البصرة تعلم اللغة وأشعار العرب، وقرأ على علمائها. وتنقل بين البصرة وعمان وفارس وبغداد. ودرس على يديه أبو علي اسماعيل القالي صاحب كتاب الأمالي، وأبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني، وابن خالويه، والمرزباني صاحب معجم الشعراء، والآمدي صاحب الموازنة والمؤلف والمختلف، والمسعودي صاحب مروج الذهب، وغيرهم كثير. ولأبن دريد عدة مؤلفات في اللغة، والأدب، وفنون المعرفة الأخرى. ومن بين أهم كتبه، كتاب الاشتقاق الذي كرسه لاشتقاق اسم الرسول العربي وآبائه وأقاربه وأسماء العشرة من الصحابة، وقبائل العرب. ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل أن الكتاب غني بالأخبار والنوادر، وأن تُؤخي فيها الإيجاز.

وفي هذه الكلمة سنحاول تقديم عرض لهذا الكتاب القيم، لنطلع على منهج علمائنا العرب الأقدمين في اشتقاق المفردات، مع شيء من الاستطراد على كلام ابن دريد كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

جاء في كتاب الاشتقاق أن (محمد) مشتق من مادة (حمد)، وهو على صيغة مفعّل، وهو صفة. ويروي ابن دريد كيف أن جد الرسول، عبد المطلب، ذبح جزوراً يوم ولادة محمد، ولماذا أسماه محمداً، قال: «أردت أن يحمد في السماوات والأرض». ويذكر صيغة محمود أيضاً، لكنه يميز بينهما، لأن محموداً من يحمد مرة واحدة، أما محمد فمن يحمد مرة بعد مرة. ثم يذكر من سمي محمداً في الجاهلية، ويذكر اشتقاقات الاسم الأخرى، مثل أحمد، وحامد، وحמיד، الخ.

ولدى اشتقاق اسم (عبد الله) والد الرسول، يرى ابن دريد أن «اشتقاق العبد من الطريق المعبد، وهو المذلّل الموطوء» ويقول أيضاً «وربما كان المعبد في معنى المكرّم. قال حاتم: (أرى المال عند البخلين معبداً) أي معظماً». ولعل حاتماً يقصد معبوداً. ثم أننا إذا تأملنا في جذر كلمة (عبد) المشتركة في اللغات السامية، شقيقات اللغة العربية، نرى أنه يعني: اشتغل، فعل، نفّذ، قام به، خدم، وقام بمراسم العبادة. ومنه جاءت كلمة (العبد). وبالتالي فإن معاني العمل، والخدمة، والعبودية، والعبادة تتداخل في هذه الكلمة، وتذهب الكلمة أيضاً في بعض اللغات السامية إلى معنى «العائلة». ويعزو روبرتسون سميث في كتابه (ديانة الساميين) هذا التداخل بين الخدمة والعبودية والعبادة في مادة (عبد) إلى طبيعة اللغة السامية في تعابيرها المهذبة، مستشهداً بقول حاتم الطائي أيضاً:

وإني لعبد الضيف مادام ثاوياً
وما فيّ إلا تلك من شيمة العبد

ولا يُقدّم ابن دريد على اشتقاق اسم ذي الجالة: «فأما اشتقاق اسم

(الله) عز وجل فقد أقدم قوم على تفسيره، ولا أحب أن أقول فيه شيئاً». لكنه يقول في موضع آخر من الكتاب، في اشتقاق اسم (شُرْحَيْل): «اسم، أحسبه، نجراني أو سرياني. وقال بعض أهل اللغة: كل اسم جاء في العربية فيه ايل فهو منسوب الى الله تبارك وتعالى». وهو صحيح، لأن كلمة (أيل) تطلق على الإله في كافة اللغات السامية. وعند اشتقاق اسم (عمرو) يذكر عدداً من الاحتمالات التي يذهب اليها معنى الكلمة، لا سيما العُمَر، لأن العَمْر كالعُمَر. كما أن العَمْر: اللحم المطيف بأصول الأسنان. لكنه لا يذكر الجذر الذي يعني: عبد، خدم، صام وصلى. وبالتالي فإن العَمْر: الدين، وفي القسم يقال «لعمر الله» أو «لعمرى». وورد اسم عمرو بصيغة الإضافة، مثل عمرو العُلى، وهو اسم هاشم جد الرسول الأعلى، قد يرجع المعنى الأخير للكلمة. وقد يأتي معززا لهذا الاحتمال ورود اسم عمرو في بعض اللغات السامية بمعنى «عبد».

أما عُمَر، وزن (زُفر) فيرى أن اشتقاقه من شيئين: إما أن يكون جمع عمرة الحج، وإما أن يكون فُعَل. ويذكر أيضاً أن العَمارة تعني: الأكليل ونحوه من الآس وغيره يجعل على الرأس. والمعتمر: المعتم (أي المعمم). ويذكر تصرفات أخرى لهذا الجذر مع استطرادات شيقة، يحفل بأمثالها الكتاب.

ويشتق اسم (مُرّة) من اسم شجرة، فالمرار: شجر، واحدته مرارة. ومنه أكل المرار لقب ملك من ملوك كندة. ويأتي على ذكر المعاني المختلفة لجذر الكلمة، ثم يقول: «فأما المرّ الذي يُحفر به (يقصد المسحاة) فأعجمي معرّب» وكلامه صحيح الى حد ما. وإذا شئنا الدقة

وجدنا أن المرَ كلمة أكديّة (بابليّة)، ولهذا نراها شائعة الاستعمال في العراق حتى يومنا هذا. من جهة أخرى نرى أن الجذر (م ر ر) في اللغات السامية يعني «قوى»، كما يعني «مُر» من المرارة. والنظير المصري القديم (الفرعوني) له هو (م ر) ويعني (مَرَضَ) كما يعني (قوي). ولغة مصر الفرعونية كانت من اللغات الحامية، واللغات الحامية تنتمي واللغات السامية الى شجرة واحدة يطلق عليها اليوم اسم شجرة اللغات الساميّة - الحاميّة.

ويطرح جملة احتمالات في اشتقاق اسم (لؤي): إما تصغير لواء الجيش، وهو ممدود، أو تصغير لوى الرمل، وهو مقصور، أو تصغير لأى تقديره لعى، وهو الثور الوحشي، وهو مقصور مهموز. ويستطرد فيذكر اللوى، وهو أعوجاج في ظهر القوس، وكذلك الوجع الذي يعتري البطن، الخ. ونحن نرجح المعنى الذي يذهب الى الثور الوحشي، لأن التسمية بأسماء الحيوانات كانت عادة قديمة (منذ عهد الطوطمية). وبالأكديّة (البابليّة) ليئو: ثور وحشي، مثل (لأى) العربيّة، ومؤنثها ليئتو (بقرة وحشية). و (عبيدي - ليئتي) اسم كنعاني من أيام الملك الآشوري سنحاريب. و (ليئتي) اسم إلهة فينيقية، وهي غير (اللات)، لأن هذه الأخيرة مؤنث (ايل) الكلمة التي تطلق على الإله في اللغات السامية. وكانت (ليئة)، ابنة لابان خال يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الخليل، إحدى زوجات يعقوب، واسمها يعني (بقرة وحشية).

ويرى ابن دريد أن اسم (الياس)، من أجداد الرسول الأبعدين، يمكن أن يكون من قولهم يئس يئس يأساً، ثم أدخلوا على اليأس الألف واللام. ويمكن أن يكون من قولهم: رجل أليس، من قوم ليس، أي

شجاع. والتفسير الأول أحب اليه، كما يقول. ونحن نعتقد أن (الياس) هو ايليا، أو ايلي، بالآرامية (أو السريانية)، من شقيقات اللغة العربية، لأنه اسم شائع عندهم.

وبعد الياس (بمعنى قبله تأريخياً) يأتي مضر، فنزار، فمعد، فعدن، الذي سنناقش اشتقاق اسمه بعد قليل. ثم يقول ابن دريد «فما بعد عدنان فهي أسماء سريانية لا يوضحها الاشتقاق».

وهذا إن دلّ فإنما يدل على أن العرب والسريانيين وبقية الأقوام السامية يعودون الى أصل واحد. لكن النسابة والمؤرخين العرب، ومثلهم الاسرائيليون، يختصرون هذه المرحلة التأريخية الطويلة التي انشعبت منها وتفرعت الأقوام والسلالات السامية. فليس يعقل أن يكون عدنان، الجد الأعلى للعرب «العدنانيين» الجد الحادي والعشرين للرسول. فإذا ضربنا ٢١ في ٤٠، وهو معدل عمر الجيل من الرجال، يكون عدنان قد عاش قبل الرسول بما يقرب من ٨٠٠ سنة، أي قبل ميلاد المسيح بحدود قرنين من الزمن. وهذا لا يقبله العقل، ولا يتفق مع الحقائق والروايات التأريخية (فلقد ذكر الآشوريون في سجلاتهم منذ القرن التاسع قبل الميلاد عن احتكاكهم مع العرب وقبائلهم الشمالية بمزيد من التفصيل). وفي هذه الحالة نحن نتفق مع المستشرق تيودور نولدكه الذي يرى أن النسابة العرب كانوا يبسطون الأمر كثيراً في إرجاع قبائل العرب الى أشخاص عاشوا في عهد ليس بعيداً.

ويشتق ابن دريد اسم (عدنان) من (عدن) بالمكان فهو عادن، أي مقيم. ويرى أن (المعدن) مشتق من هذه الكلمة، وذلك لعدن الذهب والفضة وما أشبهه من الجوهر فيه. ومنه اشتقاق (جنات عدن)، أي دار

مقام. ونحن نتفق مع ابن دريد على هذا المعنى للفعل (عدن) باللغة العربية، وهو ما تؤكدُه المعاجم العربية، لأنه لا يختلف كثيراً عن أقدم معنى للكلمة، كما ورد في اللغة السومرية (وهي غير سامية، بالمناسبة)، فكلمة edin السومرية تعني (سهوب الرعي المشكوفة بين الأراضي المزدرعة).

وعند اشتقاق اسم عمرو بن ود العامري، الذي قتله علي بن أبي طالب يوم الخندق، يُسهب في الكلام على كلمة (ود) بفتح الواو وكسرهما، ويشير إلى أنها صنم. أما بالضم والكسرة فتذهب إلى معنى (الحب). كما أن «ود»، جبل معروف. والوداد والمودة متقاربان. ويدخل في التفاصيل الصرفية للكلمة، ويفهم من كلامه أن جذر الكلمة هو الفعل «ود»، وهو صحيح بالطبع في نطاق اللغة العربية. لكننا لاحظنا أن الجذر في اللغات السامية، يمكن أن يكون كذلك، ويمكن أن يكون «دد»، «دأ». فكلمة (دد) الأوغاريتية الكنعانية تعني (حب) أيضاً، وكلمة (دادو) الأكديّة البابليّة (وهي من اللغات السامية أيضاً) تعني: محبوب، مثلما تعني: ممارسة الحب.

ولعل هذه المادة من ألفاظ الأطفال بالأصل، فهي تطلق على الأب في عدد من اللغات السامية. وحتى الهندية - الأوروبية. فكلمة (أدا) الأكديّة تعني (أب) ومثلها كلمة (أد) الأوغاريتية الكنعانية. و (دادا) العبرية تعني (عم، صديق، محب)، ومنها اشتق اسم (داود). ولابد أن الاسم الفينيقي ديدو Dido (ملكة قرطاجة)، ويعني المحبوبة، يرجع إلى هذا الجذر. كما أن (دود) السريانية تعني (عم). وفي العربية كلمة (دأدد) وتعني (رجل)، والدّد: اللهو واللعب، وكذلك اسم امرأة. ومنهم

من يهمز فيقول أد. مثل أد بن طابخة. و (أدد) جد عدنان كما يزعم.
وإذا انتقلنا الى اللغات الهندية - الأوروبية، نرى أنها من كلمات
الأطفال، كقولهم باللغة الايرلندية: daid، وباليونانية واللاتينية tata،
وبالروسية أيضاً ta'ta، وبالهندية القديمة tatah (أب، ابن).

